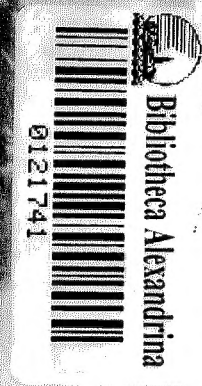


العُرْوَةُ الْوُثْقَى

والثورة التحريرية الكبرى
جمال الدين الأفغاني محمد عبده



محمد عبده

المُرُورَةُ الرُّنْقَى والثورة النحرِيَّة الكبرى

للسيد جمال الدين الأفغانى
والشيخ محمد عبده

تحقيق

صلاح الدين البستاني

جميع حقوق الطبع والترجمة محفوظة للناشر

الناشر:

دار العرب
تأسست ١٩٠٠

للبستاني

٢٨ شارع الفجالة - القاهرة

ت ٩٠٨٠٢٥

إهداء

الى القومية العربية فى أسمى معانيها

الطبعة الثالثة ١٩٩٣

صدرت الطبعة الأولى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٧



الشيخ محمد عبد الله



السيد جمال الدين الأفغاني

تمهيد

أكتب هذا التمهيد بعد ستة وثلاثين عاماً على صدور طبعة العروة الوثقى عام ١٩٥٧ حيث كانت مكتبة العرب فى مكانها فى العقار ٢٨ بشارع الفجالة الذى حولوه رغم أنه إلى شارع كامل صدقى باشا !!

وقد كنت فى الساعة الثالثة والربع يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٩٢ أقف على الرصيف المواجه لمكتبة العرب اشترى لهما للكلاب الضالة التى أرهاها وفجأة اهتزت الأرض وتساقطت أحجار صغيرة بيضاء فى عرض الشارع ، كأنها قنابل يدوية ، وبدأ صراخ الناس وعويل الأطفال وشاهدت بنفسى آثار هذا الزلزال على غرفة قبلىة بأعلى العقار ٢٨ وقد بدأ يتصدع وبقيت مع رجالى حتى التاسعة من مساء ذلك اليوم الحزين ...

وفى صباح ١٣ أكتوبر سنة ١٩٩٢ أبلغنى « آدم » كبير العاملين معى انهيار جدار يجر السلم للعقار داخل المكتبة ... فوجدت كتب التراث قد غرقت وسط الأحجار وتصدعت الأخشاب - بل تكسرت - تحت وطأة الفئوس والآلات الحادة !! وخرجت مذعوراً والتقيت وسط الشارع بصاحب العقار وأبلغته بأن ثمة عمل تخريبى فى المكتبة ... فصرخ ... تخريبى ... كنا سنموت بالأمس من الزلزال وتقول تخريبى ... تخريبى ، ولم أستطع أن أجاريه فى أسلوب حديثه ووجدت نفسى أسير إلى قسم الأزيكية للإبلاغ عن جريمة التخريب

وخلال البلاغ وجدت أمين شرطة يكتب عبارة « انهيار فى مكتبة العرب بسبب الهزة الأرضية » بدلاً من انهيار جدار المكتبة بسبب عمل تخريبى ، فمزقت ما كتبه هذا اللأأمين وأجبرته أن يعيد الكتابة حسب إملائى !!

ولم تمض أيام ثلاثة حتى حصل المالك على قرار بإزالة العقار وبدأ يهدمنى ولا معين ... إلا الله ولجأت إلى صديقى نقيب المحامين الأستاذ أحمد حسن شبن ليوقف ردى نجح الرجل فى إيقاف الهدم بدأت المياه تتسرب إلى كتبى عمداً حتى جاء يوم ١٩ ديسمبر ١٩٩٢ وانهار ، إثر انفجار ، نصف العقار من الخلف ولم يتقدم أحد بإبلاغ الشرطة بهذا الإنهيار غيرى من أهل الحي وعاد الهدم ثم توقف حتى ٣١ يناير سنة ١٩٩٣ . وفى صباح أول فبراير ١٩٩٣ جاءت سيارات وأدوات الهدم وجعلت العقار وكتبى فى مستوى الأرض

هذا ما رآه سكان حى الفجالة وتألّموا لأجله وهم يرون المعاول تنهال وتغتصب العلم وما يجمعه من كتب التراث والكتب الإسلامية والمسيحية على حد سواء.

هذا ما صورته صحافة مصر وما سوف تصوره عند الإنتهاء من نظر الدعاوى المرفوعة أمام القضاء العادل.

قصة هدم مكتبة العرب تستحق التسجيل للقارئ فى أى مكان من العالم وسوف تظهر بإسم : من نعم الزلزال ...

على « دكة » قسم الأزيكية .. !!

لقد ظهرت فى مصر عقب الزلزال نوعيات مختلفة من أخلاق البشر فيها الإيجابى الإنسانى قبل السلبى الشرير !

ومن بين الأشرار فى هذا العالم فئة أخرى أرادت أن تبني ثروات على ظهر الغير.... وهذا الكتاب اعتدى عليه ناشر يحمل إسماً إيرانياً وجواز سفر لبنانى وطبع الآلاف وباعها للجزائر فى المئتينيات ولا حق لى فى مهاجمته بعد موته.

وهناك جمعية تتمسح بالدين فى روما اعتدت على كتابى هذا وحذفت مقدمتى ووضعت مقدمة باللغة الفارسية وسرقت صورة الغلاف وسهى على السارق أن يحذف إسم الفنان الكبير جمال قطب مصمم الغلاف

هذه صور بعض الذين أرادوا الإبداع فى اغتصاب أفكار غيرهم !

لقد كتب الراحل الأستاذ طه عبد الباقي سرور مقدمة للكتاب وأختلف معه فى الهجوم على محمد على باشا منشئ مصر الحديثة

وأضفت على صفحات العروة الوثقى ثبثاً تحليلياً بالآيات القرآنية الكريمة والأماكن والرجال عملاً بالأبحاث الأكاديمية الأصيلة.

وأختم تمهيدى بعبارة الفيلسوف جمال الدين الأفغانى وهو يقول :

« ما اختلف رأيان إلا وكان أحدهما حقاً والآخر باطلاً » .

صلاح الدين البستاني

ربيع عام ١٩٩٣

جمال عبد الناصر يقول ...

« ... ويؤدي إلى تطور الوعي ، ظهور رجال أقوياء ،
ذوى زعامة بادية تفعل فعلها في النفوس بما تنطوى عليه
جوانحها من إيمان وإخلاص ، وما يحمل قلبها الكبير من
حنو على البشرية ، والتخفيف من ويلاتها ، ويتمثل هؤلاء
الرجال في كبار المصلحين الذين حملوا راية الدفاع عن حقوق
الإنسان المهذرة ، وكثيراً ما يؤذون من السفهاء ، ولكن
إشعاع إيمانهم أنار لهم الطريق ، وخطف أبصار المرجفين ،
فإذا دعوتهم تنتشر ، وإذا الوعي يتقدم ، بفضل إيمانهم ،
وشدة إخلاصهم ، ومضاء عزيمتهم ... »

جمال عبد الناصر

وجمال الدين الأفغانى يحذر....

« ... لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث
التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى
أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ،
فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هى
مهبط الوحى ، ومن يمن وتبابعها ، ونجد ، والعراق وبنداد
وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس
وحراؤها ، وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ، فخصمت
جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل
أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ،
 واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم
للخطر الغربى المحدق بهم » .

جمال الدين الأفغانى

الناشر يتحدث

اهتمت دارنا « مكتبة العرب » منذ أن أسسها المرحوم والدى الشيخ يوسف البستاني عام ١٩٠٠ ، وكان وقتئذ يحمل الكتب القيمة تحت إبطه ويقابل العظيم والحقير ليعرض عليه كنوز الأدب والتاريخ وغير ذلك من الفنون . . . وليس في هذا ما يחדش كرامة أبي ، بل هذا ما يرفعه إلى مصاف العصامين الذين بدأوا من لا شيء .

اهتمت دارنا بإحياء كل ما هو نادر قيم مهما كلفنا الثمن . فقد كنا نستطيع أن ننزل في تيار إخراج القصص الجنسية والأوراق الصفراء التي يتهاوت عليها المراهقون والمراهقات بشغف ونهم لا في مصر فحسب بل في جميع أنحاء العالم أيضاً . وكنا نستطيع أن نجتمع بهذه الوسيلة مالا كثيراً !!

ولكننا أصحاب مبدأ ورسالة

ورسالتى ، وقد آثرت التفرغ للطبع والنشر ، بعد كفاح عشر سنوات في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، أن أؤمن أولاً بما أكتب أو الرأى الذى أنشره وألا آتخذ من النشر وسيلة للربح فحسب !! بل آتخذ منه وسيلة أصل بها إلى غايتى من إحقاق للحق وإنصاف للتاريخ الذى شهدته مصر والدول العربية والإسلامية من مستهل القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا .

ولا شك أن عملى فى الصحف المصرية عدة سنوات أتاح لى فرصة طيبة

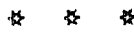
(ب)

للقوف على حقيقة بارزة وهي أن في يد القراء وحدهم رفع مستوى ما يكتب إليهم ،
فأما تقديره والإقبال عليه ، أو رفضه وبالتالي الإعراض عنه .

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم ما هو إلا تجاوب مشترك بين رغبة جامعة
نحو الحرية والاستقلال وبين الثبات والصمود ضد كل ما يعوق هذه الحرية في البلاد
الشرقية عربية كانت أو إسلامية .

إنني على يقين من أن بعض الحكومات — وأرجو أن يحجب ظني —
ستصادر هذا الكتاب وستحمل وحدي هذه التبعة — ورغم ذلك — فإنني أقبل
هذا التحدي عن طيب خاطر .. فخير لي أن أقدم سفيراً مفيداً لعالين جليلين
وأستاذين فاضلين .. وأن تكافئني بعض الحكومات بمصادرة ما أنشره
من أن يمتنع القراء من تلقاء أنفسهم عن الإقبال على هذا الكتاب بدافع الإهمال ..
لا قدر الله ..

والسألة أولاً وآخرها متروكة كما ذكرت للقراء فهم وحدهم مقياس
النجاح والفشل ..



ووسط أمواج من الكتب والمخطوطات العربية النادرة في مكتبتى الخاصة
وجدت نفسى منهمكاً في التهام كل ما يقع تحت نظري من كتب وتعليقات عن السيد
الأستاذ جمال الدين الأفغانى ذلك البطل ونعم الأبطال . ذلك الشريد ونعم التشريد
ذلكم هو المصلح الكبير جمال الدين الأفغانى .

وكل ما كتب عن الأفغانى هو نصف الحقيقة ..

وكل ما كتبه الأفغانى بروحه عن نفسه هو كل الحقيقة ..

(ج)

وإنصافاً للتاريخ — والحقيقة كلها — فقد وجدت وأنا أقلب صفحات (العروة الوثقى) وهي الصحيفة الأسبوعية التي أصدرها الأفغانى فى باريس سنة ١٨٨٤ ليزلزل بها عرش الاستعمار ويستنهض الشرق .. أن خير ما يمكن أن يعود بالفائدة على المكتبة العربية فى هذه الآونة الحاسمة من تاريخنا .. لنعرف ونستلهم من صراع ماضينا مستقبلاً حاضراً .. فى هذا الوقت العصيب الذى يسطر فيه التاريخ مصير القومية العربية .

أخى القارىء الكريم ،

لنمش فترة عابرة مع الأفغانى . الذى ضاقت به سجون أفغانستان فترك بلاده وسطوة الاستعمار البريطانى على أشدها هناك سنة ١٢٨٥ هـ — ١٨٦٩ م وحط الرجل رحاله فى الهند .. وهناك ترصد له نفس المستعمر ليسأله عن المدة التى سيقضيها فى البلاد .

فقال الأفغانى : لا أكثر من شهرين فبثت الحكومة البريطانية عيونها حول زوار ضيفها الجديد ..

فجاءه فى اليوم الأول عشرات .. وزاره فى اليوم الثانى مئات وفى اليوم الثالث والرابع تقاطرت الجماهير عليه .. وهرع العلماء والأعيان لللاقاء بطل جرى .. وغصت الساحات بالوفود .. كلها تريد أن تسمع الأفغانى وهو يحادثها ويناقشها فى شئون بلادهم ..

وحدث ما كان فى الحسبان .. وتقدم مندوب الحكومة أمام الحشود يستعجله فى مغادرة الهند ، فقد أوقد القلوب وطنية لتطالب بحقها فى الاستقلال مافيه الكفاية ويزيد !!

وكادت الجماهير تفتك بمندوب الحكومة لولا تدخل الأفغانى ليهدى من روعها .. ولنستمع إلى الأفغانى وهو يقول لمندوب الاستعمار :

(د)

إننى ما أتيت دياركم لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ولا أنا على استعداد للشغب .. ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى وتفريقها للتظاهرين من زواري وهم أضعف منى .. إنما يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها وضعف شوكتها ، وضيق صدرها ، وعدم أمنها من حكمها وأنها - بريطانيا - فى حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة أضعف بكثير من شعوبها !

وفى صباح اليوم التالى كان بطلنا يشق طريقه إلى مصر . وفى مصر أقام نحو أربعين يوماً . تردد خلالها على الأزهر الشريف وخالط فيها العلماء والطلبة . وسافر إلى الأستانة وهناك عرفوا قدره وعينه الصدر الأعظم على باشا عضواً فى مجلس المعارف .

واشتد الخلاف بينه وبين المزمّتين والرجعيين الذين رموه بالزندقة وهو منها براء ، فعاد إلى مصر مرة ثانية وعينت له حكومة رياض باشا راتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات تكريماً لعلمه وفضله فى زرع الفضيلة والوطنية فى نفوس المصريين .

ووصل نشاط الأفغانى سمع الخديوى توفيق باشا فطلبه ليلقى عليه درساً فى آداب الوطنية ! ! ويستدل من معنى الحديث الذى دار بين الخديوى والأفغانى (١) ما معناه :

قال الخديوى : إننى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل .. واستطرد الخديوى فى إفكه يقول : إن دروسكم وأقوالكم المبهجة ستؤدى بالشعب والبلاد فى تهلكة ..

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى - محمد باشا الخزوى ص ٤٦ .

(٥)

فرد الأفغانى على الخديوي بكل أدب : (ليسمح لى سمو أمير البلاد
أن أقول بحرية وإخلاص أن الشعب المصرى كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود
الخامل والجاهل بين أفراده . ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً
فبالنظار الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى .. ينظر به لسموكم !

واستطرد يقول : وإذا قبلتم نصحى وأسرعتم لإشراك الأمة فى حكم
البلاد فتأمرون بإجراء إنتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين .. فإن ذلك أثبت
لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

وخرج الأفغانى من حضرة الخديوى وقد قصد العزم على تنفيذ خطته
التي لم تلق تأييداً لدى الخديوي .. وأخذت خطبه الثورية تستفز الخامل وتوقظ
العاقل حتى أضحي الجبان شجاعاً !

وإن هي إلا فترة قصيرة حتى بدأت بذور الحركة الفكرية فى الظهور ..
وأخذت الحكومة تماطل وتتقرب من الشعب وتمنيه بالمجلس النيابى .

وطلب الأحرار من الأفغانى أن يضع الأساس للمجلس النيابى المصرى
فخطب فيهم (إن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى
إلا إذا كانت منبثقة من نفس الشعب وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير
أو قوة أجنبية فإن حياة تلك القوة النيابية الموهومة - التى لا تستند إلى الشعب -
موقوفة على إرادة من أحدثها)

ويقول الأفغانى : ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم وهيئوا
ما يلزم من العزم وما يتطلبه الحكم الذاتى من القوى .

(و)

ويؤكد الأفغانى لمصر والدول الشرقية أنها لن تحيا إلا إذا أتاح الله لكل منها رجلا قويا عادلا يحكم بإرادة شعبه حكما لا فردية فيه ولا بطش ولا جبروت . لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

ويتحدث الأفغانى عن أقوياء الرجال الذين اختارهم ليحكموا بلادهم فيقول :

ذلك الرجل إما أن يكون موجوداً أو تأتى به الأمة فتملكه ، على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى .. وتؤكد للحاكم أن التاج سيبقى فوق رأسه ما دام محافظاً أميناً على صون الدستور . أما إذا خنت بقسمه وخان دستور الأمة ، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس !

ولنستمع إلى المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق ليحدثنا عن الأفغانى الإنسان :

(ولم تكن هذه الشواغل ^(١) لتعوق جمال الدين عن متابعة الدراسة العلمية العالية التى كان له إليها نزوع شديد . ولقد كان ينتقل فى البلاد مصحوباً بكتبه وكان قارئاً نهماً لا يشبع ..) .

وفى سنة ١٨٩٦ — وكان الأفغانى وقتئذ فى الأستانة — كتب سائح ألمانى زاره يقول : يعيش الأفغانى بين مظاهر خداعه من عطف السلطان — عبدالحميد — ودسائس لا تحصى يبيتها له رجال القصر . وكم تضرع إليهم أن يأذنوا له بالسفر ولكنهم أمسكوه بقية عمره فى إيسار مموه بالذهب !

وبتهم المؤرخون الإيرانيون السلطان عبدالحميد بأن موت الأفغانى لم يكن طبيعياً وأنه لقح فى شفته بمصل سام سبب له سرطاناً .

(١) يقصد بها الرحلات الكثيرة التى قام بها الأفغانى حول العالم .

(ز)

وخاف السلطان السفاح عبدالحمد على نفسه فاستعجل دفن جثمانه الطاهر بعد ساعتين من إسلامه الروح لبارئها وسير جنازته رسمياً يحوطها البوليس والجواسيس خشية وقوع فتنة من أنصاره الذين كانوا في ريبة من أسباب موته .

ويختتم طيب الذكر الأستاذ عبدالرازق حديثه فيقول : (إذا كان قبر السيد جمال الدين الأفغانى ظل مهتماً مهجوراً ، فقد جاء عام ١٩٢٦ إلى الاستانة المستشرق الأمريكي المستر كرين وشيده لحسابه تحية لبطل قلما يوجد الزمان بمثله .

فحسب الأفغانى شرفاً أن الطغیان قضى عليه وحسبه عظمة ومجداً أنه أول رسول أودى وشرذ ونفى واستشهد فى سبيل أعز ما يمكن للجنس البشرى أن يفخر به من حرية وعدالة وسلام .

صالح

وقد تفضل الأستاذ طه عبدالباقى سرور المؤلف المعروف فكتب يحدثنا عن قصة الأحداث التى عاصرتها مصر منذ عهد محمد على باشا حتى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وهى الثورة التى أطلقنا عليها اسم (الثورة التحريرية الكبرى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العروة الوثقى

والثورة التحريرية الكبرى

عقد المستشرق العلامة ليوبولد قابس^(١) فصلا في كتابه العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » بعنوان — شبح الحروب الصليبية — قال فيه :

« إن اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنهم وخدام المتدينون ، أما كل من كان أجنبياً عنهم ، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظ « البرابرة » ومنذ ذلك الحين ، والأوروبيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع ، ثم أن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبيا من أجناس وشعوب قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدينة الغربية »^(٢) .

هذا هو التصوير النفسى ، للانفعالات الغائرة في أعماق الروح الأوربي ، الانفعالات التي انبثقت منها تلك النظرة المتعالية المتكبرة التي ترى بها أوروبا الأجناس الملونة في أى بقعة من بقاع الكوكب الأرضى ، خارج المحيط الأوروبى^(٣) .

(١) أسلم بعد سباحة دراسية عميقة في الشرق الإسلامى ، وتسمى باسم « محمد أسد » وأصبح من أكبر دعاة الفكرة الإسلامية العالمية .

(٢) ومن هنا نشأت فلسفة الإمبريالىزم الأوروبية التي لحصتها الكلمة الغربية المشهورة — البقاء للأصلح — أى للأوروبى ، لأنه الأقوى .

(٣) يقول الفيلسوف الفرنسى جوستاف جرو نياوم في كتابه « حضارة الإسلام » عن الإمبراطورية الرومانية — فن عاش داخل الإمبراطورية ينتسب إلى شعب الله ، وأما من كانت يعيش خارجها فلم يصل بعد إلى الإنسانية الكاملة !!

ولكن أوروبا فوق هذه النظرة المتعالية المتكبدة ، المعتزة بنفسها ، المحتقرة لكل شيء سواها ، تختص العالم الإسلامي بشيء يتجاوز الكبرياء والازدراء إلى البغض العميق ، والنقل القاتم المسموم الذي يأكل روحها عداوة وموجدة للإسلام وأبناء الإسلام .

يقول العلامة ليوبولد :

«إن الاصطدام العنيف الأول بين أوروبا المتحدة من جانب ، وبين الإسلام من الجانب الآخر ، أى الحروب الصليبية ، يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوروبية ، ومن هنا تكونت العقدة الكبرى في روح تلك المدنية .

لقد كانت ثمة حروب بين المسلمين والأوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية ، كانت فتوح العرب في صقلية والأندلس ، وكانت هجوماتهم على جنوب فرنسا ، ولكن هذه المارك كانت قبل أن تستيقظ أوروبا إلى وعيها الثقافي الجديد فاتسمت من أجل ذلك ، ومن وجهة النظر الأوروبية على الأقل ، بطابع ذي نتائج محلية .

إن الحروب الصليبية هي التي عيّنت في المقام الأول ، والمقام الأهم ، موقف أوروبا من الإسلام لبضعة قرون تتلو ، لقد كانت الحروب الصليبية حاسمة لأنها حدثت في أثناء طفولة أوروبا ، في المهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت لا تزال في طور تشكيلها ، والشعوب كالأفراد .

وإن الحمية الجاهلية العامة التي أثارته تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبا من قبل ؟ ولا أتفق لها من قبل ؟ لقد اجتاحت القارة الأوروبية كلها موجة من النشوة كانت عنفواناً تخطى الحدود التي بين البلدان وبين الشعوب ، ولقد أتفق ذلك الحين ، وللمرة الأولى في التاريخ أن أوروبا أدركت في نفسها وحدة ، ولكنها وحدة في وجه العالم الإسلامي ، ويمكننا

أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة ، إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية ؟!

وقد ولدت أثناء الحروب الصليبية فكرة المدينة الغربية ، وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء ، وكانت تلك المدينة الغربية عداوة للإسلام .

ولقد كان في الجانب الإسلامي دائماً رغبة مخلصه للتسامح التكافؤ وللإحترام ، ولكنه أبداً لم يلقى معاملة المثل .

إن خير وسيلة يجب أن يلجأ إليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربي على احترامهم ، هي أن يكونوا أقوياء .

ويقول الكاتب الفرنسي ، « مالك بن نبي » الذي عاش في الشمال الإفريقي وامتزج به وأحبه واعتنق الإسلام ولاقى الأهوال في سبيل الدفاع عنه (١) .

« ... لا يجب أن ننسى أن أوروبا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على مصير النوع البشري لم تعترف منذ عصر بوكاشيو — حين كانت مدينتها لاتزال في المهذ ترضع اللبن العربي — بأية مدينة إسلامية . ولنستمع إلى جوستاف لوبون ينهى كتابه عن المدينة العربية بقوله :

لربما يتساءل القارئ إذاً عن السبب الذي ينكر من أجله العلماء — الذين يجب عليهم أن يتجردوا عن كل تعصب ديني — اليوم تأثير العرب ... والواقع أن استقلال الرأي ظاهري أكثر منه حقيقي ، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض الموضوعات . فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام

(١) مستقبل الإسلام . ترجمة شعبان بركات . طبع بيروت ص ٢٩

وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوى .

ويقول الكاتب العالمى « حيدر بامات » فى كتابه (١) .

« لا تزال النصرانية تواجه الإسلام بحقد وازدراء يمليهما التعصب عليها ، ويتجلى هذا على وجوه كثيرة ، ومنها ما نرى فى الفقه الدولى الذى لا يعامل الأمم الإسلامية معاملة تكون بها مساوية للأمم النصرانية .

وتعتذر الحكومات النصرانية عما تسوم به الدول الإسلامية من حملات وإهانات باستشهادها بما هي عليه هذه الدول الإسلامية من تأخر وتوحش ، ومع ذلك فإن تلك الحكومات النصرانية نفسها هى التى تقيم العقوبات من كل وجه ، حيال كل سعى إلى الإصلاح والنهضة فى بلاد الإسلام . .

(١) مجالى الإسلام ، صفحة ٥٠٠ ترجمة عادل زعيتر ، طبع عيسى البابى الحلبي .

المنهج الاستعماري الأوروبي

ولقد رسم الغرب مناهجه الاستعمارية على أسس علمية دقيقة ، أسس تجردت من الأخلاق تجردها من الشرف ، وبعدت عن الإنسانية بعدها عن كل نبيل رفيع في الحياة .

أسس استهدفت غايتين :

الأولى : تحطيم قوى الشرق المعنوية والمادية والروحية ، تحطيمها يحيل هذه الأمم إلى قطيع بدائي ، مسلوب الرأي ، مزئول العقيدة ، مهدر الحقوق .

فالقومية ، تمصب أحمق ؟ والوطنية ، تطرف ضار ؟ والكرامة ، زهو وحش ؟ والشعور الفطري ، كراهية للأجانب ؟

وقامت أجهزة الدعاية الغربية الماهرة المدربة بهذه الغاية في دقة كاملة ، وعلى نطاق الحرب النفسية الشاملة .

والثانية : أن تتحول بلاد الشرق إلى اقطاعات زراعية ، ومناجم للعواد الأولية ، لتمد الغرب بحاجياته ، ليقوى ويعتز ، وترداد قبضته تحكما وقسوة .

ورسمت برامج التعليم ، ووضعت مناهج الاقتصاد ، ودارت عجلة الحياة بكامل ألوانها لتؤدي إلى الهدف المنشود .

يقول مالك بني^(١) متحدثاً عن الأجهزة الاستعمارية الخفية « . . ولهذا

(١) مستقبل الإسلام ص ٧٨

الاستعمار مجامعه ، كمدارس العلوم الاستعمارية ، كما أن له برنامج العام وهو عبارة
الميثاق الاستعماري الذي يتغير حسب تغير الحاجات ، وتطور الحوادث ، ليتلاءم
دائماً والأوضاع الجديدة ، كما تعقد المؤتمرات بانتظام تحت أسماء مستعارة تخفي
أهدافها الحقيقية .

وهكذا يجد الشعب المستعمر نفسه ضمن إطار مصطنع ، يعمل كل جزء
فيه على إفساد الفرد . ! ؟

هذا التوجيه الخاطئ هو في الحقيقة تدمير يتغير حسب تغير الأوضاع
الجديدة ويقف في وجه كل مبادرة جديدة ، فيعتمد إلى القضاء عليها .

ولهذا كان لابد أن يهتم المستعمر بتزييف النهضات اهتماماً كبيراً . وزى
ذلك فيما أدخله المستعمر في المجتمع الإسلامي الحديث من عناصر التخريب ، وعوامل
الفوضى ، ولقد أوحى إليه السلطة التي يتمتع بها كما أوحى إليه طموحه الذي
لا يجد ، فكرة مجنونة محزنة لإيقاف سير المدنية في البلاد المستعمرة .

فألب على حركة التجديد جماعة الرابطين والباشوات والمتزمتين وشبه
الجامعيين الذين قاموا بتمثيل دور الدفاع عن التقاليد الإسلامية — الزائفة —
وإذا بكلمة « التقاليد » هذه تصبح شعار السياسة الاستعمارية إجمالاً .

ثم يقول :

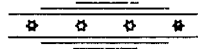
ولهذا لا يكف الاستعمار عن ترديد قولته المشهورة في تاريخ الشعوب
المستعمرة « قفى أيها الشمس عن الدوران » !!

فكان هذا القول الذي لم يخطر ببال جنكيزخان أو أتتلا ، الصفة السياسية
في الوقت الحاضر لأخط صور الاستعباد الإنساني في القرن العشرين ، عنصر
المدنية الأوروبية .

ويكتب رينان فيلسوف أوروبا الحبيب إلى قلبها فيقول محمداً وظائف
الأوروبيين ، ووظائف الشرقيين في المستعمرات :

« إن العنصر الأوروبي ، هو عنصر الأسياد والجنود ، ولهذا فإن حمل
هذا العنصر النبيل على العمل كما يعمل العبيد والشرقيون يدفعه إلى الثورة ، وذلك
لأن كل ثائر عندنا ، إنما هو جندي لم يؤد رسالته لأنه مخلوق وجد ليحيا حياة
البطولة ، فإذا به يجبر على القيام بمهمة لا تتفق وعنصره ، فهو عامل فاشل ، وإن
كان جندياً بأسلا ، غير أن الحياة التي يثور عليها عمالنا ، تجعل الشرق والفلاح
سميدان ، وهما كائنات لم يخلقا للحرب ، فليقم كل منا بما خلق له ، فتسير الأمور
عندئذ على آتم وجه » .

ليقم كل منا بما خلق له ؟ ليقم الأوروبي النبيل الشجاع الأبى ، بدور
السيد البطل المتعالي ، ولنقم نحن أبناء الشرق بدور العبيد الأذلاء ويومئذ ،
ويومئذ فقط ، تسير الأمور على آتم وجه وأكملة ؟!



كفاح الأحرار

ولقد تعمدنا أن نطيل الحديث عن الروح الإستعماري الأوروبي ، ومناهجه وأهدافه ، ونظرته المتعالية المتكبرة إلى الشعوب الملونة ، ونظرته المسمومة الحقوق إلى العرب والإسلام ، لأن محور هذا الكتاب « العروة الوثقى » إنما يدور حول نضال العرب والإسلام التاريخي لهذه الروح الإستعمارية الباغية المتسيطرة .

ولقد ابتلى العرب ، وابتلى المسلمون بهذه الروح بلاء تاريخياً ، فبلادهم هي مفاتيح الشرق بأسره ، هي البرزخ الذي تعبر منه أوروبا ، إلى أعماق القارتين الملونتين ، القارتان اللتان يسيل لعاب الاستعمار حول كنوزها وموادها .

وأرضهم هي قلب الدنيا ، وأغناها بالموارد التي تبعث الحياة في الحضارة القائمة ، وتدير عجالاتها ، وتكون طاقاتها .

وكما يقول صاحب « مجالى الإسلام » : إن جميع الطرق البحرية والجوية الكبرى التي تتجه من الغرب إلى الشرق ، وجميع الطرق البرية التي تقود من الشمال إلى الجنوب ، تمر من بلاد الإسلام .

ولهذا كان الثقل الأوروبي الاستعماري على تلك المنطقة أعظم ثقل استعماري في التاريخ ، ومن ثم شهدت تلك المنطقة أروع ضروب النضال والجهاد في سبيل الحرية والحياة .

وأصبح مستقبل الإنسانية بأسره ، وفقاً على نتيجة الصراع الداخلي

والخارجى الذى تدور رحاه فى أرض العروبة والإسلام من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى .

وبهذا النضال المشبوب منذ أكثر من قرن حملنا أمانة عالمية يتوقف عليها غد الإنسانية ، بل يتوقف عليها رسالة النوع البشرى كافة .

فصرعنا المتهب مع الاستعمار ، هو صراع فى سبيل المثل الإنسانية الرفيعة كافة ، فى سبيل الفضائل والأخلاق التى بعث بها الأنبياء ، ودعا إليها الأحرار ، وقامت عظمة بنى الإنسان على إحساسه بها ، وتناديه إليها ، وجهاده فى سبيلها .

إننا بهذا الصراع إنما نقاوم البربرية والوحشية فى أبشع صورها ، نقاوم الإلحاد والموروق فى أحط ألوانهما ، نحارب روح الشيطان الذى تنفث فى كيان الاستعمار الأوروبى ، ليملأ الدنيا دماء وشقاقاً ، وتعاسة وبغضاً .

ومن واجبتنا اليوم ، والصراع لا يزال دائر الرحى بيننا وبينه أن نعرف تاريخنا معه ، وأن نحصى معاركنا ونتدبرها ، لتتفهم وسائل خصمنا وأساليبه ، ومراوغاته ودعاياته .

لقد خدعنا الإستعمار عن أنفسنا ، فسمى قوميتنا تعصباً ، وحقنا عدواناً ، وتحورنا بغضاً للأجنبى ، وتفضّل فوسم ديننا بالجمود والتأخر والبدائية المنبقة من الصحراء ؟ !

ولكننا اليوم لن نخدع ، فقد طال بنا وبه التاريخ ، حتى لم يعد ثمة من جديد فى تفكيره ووسائله ، إنه يخوض معنا معاركه الأخيرة وقد تكون معركته الفاصلة ، أشد بأساً وتنكيلاً ، ولكنها تسير إلى نهايتها المحتومة .

إننا الآن كما يقول الرئيس جمال عبدالناصر : (١)

« بيننا وبين الاستعمار معركة قد بدأت في بعض الميادين ، ولكن معارك في ميادين أخرى لم تبدأ بعد بيننا وبينه ، وإن لنا وله كذلك غداً قريباً أو بعيداً ، نفعل فيه عاراً ، ونحقق أماناً ، ونسترد حقوقاً » .

ومن واجبنا ونحن في هذا الصراع المتعدد الميادين والساحات ، أن نتفهم تاريخنا معه ، وأن نذكر مناضلينا الكبار الأحرار ، الذين ناهضوه في عزة ، وقاوموه في بأس .

وأن من أخلد صفحات هذا النضال ، لصفحة « العروة الوثقى » صحيفة الثوار الأوائل الذين صاحوا في سماء الشرق فكانت صيحتهم هي البعث والأمل .

وإن كنا اليوم نعيش في دائرة من النور والأمل ، والتطلع إلى النصر الذي تلوح بوادره في الأفق ، نعيش في ظل نهضة وثورة مؤمنة منتصرة ، فإن جذور تلك الثورة ، وعروق تلك النهضة إنما زكت أصولها ، ونمت جذورها على يد المبقرى الأبى المناضل الثائر جمال الدين الأفغانى وزميله وتلميذه الإمام محمد عبده .

ولقد حفظت لنا مقالات « العروة الوثقى » التي تقدمها اليوم إلى القراء جهاد هذين الأمامين الثائرين .

جهادها مع الإنجليز ، ومع الخديوى ، بل جهادها مع الاستعمار قاطبة ، الذين ابتلى بهم الشرق ، فكانوا أنكى ، وأشد قسوة بشعوبهم من الاستعمار نفسه .

(١) من كلمة للرئيس قدم بها كتاب « هذه هي الصهيونية » من سلسلة اخترنا لك .

لقد كانوا أدوات الاستعمار وسوطه ولسانه ، بل مطيته التي امتطاهها
لإذلال الشعوب ، واستعباد الجماهير ، والفتك بالأحرار ، وإخفات أضواء
المناضلين الثوار .

ولئن كنا نحن الذين عشنا في عهدي فؤاد وفاروق ، قد رأينا الأقلام
وكيف تزلفت إليها ، وكيف لانت وهانت وتبذلت ، ورأينا الرؤوس وكيف
انحنت وتطامنت حتى رؤوس الزعماء الكبار وأشباه الكبار ! ؟ حتى كدنا
أن نؤمن ونحن داخل الأسوار ، يصب في مسمعنا بالليل والنهار ، والحمد
والإكبار لأصحاب التاج وحاشية التاج ، كدنا أن نؤمن بأن الزلنى والخضوع
لأولياء النعم ، فطرة فطر الله الناس عليها ؟ وأنه ليس في طاقة مناضل ، أو كاتب ،
أو زعيم ، أن ينال من العروش وأصحاب العروش ! ؟ ، فإن جمال الدين الأفغانى ،
الذى طوف بالشرق والغرب قد تحدى ملوك الشرق كافة ، تحداً في مصر ،
وإيران ، وأفغانستان ، والهند ، حتى خليفة تركيا المهول بقداسته الخيف بقسوته .

تحداًهم بقلبه ولسانه . تحداًهم حتى الموت ، وعندما أغتال الثائر ،

محمد رضا ، شاه إيران المستبد المتعطر صاح وهو بطعنه ، : خذها من يد جمال

الدين . وكان الخليفة عبدالحميد فى استامبول يقول : لا آمن على نفسى ، وهذا

المخلوق الخطر يجاورنى ! ؟

وكذلك كان محمد عبده عنيفاً مع طغاة الشرق عنفه مع مستعمرى

الشرق وما أحسب أن كاتباً استطاع أن يهاجم محمد على . وأسرّة محمد على ، تحت

ظل الجبروت الحديوى ، كما تحدى محمد عبده وكتب .

ولقد كتب مقاله هذا فى سنة ١٩٠٢ م لمناسبة الإحتفال بذكرى مرور

مائة سنة على تأسيس محمد على للدولة المصرية ليهدم الأسطورة الزائفة .

ماذا صنع محمد علي ؟

..... لم يستطع أن يحبى ، ولكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعاناه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً فيه ضمير « أنا » وأخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهالى ، وتكرر ذلك منه مراراً ، حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلمه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل ويعلمهم في البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ؟ ! حتى انحط الكرام وساد اللثام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية في الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه : فحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعاً إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على إثر إقطاعات كثيرة لفيره .

أهداف محمد علي الشخصية؟

إشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني ، فيجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين : فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها ، وانقلب الوطني غريباً في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلان . ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبي إياه ، ليصل إلى ما يريده منهم ، غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة ، قالوا أنه أطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم غنى بالطب ، لأجل الجيش والكشف على الجنى عليهم في بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم ، وبالهندسة لأجل الري ، حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير .

هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقيم بها الشرع ويستقر العدل .

لم يكن شيء من ذلك : بل كان رجال الحكومة إما من الأرناؤوط ، أو الجراكسة ، أو الأرمن الحورانية ، أو ما أشبه هذه الأوساط وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم « دخلاء » وكانوا يحكمون بمباهيون ، لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون ، وإنما يبتغون مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير .

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يثثوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لها إرادة فيما تصنع !!

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى ، من التاريخ والفلسفة والأدب . ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا !! فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها . فنثرتها بين الناس ، فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة الرؤساء من الأوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد ، لكنهم لم ينجحوا ، لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون .

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى ، كما يتخطفون عساكر الجيش ، فهل هذا مما يحب القوم في معلم ، ويرغبهم في إرسال أولادهم إلى المدارس ! لا بل كان يخوفهم من المدرسة ، كما كان يخيفهم من الجيش !!

حمل الأهالي على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات ، ولذلك كانوا يهربون من تلك الأطنان ، كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد ، تشهد بذلك .

يقولون أنه أنشأ العامل والمصانع . ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصناعة حتى يستبقوا تلك العامل من أنفسهم ! وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصناعة وينشرونها في البلاد ! أين هم ! ومن كانوا ! وأين آثارهم ! لا بل بغض إلى المصريين العمل والصناعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بشمرته : فكانوا

يتربصون يوماً يماقبون فيه على هجر العمل والمصنع ، لينصرفوا عنه ساخطين عليه ،
لا عنين الساعة التي جاءت بهم إليه !

يقولون أنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ
أسطولا ضخماً تنقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار ، فهل
علم المصريين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والفتن ، وحجب إليهم
الخدمة في الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ! لا بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء
الشبان وأمهاتهم أن ينحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت .

وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرز مصر ! لا يخرج منها إلا بالموت !
هل شعر مصرى بعظمة أسطوله ، أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم
أن يضيف ذلك إليه بأن يقول : هذا جيشي وأسطولي ، أوجيش بلدي وأسطوله ،
كلا لم يكن شيء من ذلك . فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً
لظلاله ، فهي قوة خصمه . فما أُر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر :
أثر كله شر في شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت .

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي . دخل الإنجليز
مصر بأسهل مما يدخل به ذامر على قوم ، ثم استقروا ، ولم توجد في البلاد نحوه
في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند
دخول الفرنسيين مصر : وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى ، والموت الأخير .

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول إن محمد علي جعل جدران سلطانه
بنية من الدين ، أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي ! دين التحصيل ، دين
الكرباج ! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ! وإلا فليقل لنا أحد من الناس ،

أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ، لا يذكر
إلا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين للدين .

ولا أظن أن أحداً يرتأت بعد عرض تاريخ محمد على - على بصيرته -
أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً بأسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه لمصر
قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من
أثر غيره .

—————

الشيخ محمد عبده

بقلم تلميذه

المهموم مصطفى عبد الرازق

ولد الشيخ محمد عبده في محلة نصر - إحدى قرى مراكز شبراخيت بمديرية البحيرة . كان أبوه عبده خير الدين^(١) ممن رزقوا بسطة في جسومهم وقوة ومرتوا على الرماية والفروسية . . . فكسبوا من الهبة بقوتهم وبطشهم فوق ما كان لهم من عز ومال .

حفظ الشيخ محمد عبده القرآن في بلده ثم ذهب إلى طنطا فجوده في الجامع الأحمدى ، وصعد عن طلب العلم فعاد إلى بلده ليستغل بالزراعة^(٢) ، وتزوج يومئذ على حداثة سنه .

ورحل الشيخ بعد ذلك إلى الأزهر الشريف واجتمع بالعلماء ورجال الدين ، ومن بينهم الأستاذ جمال الدين الأفغانى .

ألف في التصوف « رسالة الواردات » . . .

(١) أما أم الشيخ محمد عبده فهي السيدة جنينة أيم ذات ولد من حصة شيشير مركز السنطة بمديرية الغربية تزوجها أبوه مطارداً من بعض الحكام .
(٢) وسرعان ما عاد إلى العلم مربة ثالثة بإعاز من شيخ بدعى درويش خضر .

ألف حاشية على شرح التصووافي على العقائد المضدية في التوحيد . وأخذ يكتب فصولاً ممتعة في الصحف استرعت إليه الأنظار .

ثم نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن الشيوخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أسناذه (١) .

وعين على أثر ذلك مدرساً في مدرسة دار العلوم وفي مدرسة الألسن الخديوية . ولما نفى الأفغانى من مصر عزل تلميذه وحددت إقامته . وعفى عنه بعد تعيينه محرراً في جريدة (الوقائع الرسمية) إلى أن عين رئيساً للتحرير .

واندلمت نيران الثورة العراقية فحوكم مع زعمائها ونفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر . فتوجه إلى سوريا وهناك تلقى دعوة من أستاذه الأفغانى للحضور إلى باريس ، حيث أصدر (المروءة الوثقى) .

وبعد ثمانية أشهر رجع الشيخ إلى بيروت وعمل أستاذاً في المدرسة السلطانية .

وألف في ذلك الوقت (رسالة التوحيد) .

ونقل إلى اللغة العربية (رسالة الرد على الدهريين) (٢) .

وشرح (نهج البلاغة) .

وشرح (مقامات بدیع الزمان الهمداني) .

وفي بيروت تزوج زوجته الثانية بعد وفاة زوجه الأولى .

(١) جمال الدين الأفغانى ، مطبعاً !

(٢) وكان السيد الأفغانى قد كتبها بالفارسية .

وعاد من منفاه فعين قاضياً أهلياً فستشاراً في حكمة الاستئناف الأهلية .
 ثم عضواً في مجلس إدارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس ليكون رسول الإصلاح .
 ثم عين مفتياً للديار المصرية حتى أدركه الأجل !
 وفي عهد توليه الإفتاء كتب في إصلاح المحاكم الشرعية تقريراً جليلاً .
 وأصدر فتاوى ذات شأن .

ووضع تفسير (جزء عم) .

وألف كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

هذه الصورة المجلدة من تاريخ الشيخ محمد عبده تبين مناصبه وتعدد مؤلفاته ،
 ولكنها لا ترسم جوانب عظمته ، فإن المناصب والكتب ليست بجلى عظمة الشيخ
 محمد عبده ، وإن كان ترك نفضة من النبل والعظمة في كل ما اتصل به .

إن الشيخ محمد عبده مصلح جرى ، حاول الهدم والبناء في أقدس هيكل
 عند البشر ، فيما يعتبره الناس ديناً .

أرسل صيخته في الأزهر تدوى بين شيوخ ، إن لم يكونوا يومئذ هيثة كبار
 علماء ، فلعلهم لم يكونوا دون هؤلاء جوداً .

ولم ييال الأستاذ بما لقي من الأذى ، وقد لقي من الأذى كثيراً .

* * *

وأشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخرها الله لعبقريته ،
 وكان صوته العذب المؤثر من جنود عبقريته أيضاً .

كنت طالباً من صفار الطلاب أيام حاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان
أسأدتنا عفى الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطراً على الدين وأهله
داها ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو أستمع
لدروسه مع أنه صديق لوالدي .

* * *

وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجوه الملحدین وتشبه معها
عقولهم وقلوبهم !!

فلما رأيت الرجل بالرواق العباسي وسمعته يفسر كتاب الله قلت من
ذلك اليوم :

اللهم إنه ظلم هذا الحاراً فأنا أول الملحدین !!

وقال المرحوم قاسم أمين ، محرر المرأة المصرية ، في وصف الشيخ محمد عبده :
بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة : كان يجذبه الخير
كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير ، عام أو خاص .

كما يلجأ للقراء واليتامى والمظلومين والمصايين بأى مصيبة . وأهل
الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة لأنهم في وسط المدينة الحاضرة
المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة . يبذل إليهم
ماله ويسعى لهم عند ولادة الأمور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز
إنسان لديه . بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدر فيه وتحالف
مع خصومه في ترويح مبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً مدى حياته .

كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً ، وأن التسامح والعفو عن

كل شيء ومن كل شخص ها أحسن ما يعالج به السوء ، ويفيد في إصلاح قاعله .

* * *

وتتلخص دعوة الشيخ إلى الإصلاح الديني في أمور ثلاثة : -

أولاً : تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير

سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدين والدنيا على حد سواء .

ثانياً : إعتبار الدين صديقاً للعلم ولا موضع لتصادمهما ، إذ لكل منهما

وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من مستلزمات البشر ، لا تغني إحداهما عن الأخرى .

ثالثاً : فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع

في كسب عارفه إلى ينابيعها الأولى .

ومنابع الإسلام في سداخته وبراءته التي ورد بها من صاحب الدين

نفسه هي :

﴿ الكتاب وقليل من السنة في العمل . ﴾

هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يرد إليه الدين الإسلامي في مذهب أستاذنا .

* * *

ولا شك أن الشيخ قد تأثر بالحياة الغربية على وجه ما في حياته العقلية

ومعيشته الخاصة ، ذلك بأنه تعلم اللغة الفرنسية وسافر إلى أوروبا عدة مرات وعاش

الأوروبيين في مصر وفي غير مصر ، فاستفاد من مخالطته وسياحاته ومن مطالعته

الكتب الغريبيين في الفنون المختلفة ، وظهر أثر ذلك في أفكاره وكتابات ودعواته الإصلاحية .

* * *

ولا يسع المؤرخ حين يترجم للشيخ أن يغفل الإشارة إلى ما بلغه الرجل في حياته من عز وجه وحرمة موفورة ، كان للشيخ خصوم يكرهونه ويكيدون له ويضعون له العقبات في سبيل إصلاحه ، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يفض من جلال الشيخ أو ينكر عليه منزلته الرفيعة في النفوس . ١ هـ .

* * *

ومحمد عبده إذ يرسل قلمه النارى ليدفع رأس الأسرة الدخيلة ، متحديا جبروتها وبأسها ، كان يعرض كل ما في حياته للخطر والتدمير

كان طليعة للأحرار ، وكان الأحرار يجدون أنفسهم في عزلة وغربة ، بعيدين كل البعد عن المؤازرة الشعبية التي يستند عليها الأحرار في كفاحهم ونضالهم ، فقد ران على مصر في عهد الأفغانى ومحمد عبده ظلما قاتلا خائفاً .

كانت مصر في عهدهما تعاني فقراً وجهلاً وانهيأراً كاملاً وكان ذلك ثمرة طبيعية للحكم الاستبدادى الجاهل الذى ران عليها قرابة نصف قرن تحت ظل الفطرسية التركية الملكية .

ولقد ترك لنا محمد عبده في مذكراته التي لم تنشر عن أسباب الثورة العرابية وثيقة هامة عن حالة مصر في ذلك العهد جاء فيها :

« ٠٠٠ أن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٧ م كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنبيه عنه في تدبير

أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته . . ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه في إدارة بلاده . . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء أ كانت إسلامية أو أوروبية ، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على إلى ذلك التاريخ الذي ذكرناه (١٨٧٧) . . لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارك التي اكتسبها ، ومع أن اسماعيل باشا أبدع « مجلس الشورى » في مصر سنة ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده في النظام والعمل ، أما في النظام فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ، وما يعين لها أن ترسله إليه للمداولة فيه . وأما في العمل فلأنه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادة أفندينا !! ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بأن الإرادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم .

هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به ! هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، أو الوجهة التي يتوجه إليها الحاكم ! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خيراً من تلك . هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ! كلا فإنه كان ، بجانب كل لفظ نفي عن الوطن ، أو إزهاق للروح ، أو تجريد من المال .

ظهور الأفغانى

ثم يواصل محمد عبده كلامه فيقول :

• • • وبينما الناس على هذا ، لا كاتب ينههم ، ولا خطيب يعظهم ،
إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه ، وإن كان مما جرت به السنة الإلهية في
كل زمان .

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ . رجل غريب بصير في الدين ، عارف
بأحوال الأمم ، واسع الإطلاع ، جهم المعارف ، جرىء القلب ، وهو المعروف
بالسيد جمال الدين الأفغانى .

اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية • • • وكان طلبة العلم ينتقلون
بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والراؤون يذهبون
بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب
الفيلة » .

ويقول العلامة حيدر بامات (١) واصفاً قدوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر
وأثره فيها .

• • • » ويمر من الهند ومصر والامستانه ويستقر بالقاهرة سنة ١٨٧١ م
ويقوم بها ثمانى سنين ، ويكون هذا الدور من أكثر الأدوار خصباً في حياة جمال

(١) مجالى الإسلام ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

الدين الكثيرة الحركة ، ويجعل من منزله الخاص جامعة حرة يلقى فيها دروساً عن مذاهب الإسلام الكلامية والفلسفية ، ويمزج بين أفكاره السياسية وتعليم العلوم الإسلامية الخالصة من كل روتين رسمي ، والمستقصاه بروح عصرى ، وببذل طاقته لدى المستمعين فى إيقاظ الميل إلى النظم الحرة والعزم على إنقاذ بلدهم من سلطان القوى الأجنبية ، وما اتفق له من نفوذ فى طبقات مصر المثقفة كان له بالغ الأثر فى اشتعال الحركة الوطنية بمصر سنة ١٨٨٢ م ونشوب ثورة عراقى باشا وضرب الإسكندرية بالقنابل .

ثم يقول (١) - وكان جمال الدين عالماً فيلسوفاً كاتباً ذا اتصال ثقافى بالتيارات الفكرية العالمية ، فكان يبدو دائماً صاحباً لعقلية عصرية متقبلاً لجميع مناحى الفكر فى زمنه إلى أوسع ما يكون .

وهو لم يأل جهداً فى إثباته ، بلسانه وقلمه ، أن الإسلام لم يكن قط جسماً بلا روح ، وإنما يرى الإسلام ، إذا ما أزيل منه ما هو غريب عن مذهبه الحقيقى من الأوراق الخرافية بقى دائماً قوة حية فعالة ملائمة لمقتضيات العصر ، ولجميع ما تنطوى عليه الحضارة الغربية من اختراعات فنية .

كان الأفغانى يثبت فى الحقل الاجتماعى والسياسى ، أن مذهب الإسلام حر جوهراً ، ديمقراطى عنصراً ، فيمنح الأمة حق الاشتراك فى إدارة الدولة ، ورقابة حكومتها .

وكان أول من أدرك ما تنطوى عليه سياسة التوسع الغربى من تهديد لاستقلال دول الإسلام ، فحاول تعبئة الجماهير روحياً ، وأكثر من مراجعة

(١) مجالى الإسلام ص ٥٠٠

ملوك الإسلام وأمرائهم ، منذراً إياهم بما يهددهم ، ناصحاً باتخاذ ما يلزم من وسائل الدفاع ، وكان يشعر بالخطر شعوراً حاداً ويقدر للوصول إلى أهدافه أن تقوم قبل كل شيء ، حكومات دستورية ، وأن تحقق إصلاحات اجتماعية تؤدي إلى جعل الأمم الإسلامية في مصاف الأمم الغربية » .

* * *

ولقد كان للأفغان قبل قدومه إلى مصر أثراً ضخماً في الشرق الإسلامي ، فقد جاءه على موعد وقدر ، جاءه مجدداً لرسالات الشرق الكبرى ، وأجاده العريقة ، ومدنيته الثالثة .

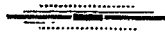
جاء ليحيي أرضاً مواتاً ، ويبعث نفوساً راكدة هامة ، ويهز عروشاً مستبدة متعالية ، ويحارب استعماراً موطن الدعائم عزيز الأركان ، فواراً بالقوة واللباس والسلطان .

نشأ في الأفغان ، ثم سافر إلى الهند فأحدث دويماً وأهلب ثورة ثم طوف بإيران فبعث فيها الحياة والحركة ، وانتقل إلى العراق والحجاز فترك آثاره وتلاميذه وأفكاره تغل وتنفور .

وكانت كراهيته للإنجليز سمة من السمات الجوهرية في شخصيته ، ذلك أنه أيقن منذ عهد مبكر وعن تجربة أن هؤلاء القوم يكونون للمسلمين عداء شديداً (١) فهم حريصون كل الحرص على التنكيل بالممالك الإسلامية وعلى التهامها واحدة بعد أخرى ، وهم لا يترددون أمام أية وسيلة من الوسائل ،

(١) جمال الدين الأفغانى للدكتور محمود قاسم .

ولا يحترمون أى مبدأ من المبادئ إذا أرادوا تحقيق مآربهم ، وأكثر مايعتمدون في ذلك على اصطناع الدين والخداع والمخاتلة حتى يظفرون لأنفسهم أو لقوم سواهم بجزء من أراضى المسلمين ، كأن لهذه الدولة الماكرة ، لذة في النكاية بأهل الدين وكأنها تبتغى للسعادة في تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم ، وكال بهجتها أن تراهم أذلاء لا يملكون من أمرهم شيئاً .



الزروع إلى الحرية ... والرغبة في العدالة...

ولكن كما يقول الدكتور عثمان أمين^(١) ، « ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره في مصر : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطنى فى هذه البلاد . وقد نسب إليه بحق الدور التاريخى لأبى القومية . إستطاع الرجل بخطبه الملهبة أن ينفث فى النفوس نزوعا إلى الحرية ، ورغبة فى العدالة ، خطب مرة فى الأسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل ، فقال :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمح
وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون
ثمرة أثمارك ؟

بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق فى إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس إلى نقد أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق فى التصرف فى شئون الرعية ، وليس هناك شك فى أن للأفغانى يداً فى الحركة العربية . ومن المحقق أن المبدأ الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه ، كما قال شكيب أرسلان ، وإن كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ، ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس الأجنبية ما صوح نضرتة ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث

(١) رائد الفكر الحديث ص ٢٢ .

في الشرق ، أو حركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار .

على أن جمال الدين قد عرف بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي ترى إلى اتحاد جميع الشعوب التي تعيش في كنف الإسلام ، لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبي ، وقد كان يقول بهذا الصدد : إن الدول الغربية تنتحل الأعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الإسلامية وإذلالها وإكراهها ، بقولها : « إن الممالك الإسلامية هذه إنما هي من الإنحطاط والمهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها ، في حين أن تلك الدول عنها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والإصلاح في البلاد الإسلامية ، ومن ثم يجب على العالم الإسلامي أن يتحد في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء ، وللوصول إلى هذه الغاية ، إنما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم في الغرب وأن يكتنه أسرار تفوقه وقدرته .

بيد أن جمال الدين لم يكن يعني بذلك إحلال قومية الدين محل قومية القطر ، وإنما كان يرغب في أن تتحد جميع الأقطار الإسلامية ، مع استقلال كل منها عن الآخر ، إلى هدف واحد ، هو التحرر السياسي . ومن أجل النهوض بالوطن المصري أو التركي أو الفارسي كان يعمل على نهضة الإسلام الذي يتغلغل في الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الإسلامية المختلفة .

وكان الأفغانى حرباً مشتعلة لا تهدأ على الاستعمار الأوروبي بشئت صوره وألوانه ، وكان يعتبر الاستعمار البريطاني رأس الأفعى ، وخضم الإسلام الأكبر .

ويقول الدكتور قاسم (١) «... ولقد أثارت كتاباته السياسية ضجة كبرى وكان لها دوى شديد في مصر ورجع صدي في إنجلترا ، إذ بين أساليب الإنجليز وحيلهم في استعمار الشرق ، وبه كيف يزعمون أنهم يتدخلون لحماية العروش الهاوية ، مع أنهم يضمرون الفتك بالشعوب التي يتظاهرون في الوقت نفسه بالمعطف عليها ، ومحاولة إصلاح أمرها ، ودفع الظلم عنها ، ورفع مستوى الحياة بين أفرادها » .

وكان جبال الدين سابقاً لمصره ، بتفكيره الشعبي ، وعقيدته الدستورية ، ومن هنا كان إيمانه بالشعوب ، وجهاده في سبيل الحريات الشعبية ..

فقد نادى بقله ولسانه بأن كل إصلاح إلى زوال ما لم ينبعث من أعماق الجماهير ، وكان يقول :

ولن تنبث شرارة الإصلاح في وسط هذا الظلام الحالك إلا إذا تعلم الشعب وعرف حقوقه ، ودافع عنها ، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطراً إلى المطالبة بها ، والمحافظة عليها إذا نالها .

ومن هنا كانت حروبه الطويلة المستمرة مع الخديوى وولاته ووزرائه ، وكانت كراهية الملوك والأمراء والوزراء له .

(١) جبال الدين الأفغانى - للدكتور محمود قاسم ص ٦ .

الأفغانى يمرض محمد عبده على قتل الخديو اسماعيل !!

وكان جبال بطبيعته الثائرة ، عنيفاً مندفعاً منامراً ، لا يثنيه شيء عن هدفه ولا يتراجع أمام عقبة تعترض سبيله .

ولهذا عندما شاهد الخطر الذى يهدد مصر من حكم اسماعيل ، وعلم أنه لن يتراجع ولن يثنى عن تحالفه مع الاستعمار ، إقترح على تلميذه محمد عبده أن يقتل الخديوى اسماعيل !! (١)

ويستطرد الإمام فيقول :

« وكنت أنا موافقاً للموافقة كلها على قتل اسماعيل ، لو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا أن ننظم الحركة معه ، لأن قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله » .

وأُنقذ اسماعيل من الاغتيال نبأ عزله الذى جاء من الأستانة فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ .

وكان أول عمل عمله توفيق الذى تولى ملك مصر بعد اسماعيل أن أمر بطرد جبال الدين من مصر ، تعصباً لوالده من ناحية وإرضاء للإنجليز من ناحية أخرى !

(١) من حديث لمحمد عبده فى منزله فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ - التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر ص ٣٥٤

طرد الأفغانى من مصر!

ويحدثنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن طرد الأفغانى فيقول :
والنقى القبض على الثائر العظيم ، وأقتيد بالقوة إلى محطة السكة الحديد وأركب
بالعنف في القطار الذاهب إلى السويس ، ولقيه في طريقه قنصل إيران وبعض المصريين
الأحرار فعرضوا عليه مائة دينار ، فأبى جهال الدين أن يأخذها مع أنه كان لا يملك
شيئاً وقال كلمته المأثورة : احتفظوا بالمال فأنتم أحوج إليه ، إن الليث لا يعدم فريسته
حيثما ذهب .

ووصف لنا محمد عبده خروج الأفغانى من مصر فقال :
 « ٠٠٠ لا ريب في أن الإنزعاج بنفى جهال الدين كان عاماً ، والسكدر كان
 تاماً ، ولكن الخديوى أظهر سروره بما فعل ، وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ
 علي مائدة الإفطار في رمضان ، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة
 في العلم والفضل في محضر الشيخ جهال الدين ، وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر
 بالنفى والتفريع الشديد بما لم يكن يستحقه الرجل . كما أنه كان فيه تشنيع جارح على
 من كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض ، وأبت إحدى الجرائد نشره . . فمطلت ،
 على أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة ، ولا الإحساس
 بضرورة الإصلاح إلا تنموا وظهوراً ، ولم تكن حكومة مصر كريمة في معاملته ، فوصفته
 بالزندقة وسمته (ضلال الدين) أو الأفغانى الأفاق ؟ وقالت في المنشور الذي أصدرته
 لهذه المناسبة إنها : أبعدت ذلك الشخص الفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية
 لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من
 المفسدين ، البادى من أفعالهم الظاهرة ، أنهم لا خلاق لهم في الدنيا والآخرة » ! !

أهداف العروة الوثقى

وسافر الأفغانى إلى باريس ومن هناك كتب إلى الإمام محمد عبده يأمره بالحضور والإقامة معه . فسافر إليه صفيه وهناك أسسا معاً « جمعية العروة الوثقى » وهى جمعية إسلامية عالمية هدفها إعادة عزة الإسلام ومجده ، والعمل على تطهير عقائده مما شابها وتحرير العالم الإسلامى من ذل الاستعمار وعبوديته .

وكانت جميع الأفكار فى الجريدة التى صدرت باسم (العروة الوثقى) لمجال الدين أما الأسلوب والعبارة فكانا للإمام محمد عبده .

وكان يعاونهما فى جهادها . ميرزا محمد باقر ، وكان عمله معها هو الإطلاع على ما يكتب فى الصحف الأوروبية مما له صلة بالعالم الإسلامى فيترجمه ليكون مادة للجريدة فى أخبار السياسة الدولية .

ولقد تلخصت هذه الجمعية أهدافها فى العدد الأول منها وحصرتها فى هذه المبادئ (١) .

١ — تضع الجمعية نفسها فى خدمة الشرقيين عامة فتبين لهم الواجبات التى يجب عليهم القيام بها ، والتى كان التفريط فيها سبباً فى تدهورهم وتوضيح الطرق التى يجب إتباعها لتدارك الأخطاء الماضية ، وتجنب الصعاب والأخطار فى المستقبل .

٢ — كما ستبحث معهم الأسباب والعلل التى أدت إلى ضعفهم وفى طليعتها تفريطهم فى تعاليم دينهم .

٣ — وستكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المرفين ، وتزيح

(١) جمال الدين الأفغانى — للدكتور محمود قاسم .

الوساوس التي سيطرت على عقول المنعمين ، مما أدى إلى اليأس من الإصلاح ،
والقنوط من تلافي الأخطار الماضية .

٤ — وستحاول أن تحيى الأمل في النفوس وتبين أن طريق النهوض ليست
بالصعوبة المتوهمة التي توجب فتور الهمة أو خور العزيمة .

٥ — كما ستبدي اهتماماً خاصاً بالرد على التهم التي توجه إلى الشرقيين عامة
والمسلمين بصفة خاصة ، وستعنى بتنفيذ مفريات الغرب التي يزعم قائلوها بأن المسلمين
لن ينهضوا أبداً ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

٦ — وستوالى الجريدة إطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها
ليحيطوا علماً بما يدبره السياسيون الأوروبيون ، وما يبيتونه لهم ، ولكي يعلموا
في أى عالم يعيشون حتى لا يقعوا في شرك الدعايات المغرضة .

٧ — وأخيراً ستعمل الجريدة على تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وبيان
المنافع المشتركة بينها وعلى مناصرة كل سياسة خارجية من شأنها ألا توقع حيفاً
بالشرقيين .

وقامت العروة الوثقى برسالتها ، فكانت منارة للشرقيين عامة ، ونبراساً
لكل مجاهد حر . يناضل في سبيل الحرية والحياة .

وكانت شواطئ من نار على الاستعمار والنفاة ، وكانت تلقي النور المبين ، على
جوانب الإسلام لتظهره للعالمين مطهراً مما ألحق به ، ودس عليه ، ونسب إليه ، ديناً
ارتضاه الله لعباده رحمة وخيراً ، وأهلاً لخير حضارة أخرجت للناس .

وأدركت بريطانيا الخطر الكامن وراء سطور تلك الجريدة ، الخطر المدمر
لسياستها ، الفاضح لفظائنها وأهدافها فأعلنت الحرب الشاملة عليها .

وكان من نذر هذه الحرب أن منعت دخول أعدادها في البلاد الإسلامية ،
وأخذت تتعقب الأحرار الذين ترسل إليهم ، وقامت الحكومة المصرية من جانبها
بمؤازرة حليفها الاستعماري فحددت عقوبات لمن يضبط متلبساً بجريمة قراءتها .

بريطانيا ترفض عرش السودان على الأفغانى!

وعجزت بريطانيا بنفوذها ودهائها واتباعها الذين يدورون فى فلكها فى البلاد الأوروبية والإسلامية ، عجزت كل هذه القوى عن أن تنال من ثورة جمال الدين زهجومه الرهيب على الاستعمار والمستعمرين .

فلجأت العجوز الداهية إلى سلاحها الحالد ، المال والملك ، وخيل إليها أنها تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد .

فأرسلت إلى الأفغانى تدعوه باسم حكومتها لزيارة لندن لتسأله رأيه فى حركة المهدي ، ولتحصل منه على فتوى شرعية تناهضه بها ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة :

﴿إنها تعلم مقدرته ، وتقدر رأيه حق قدره ، ولأنها تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك المودة والولاء ؟!﴾ .

وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية :
﴿لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه قستأصل جذور فتنة المهدي ، وتمهد لإصلاحات بريطانيا فيه﴾ .

ورفض الأبي الشائر أن يقع فى الفخ البريطانى ، وسخر من العقليّة الإنجليزىة التى لا تؤمن بأن فى الدنيا رجال أحرار شرفاء إلا فى جزيرتها ! ؟ قائلاً :
(إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف فى عرشه) .

وتغضب بريطانيا فتلقى بكل ما فى صدرها من حقد وغضب على جبال الدين وصاحبه وتمتعهما ، وتمتعب صحيفتهما حتى تتمكن أخيراً من القضاء عليها قبل أن تتم عاماً من حياتها .

ولكن العروة الوثقى استطاعت خلال الثمانية أشهر التي صدرت فيها أن تغير نظرة الحياة في الشعوب الشرقية كافة ، وأن تطلق شعاعاً من أشعة الحرية ظل يتقد ويتعظم حتى جنبنا ثمراته حرية واستقلالاً في ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ التي أطاحت بالرجعية والاستعمار في مصر والشرق العربي بأسره .

ويقول العلامة حيدر بامات في حديثه عن جهاد الأفغانى العالمى (. . . بيد أن أهم أثر قام به جمال الدين هو ولا ريب إصدار مجلة العروة الوثقى العربية في باريس التي كان مع الشيخ محمد عبده مؤسساً باعثاً أصلياً لها ، وكان لهذه المجلة أثر كبير في نشوء المشاعر الوطنية الحرة في الأوساط الإسلامية ، فتعد مبشرة أدبية في الحركات الوطنية التي ما انفكت تنمو بعد ذلك) .

ويقول الفيلسوف الاجتماعى رينان : (. . . كنت آتحدث إليه فكان ينجيل إلى من حرية فكره ، ونبالة طبعه ، وإخلاص قلبه ، أننى أرى وجهاً لوجه أحد معارفى القدامى ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الإنسانى .

ويقول عنه المفكر الجزائرى ، علي إلهامى : (سوف يخلد اسمه في جميع البلاد الإسلامية كما خلد إسم « هوميروس » في مدن اليونان القديمة) .

وأخيراً . . .

يقول جمال الدين : (مامات أحد في حب أمته إلا وأحيتة) وحسب الأفغانى حياة وخلوداً ، تغدو كلماته حية خالدة ، وآية ذلك كل حرف من حروف هذا الكتاب الذى احتوى كل سطر خطه الثائران العظيما في صحيفة الحرية الكبرى . . . العروة الوثقى . . .

طه عبد الباقي سرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صحيفة الحرية الكبرى :

العروة الوثقى

لماذا صدرت الجريدة

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

هذا ما تمده العناية الألهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل في نجاح العمل .

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا يدياء الفكر ، وسحروا لبابهم حتى أذهلهم على أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحمله النفوس البشرية :

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، ويفرى به شيطان الخيال . فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عملها يدوم لها السلطان على السكثرة العددية وإن اتفقت آحادها بل

(١) صدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وبلغ مانع منها ثمانية عشر عدداً وصدر العدد الأخير منها في ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ وانتهت بسبب محاربة الانجليز لها .

زعموا أنه يمكن استهلاك اللحم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يابأه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يحجز فى زمن من الأزمان احياء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذى يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لاتحمد ، أو ركون إلى راحة لاتدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزجتها ونهتها بعض التنبيه فاذا تواتت عليها وخزات الحوادث ، وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهى ماتكون بالثام أفرادها ؛ والتنجام آحادها ، وأن الالهام الألهى والاحساس الفطرى والتعليم الشرعى ترشدها الى أن لاجابة لها إلى ماوراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها .

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عييدها تحت جامعة معروفة لاتحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعد عند الطلب رشاداً .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة ، وان الحركة التى تنبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ، ومدبر لسيرها ، لا يكتفى فى توقيف سرياتها ، أو محو آثارها ، قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها ، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ؛ نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبابه .

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعاتات والمشارب ، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به . لاريب انها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب .

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسى الامم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرّب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة .

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام . كل يطلب خلاصاً ويتنقى نجاة ويتحلل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل .

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عى عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه بل مايجرى به القضاء الالهى من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون .

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك التغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم ؛ فمنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً وذووا حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأغزاء باتوا اذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء انحوا سقاماً وأسود تحولت انعاماً ، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضرر من افراط الطامعين في أطعامهم خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى

المطامع فيها . حملوا الى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت
ألبابها وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع
تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية العشواء
فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سبيل المصاعب « بل طوفان المصائب ، على
تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهما بما لم ينالوا .

لم تكدر تخمد تلك الحركة في بادىء النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفتح
باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكاثة الاولى في نفوس المسلمين بل هي بقية
آمالهم ولا يدرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة وربما يوجد من يدرى أن
مسببها في حيرة من تلافيتها ، نعم أنهم غرسوا غرسا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن
يجنون منه حظلا ويطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العوافب التي لا يحصى عنها
لمن يغالى في طمعه ويفغل في حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه
وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتة أو اقتناء
فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل
لهم قدم أو يتكس لهم علم .

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء
وهو انفذ عواملهم واقتلها وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع العطب
وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين فإن
بلاء الجور إذا حل بشطر من الامة وعوفى منه باقيا كانت سلامة البعض تعزية
للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم أما
إذا عم الضرر فلا بحالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر فيندفعون إلى ما فيه خيرهم
ولا خير فيه لغيرهم .

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس
المسلمين عموما . إن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها
سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا

الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع والا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من اركان الديانة الاسلامية ، ان الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكاثرت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم المليية أقوى من روابط الجنسية واللغة مادام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على افهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم أن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة وجددت أحزاناً لم تكن في الحسبان وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكّار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل أن يصير التلّفس زفيراً بل نفيراً عاماً بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمّه الطمع .

ان أولى التغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته الا المداواة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحابة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده إلا المراضاة يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الاشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواق مصالح المغلوبين فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما لا يهتك هذا السر الرقيق الذي يكفي لتزيقه رجع البصر وكر النظر وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا خنقت خنقت وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قوياً شديداً البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته وأن الغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئته أسلم أو عطب فهو يضر ليضر ، إن مسه الضر .

الا ان غشية التهم ذهبت بعقول المهومين ووقرت اسماعهم عن حسيس الهمسات المتراصلة من الهند الى مكة ومن مكة الى مصر والكثير (١) المتمدن مصري الى مكة ومن مكة الى الهند وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم المسترسلون في جفوتهم أن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جدت الروابط وقاربت بين الاقطار المتباعدة بمحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظ أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم

فيه فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف راجعين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف وان في الحاضر منها لتهزة تغتنم واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الامور .

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق في كل صقع لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد ولو أفضى بهم ذلك الى اقصى ما يشفق منه حي حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعه في مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام في كل عام يجتمع اليه الشرق والغرب ويتآخى في موافقها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقر كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

ولما كان نيل الناية علي وجه أبعد من الخطر وأقرب الى الظفر يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفي عنه شأنهم من أخوانهم واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس (١) ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الافغانى أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم بل نادى حقاً واحباً عليه لدينه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الاول على الإجابة ، حمل الثاني على الامتنال ، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال .

الجريدة ومنهجها

سيأتى فى خدمة الشرقين على مافى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الاسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواغى التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت (١) وضل المرشد حتى لا يدرك السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة .

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوسوس التى أخذت بعقول النعمين حتى أورتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء أدوائهم وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بالفت حدها .

وتحاول اشراب الأفهام أن لاجابة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الممهم وأنحطاط العزائم وأن تحيل تلك لدائرة الواسعة انما عرض من الادبار على المطلوب وهو تحت الجنح ويكفى فى الوصول اليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة .

وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقين وأسلافهم وهى ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها ولا ضرورة فى إيجاد النعمة الى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ولا ملجئ للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوروبي فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أقر نفسه وأمتة وقرأ أعجزها وأعوزها .

(١) الخريت : الدليل الحاذق بطرق الارض

وتنبه بأن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لا ابتلاع الضعيف ، وتجمل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافاً ينم عما وراءه وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسرى بها الطامعون في دياجر الغفلات .

ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسامون خصوصاً من ألتهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدينة ماداموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون ولا تهين في تبليغ الشرقيين ما يعسرهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شؤونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت .

وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والأجحاف بحق الشرقيين .

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها لا تظهر إذا أدلجوا ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقفه عند من سبق في أدلى علم الله هدايته والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وترسل إلى الذين نعرف أسماؤهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقر ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالأسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده والله الموفق .

الجنسية والديانة الإسلامية

ان استقراء حال الافراد من كل أمة واستطلاع اهوائها يثبت لجلى النظر ودقيقه وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يعد ظنهم مانراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربى فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لانرى في ظبعة ميلا اليه بل يكون خالى الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعى لا يتغير .

ولهذا لانذهب إلى أنه طبيعى ولكن قد يكون من الملكات المارضة على الأنفس ترسمها على الواحها الضرورات فان الانسان فى أى أرض له حاجات جمة وفى أفرادهم ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبنوا بتربية زكية ، وسعة الطمع اذا صححها اقتدار تدعو بطبعها الى العدوان فلماذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطربوا بعد منازلة الشرور احتقاً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الاجناس فتوزعوا أمماً كالهندى والانجليزى والروسى والتركانى ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفرادهم المتلاحمة قادراً على صيانة منافعهم وحفظ حقوقهم من تعدى القبيل الآخر ثم يجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان فى اطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لابد أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان قبول حكمه ذلاً تحس به النفس وينفعل له القلب .

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضائل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع وتكون بالنسبة اليه متساوية

الأقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة في الإستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين . فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به . اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فحى أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير . هذا هو السر في أعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أى نوع من أنواع العصبية ماعدا عصبية الاسلام فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتف عن الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد .

لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبين الحقوق كليها وجزئها وتحديد السلطة الوازنة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها لامن أشد الناس خضوعا لها ولن ينالها بوراؤه ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية وإنما ثنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التي لاتميز بين جنس وجنس واجتماع آراء لأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها . وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحققة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمعتصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية) والاحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى — اتباع الشريعة

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الاجيال من لاشرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا وراث الملك عن آباءه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها إليهم على حسب امثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أبيته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف واقتبضت سلطة ذاك الوازع .

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندي يدعن لرياسة الأفغانى ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا اقتباض ، وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لسان الشريعة ذاهباً مذهبها ، نعم اذا نبأ في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها . ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بمحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجاوى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يجوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك أتاباً ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغني عن كل هذا

بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الأولى في الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنفعة ؛ أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان الى الآخرة فقط ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم ومايكسبهم السعادة في الدنيا ، والنعم في الآخرة وهو المبرر عنه في الاصطلاح الشرعى بسعادة الدارين وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة .

ايضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فثلمهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع : وان بعض مايطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأوه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين أئمة الدين وفقنا الله للسداد ، وهذا طريق الرشاد .

ماضى الامة وحاضرها وعملها

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوى الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تحمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مديريها عقد المشاكل تمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقتها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة الا في انتهاز منهجها وورود شريعته وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهى بناؤها واشتر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشتت العصى وتبدد ما كان مجتمعاً وأحل ما كان منعقداً وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التضامن وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال الا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه النية في سبات يخيله الناظر اليه صحواً ، وذبول يظنه المقرور زهواً وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادهما وحدثت فيهم قناعة التهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استفزّه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً أو يعيد اليها مجداً عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية أو حسب أنه

(١) أكثر عناوين المقالات مأخوذ عن تاريخ الامام (رحمه الله) - طبعة مجلة (المنار) الاسلامية.

لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشتة ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلال من اليأس فتغل يده عن العمل وتقف قدماه عن السعى ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسوا وقيا على ما أورثوه لاعتقابهم ويبلغ هذا المرض من الأثرة حداً يشرف بها على الهلاك ويطحرها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت ولكن أليس لكل علة دواء . بلى .

وآسفاً ما أصعب الداء وما أعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفرق إلا لأن كلا عكف على شأنه ... استغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . نعم ربما التفت كل الى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أى وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها ؛ كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماً غير قصير إلى معاليها هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواء خصوصاً بعد ما استدبر المقصد وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة . كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه البتبع بأحلامه وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر ، هل من صيحة تقزع قلوب الاحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحائها وتتناهى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائرها هل من نبأ تجمع أهوائها المتفرقة وتوحد آرائها المتخالفة بعد ما تراكم جهل واران غين وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعمر أيم الله أنه لشيء عسير يعينى في علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير :

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى

والعوارض التي طرأت عليه . إن كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ، أيمن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل في حياته ليكون علي بينة من حقيقة المرض وإلا فإن كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لاتظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة علي مادة المرض فلا يبدو أثرها ، كلا أنه يصعب علي الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد ، لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان التشبهون بهم كثيرين وكأ أن المتطلب القاصر في الأمراض البدنية لايزيد علاجه المرض الاشددة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمرضى إلى الموت . كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم علي غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة علي اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان اخطاء طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء .

فمن له حظ في الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهى لايجرؤ علي القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح مافسد منها وهو يحسن من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علما أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء .

ظن قوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وانها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق كيف يصدق هذا الظن . وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يصدقون بما يكتبون إلا نجاح الامم مع التنزه عن الأغراض فبعد ماغم الذهول واستولت الدهشة علي العقول وقل القارئون والكتابون لا تجدها

قارئاً ولئن وجدت القارىُّ فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافاً . على أن المهمة إذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تنجيه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفع سيول الحوادث ان هذا وحققك لعزير .

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهواؤها وأخلاقها إلى مادون رتبها بدرجة لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لأحكامها مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجنح ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطنته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثرثرة تغنى ولو كان للامة هذان لماعدت من الساقطين .

فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات واقفناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستبشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر .

على اننا لو فرضنا مسالة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً فهل يصح الحكم بان هذا التدرج يفيد فائدة جوهرية وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته . واعجباً كيف يكون هذا وان الامة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت

على سوقها وأُيُنعت وأثمرت وبأى ماء سقيت وبأى تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية
التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل إليها
طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول لأنباء عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب
الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها يقوم من
أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم .

لعل الأقرب ان ناقل تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم
من الأوهام المألوفة فيها ومارسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة
التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم نكلط غريب لا يزيد طبائعها الافساداً .

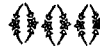
ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينايئها من صدورهم ولو
صدقوا في خدمة أوطانهم . يكون منهم ما تعطيهم حالهم يؤدون ماتعلموه كما سمعوه
لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبائعها وما مرت عليه من عاداتها
فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضرده عن ماضيه وغفلتهم عن
آتيه يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحيوة لكل روح فيرومون من
الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس غير ناظرين إلا الى صور ماتعلموه ولا
مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طبائعهم مكان يحمد أو
يزيدها على ما بها اضعافاً وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحمله .

فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والده
حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان
لا يقبل سواء فيسرع اليه المرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة
الآلة المحملة يشتتون بقية الجمع ويددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقي للقوم بعض
الروابط ، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بتمام يذهلهم عنها وما قصدوا الا خيراً إن كانوا
مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبواباً ويباعدون ما بين الضفاف حتى
تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون
بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الجبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الا جانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من النعمة ما يدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت في سبيلها ، خلفها وارث على شاكاتها كما كان في كثير من الأمم .

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفهمون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ويصونها في عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم ققلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض الباهات فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فاماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهل كوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تنعود على الصنع الجديد وثروتهم لاتسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها ونجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ونطقنا مواضى الحوادث بأن القلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهبون بجميع أعمالهم وإن جلت وإن بقى فى بعض رجال الامة بقية من الشمم أو زرع الى معالى الهمم انصبوا عليه وارغموا من أنفه حتى يحى أثر الشهامة وتحمده حرارة الغيرة وبصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم . أقول ولا أخشى لوماً لو كان فى البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الآبدن . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها سقالاتهم ولهذا لوطرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمهم ويكونون بطانة لهم ومواضع الثقتهم ، كأنهم منهم ويعدون الغلبة الاخنية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم



فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا مارأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد .. أى جهوى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات . أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخاملة أى نفخة تبعث هذه الارواح فى أجسادها وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها . الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب . المواصلات عسرة بين الشرق والغرب والجنوب والشمال . الرؤوس مطرقة الى ماتحت

القدم أو منغضة إلى مافوق السماء ليس للابصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ولا للاسماع اصغاء ولا للنفوس رغبات ولا لهواء تحكم وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الامة والزمن قصير ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكّنون ورسل المنايا على أبوابهم لأطيل عليك بحثا ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكنى استلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . ارسل فكرك الى نشأة الامة التى خملت بعد النباهة وضعت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد النعمة وتبين أسباب نهوضها الاول حتى تتبين مضارب الخلل وجرائم العلل فقد يكون مآجع كلتها وانهض هم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الامة وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمها انما هو دين قويم الاصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الالفه داع الى المحبة منك للنفوس، مطهر للقلوب من ادران الحسائس، منور للعقول باسراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها وينادى بمعتقديه الى جميع فروع الدنية .

فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وغنها صدرت فآتراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها فى شىء ، اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الالهية له حتى لم يبق منه إلا اسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجبا بين الامة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها .

فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ باحكامه على ما كان فى بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولان جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسرى نفثها في جميع الارواح لا قرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .

ومن طلب اصلاح امة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا انحسا ولا يكسبها إلا تعسا .

هل تعجب أيها القارئ من قولي ان الاصول الدينية الحققة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للامم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنهى بها الى أقصى غاية في المدنية . ان عجبت فان عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واثيان الدنيا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم اخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدينة ومقتضياتها نهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنياتها في التمسك بأصول دينها .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الامصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنيا

وبعد الغايات وعلو المقاصد ، هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكففتهم
عن معاطاة الرذائل ، وخسائس الأمور وسوافلها ، ثم بعد مضي زمان من نشأتها
أصابها من الانحطاط ما أصابها ، فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا
في آخر عدد ان شاء الله ، وهو الموفق للصواب .

النصرانية والإسلام وأهلها

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

خلق الله الإنسان عالماً صناعياً ويسر له سبيل العمل لنفسه وهذاه للإبداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ، ودعامة بقاءه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبد وحضارة ، صنعة أعماله ، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرايله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً وأكثانه ومساكنه ليس إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما يفتن فيه من دواعى ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله وبحال أفكاره ، ولو نفى يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفها للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته إلى هاوية العدم ، وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى استاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل ، فصنعتة أيضاً من صنعه فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر الى أحواله النفسية من الإدراك والتعقل والاخلاق والمسلكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً : شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفنه وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه فى تربيته الاولى ، وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم ، مراى أفكاره ، ومنهجه

تعقله ، ومذاهب ميله ، ومطامح رغباته ونزوعه الى الاسرار الالهية أو ركونه الى البحث فى الخواص الطبيعية ، وعنايته باكتشاف الحقيقة فى كل شىء ، أو وقوفه عند بادىء الرأى فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هى ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات ، والاقوام والعشائر والمخاططون .

وأما هواء المولد والمربى ونوع المزاج ، وشكل الدماغ وتركيب البدن ، وسائر الفواشى الطبيعية فلا أثر له فى الاعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون فى الاستعداد والقابلية ، على ضعف فى ذلك الأثر ، فان التربية وما ينطبع فى النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع فى الطبع نعم ان أفكاراً تتجدد ، ومعتقدات عن أخرى تتولد وصفات تسمو ، وهما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعاً ، فالإنسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى .

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الاذهان إنما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمة حق فى الدين ، ولا أظن منكراً يجحدها :

إن الدين وضع الهى ، ومعلمه والداعى اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين ، فهو مسكوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الامم أول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ فى الافئدة ، وتصنع النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتنمى الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها الى ما تدبر به بدنها ،

وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الأعمال بدعوته وارشاده . وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أخذته فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال .

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية وهو بحث طويل الذيل وانما نأتى فيه على اجمال ينبثق عن تفصيل ان الديانة المسيحية بنيت على المسالة والمياسرة في كل شئ ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الايمن فأدر له اليسر . ومن اخباره ان الملوك انما ولايتهم على الأجساد وهي فانية والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهي لله وحده فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ماقلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثرًا في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من اطوار الآخذين بهذا الدين السامى ، المنتسبين في عقائدهم اليه ، فانهم يتسابقون في المفارقة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب ، ويدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ؛ ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدير سوقها في ميادين القتال ؛ ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ؛ وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم ؛ فضلاً عن الالتفات الى طلب غيرها .

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبد كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد ان يكونوا أول ملة حرية في العالم ، وان يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القتالة ، واقتان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرا الأتقال والهندسة وغيرها ، ومن تأمل في آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبح بهذا الدين فقد صبح بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها ، والسعى اليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ ان الشرع الإسلامي حرم المراهنة الا في السباق والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذ الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون في طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفهم واستكانوا لها ، ورضخوا لاحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتر اليوز وغيرها بأيدي أبناء الديانة الاولى قبل الثانية . وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين ، قبل وجودها عند الآخرين ! وكيف أحكت الحصون ، ودرعت البواخر ، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب !

لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسياً ! لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ! هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما ؟ هل نهبت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من اجيال بعيدة ؟

هل اقتصر النصراني في دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ، هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، أو القى شيء منها في أمانى معلمهم وناشرى شريعتهم عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ؟ أو ، تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها . هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المسابير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس ، وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون في الانساب الدانية . أينسب هذا إلى اختلاف الاقطار وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ، ويتجاورون في مواقع الامكنة . ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار ، وادهشت الأبواب . ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسى السيادة فيها ، كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع ، فزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها ذكر ملكام سرجم « انجليزى » في تاريخ فارس أن محموداً القرنونى كان يحارب . وثني الهند بالمدافع وكانت هى الأسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها .

فأى عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى مالم يكن في قواعد دينها . وأى صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخترتهم عن تعاطى الوسائل لها هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للمعجب ! ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ، ولكن نجمل على ما شرطنا

أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعتد دعوته في الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الأولى ، وجاء الدين المسيحي إليهم مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، ودخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناول الكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم إن الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا إليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الأصول ، ولحقها على الأثر عزع عقائد المسيحيين في أوروبا ، واقتروا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادوا مريض ما أودعه أجدادهم في جرائم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون .

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم مانالوا ، وأخذوا من كل كمال حربي حظاً ، وضربوا في كل نحر عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الاذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال ، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ، ولا تثبت في الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ينسبون لها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الفيرة وأن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً

بعد حصول النقص في التعليم والقصير في إرشاد الكافة الى أصول دينهم الحقبة ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة لعل هذا هو العلة في وقوفهم . بل الموجب لتفهمهم . وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه .

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين . وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً . لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرّة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع . والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم . ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤه ويقشع سحاب الاغيان . وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق . وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم . ومغالبة المعتدين . وطلب النعمة من كل سبيل . لا يعين لها وجهها . ولا يخص لها طريقاً .

فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم . ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ماسلب منهم . فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصالاة حفظاً لحقوقهم . وضناً بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع وإلى الله تصير الأمور .

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

إن للمسلمين شدة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل . وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض . وممارسة في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدكم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء . وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عايتهم . حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسملة الإسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقة والاسترجاع . وبعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به . بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه . ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتألك قلبه من الاضطراب ودفعه من الغليان . ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان . وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريتهم وبعيدهم ولا بين المتحدن فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ، ومن فروضهم فى سبيل

الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والارواح وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطب . ولا يباح لهم المسألة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره ، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه . وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق ، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان .

المسلمون يحث كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل (بلوچستان) كانوا يرون حركات الانجليز في (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ، ولا يبحث لهم جأش ولم تكن لهم نعمة على إخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانجليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتماسلون ، وإن جنود الانجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً وتقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم ، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أهداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم .

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة ، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملانه : ان الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها .

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الى مرآة عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار ، مادامت الارواح في الاجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد .

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والا لتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجى اليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضاهيهم على دفع المضار ، وبعد كروار الايام على المضافة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارية مجرى الوجدانيات الطبيعية كالاحساس بالجوع والعطش والرى والشبع ، بل اشتبه امره على بعض الناظرين فعده طبيعياً . فلو اهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكد كدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاها في غير نسبة أو الجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمقولات . وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي اقوى رابطة بين البشر يكون الامر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجئ الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتترن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم ، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم ، وهم أثبت الناس في عقائدهم ، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل . فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم ، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغانى وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر ، أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراکش ولا مراکش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أفطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام ، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، لسكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاذته .

كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه ، فتداعت للتناثر والانحلال ، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدأ هذا الإنحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انشلت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام : خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف الأندلس ، تفرقت بهذا كلك الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلاف إلى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرفعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالاً حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الائتنام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه أو انصرف إلى ما يليه ، فتبدد الجمع إلى آحاد ، واقترب الناس فرقا كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيعة ، وصار مافي العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى السامع على طول من الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم

ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويحملون لهم مراكر في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدثهم يأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الشواجر إلى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتدخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل .

إلا إنا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شنتيهم ، فقد دارسهم التجارب ببيان لامزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يثبوا الدعاة إلى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة ، أو ما يخشى أن يمسيها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، وإلى الله المصير .

سببات من له حق وحراك من لا حق له.

هذه دول أوروبا جميعاً ودولة فرنسا خصوصاً شاخصة الابصار الى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها في القطر المصري وأضر بتجارتها فيه ، ولا تبدى حركة ولا يسمع لها صوت ، إلا همس خفي في الجرائد ، والدولة العثمانية وهي شديدة الازر قوية العنصر بما لها من المكانة في قلوب الهنديين ، وكل انجليزى قلبه بين أصابع الدولة العثمانية ، وأحشاء مستقرة على أناملها ، وفي نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال في الاقطار المصرية ، وسيادتها عليها كادت تكون اسماً ، ومع ذلك لا تأتى عملاً ولا تخطو خطوة ، سوى انها اكتفت باقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة لدى الدول ، حتى ابجها الصياح وليس من يسمع ولا من يجيب . وذوو الحقوق في الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم ، قد شدت أياديهم بحبال من الآمال ، وسلاسل من المخاوف ، لا يجدون لهم قراراً على فكر ، ولا ثباتاً على رأى ، وإنما هم بين أعصار من الأوهام ، وتيارات من هواجس الخيال ، يحملقون إلى مواقع الحوادث ، حائرين لا يطرف لهم طرف ، ولا يغمض لهم جفن ، وعامة الأهالى في الديار المصرية بين فقر كاد يفضى الى قحط ، واختلاف فى النظام ، وضعف فى السلطة ، وخبط فى الأحكام ، كادت تؤدى الى يأس من الاصلاح ، وقد أخذهم الدوار من التلغى الى جوانبهم طوراً ينظرون الى حكاهم نظر الآمل فى همهم ، وحسن تدبيرهم ، وآخر الى ما وعدتهم به الحكومة الانجليزية من الجلاء عن أوطانهم ، وتركهم وما يدبرون لانفسهم ، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم ، بدون أن يجمع لهم فيما سهم ، كأنما هم عنها أغراب لا يؤبه بهم ، ولا يبالى بشأنهم .

نزاع بين رجال السياسة الانجليزية ، بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر واعلان السيادة عليها ، واستلام أزمة أحكامها وآخرون يقولون هذا

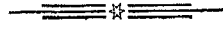
مما يخالف أحكام الزم ، ولا تسوغه شريعة الوفاء ، وإنما علينا أن نحل بها
عساكرنا زمننا يكفي لقضاء ما نريده فيها ، ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتم
البقاء . عبارات مختلفة ، ومعان متشابهة ، يتنازعون وهم متوافقون ، ويتخالفون
وهم متحدون ، يذهبون في انتحال الأسباب لما يبتغون ، مذاهب مختلفة فبعض
الجرائد كجريدة « التايمز » وما على مشربها تعطل بالجنرال جوردون وتهون ما حل به من
الفشل وتتقدم إلى الحكومة الانجليزية بطلب انقاذه من الخطر ولا وسيلة
لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية ، فلماذا الاعلان من القوة
المعنوية التي تدافع عن الجنرال ما ليس لجيش عرمرم ، أما ارسال الجيوش فهو محال
لوعرة السبل وكثرة النفقات وشدة الحرارة ، ولئن همت به الحكومة فأنما
يكون من أعمال اليأس والقنوط ، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق
الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصري ، فداء لرأس الجنرال
جوردون وفي زعمها أن ماتراه ليس رأياً بيديه أرباب الجرائد بل هو ما تراه الأمة
البريطانية بأسرها ، وربما لا يكون بعيداً ، وبعض الجرائد وتشاركهم جريدة « التايمز »
تتذرع فيما تطلب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق علي ديونهم ، وليس لهم
ضمانة رفع قلقهم ، ويسكن اضطرابهم ، إلا اعلان السيادة علي القطر المصري وقوم
آخرون منهم يعملون حججهم مصائب الأهالي المصريين ورزاياهم وما حل ببلادهم
من احتلال ، ولا ينقذهم من هذا الشقاء إلا السيادة الانجليزية ، جميعهم على وفاق على أن
هذه السيادة هي الجوهر الثمين والسر المكنون ، والاكسير المضمون به على غير
أهله ، متى أبرزوه لم يبق مريض إلا عوف ، ولا ضعيف إلا قوى ، ولا فاسد إلا
صلح ، كأن في هذا الاسم ما في الرقي والطلاسم ، يغني عن الجيوش والأموال والعدة
والرجال .

ولا نظن أن يكون في هذا الاسم ما يدعيه الانجليز من القوة ولا أن
تكون في طيه هذه الاسرار العجيبة ، ولو أننا فرضنا تنازل أرباب الحقوق عن

حقوقهم من الدول الأوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن الولاية ، وسوعوا
لحكومة إنجلترا أن تنقش أحرف السيادة في أوراقها الرسمية أو في هواء الديار
فليس من السهل عليها أن تزيد الحماية الى حد يحفظ ملكا
عظيما يتاخم بلاد أوروبا وقد ظهرت آثار قوتها مدة الحلول وماعاد منها
على البلاد ، على أن الأهالي كانوا في سكون تام لركونهم إلى ماتعدهم به حكومة إنجلترا
من الجلاء عن أوطانهم فاذا أعلنت السيادة انفصمت علائق الآمال ، وانحرفت
القلوب ومالت إلى الدعوة القائمة على القرب منها ، وانقلب الكافة الى الذود عن
حقوقهم الوطنية أو الملية ، ولا يرهبون القوة الانجليزية في داخل البلاد بعد ما علموا
شأنها ويكون هذا حجة جديدة لمحمد أحمد في تأييد دعواه لدى المصريين ولا يربعه اسم
السيادة بعد ما لم ترهبه جيوش الجنرال هكس وجراهام ، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية ،
إلى إخلاء سواحل البحر الأحمر ، فأى شأن يكون لهذا الاسم الشريف ، نعم يكون
بداية مشكل جديد في مصر والله أعلم بعاقبته .

التعصب

”اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم
ولا تتبعوا من دونه أولياء“



لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية تلوكة الألسن وترى به الأفواه في المحافل والجامع حتى صار تـكـكـأة (١) للمتكلمين، يلجأ اليه العيبي (٢) في تهتهته (٣) والذملقاني (٤) في تفيقه (٥) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مساهلة لكل بلاء، ومنبعا لكل عناء، ويزعمونه حجابا كثيفا وسداً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للردائل، والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشديق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفساد التعصب يهزون الرؤوس ويبعثون باللحى ويرمون السبال، وإذا رموا به شخصاً للخط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فنائيك) (٦) فإن عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لمشرعهم عدوه متعصباً، وهمزوا به وغمزوا ولزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشمخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدراً لكل نقيصة، وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته؟

(١) التـكـكـأة : ما يتوكأ عليه (٢) العيبي : من المي وهو الجزع عن الكلام (٣) التهتهة : ضرب من اللكنة (٤) الذملقاني : السريع الكلام (٥) التفيق : التوسع والتطلع (٦) معناها : متعصب

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية ، نسبة الى العصبية ، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء ، فالتعصب صف للنفس الانسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها .

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، اوينشئها بتقدير الله خلقا واحداً ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر ، تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص .

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة ، وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعها قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقام ونفاذ الكلمة ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة .

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنى عنه انفعال الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسرعة النعرة الجنسية . هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنيا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وأن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وتقائه .

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم
استرخت الاعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الأمة إلى
الأنحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلى ،
وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها ، فاهى إلا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل
بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ
فيها روح النشأة الاخرى . (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم
الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه
تقاطع وتدابير فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم
قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية .

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال وطرفا إفراط
وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي
أشرنا لرزاياه ، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء المفرط في تعصبه يدافع
عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الاجنبي
عنه كما ينظر إلى الحمل ، لا يعترف به بحق ، ولا يرضى له ذمة ، فيخرج بذلك عن
جادة العدل ، فتقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة ، بل يتقوض
مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الامم ، وكل قوة لا تخضع
للعادل فصيرها إلى الزوال ، وهذا الحد من الافراط في التعصب هو المقوت على
لسان الشارع ﷺ في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية » .

التعصب كما يطلق ويراد منه النمرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب
والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فاطلقوا على قيام
الملتحمين بصله الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمنتظمون من مقلدة الافرنج يخصون
هذا النوع منه بالقت ، ويرمون به بالتمس . ولا نحال مذهبهم هذا مذهب العقل .
فان لمة يصير بها المتفردون إلى وحدة ، تنبث عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب

الكالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشتته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب .

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعا وأجزؤها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، إذا استحسنت صعدت بذوى المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصا إن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية ، على ما أشرنا اليه في العدد الثاني من جريدتنا .

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط ، فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، وكذلك يمحو أثر المناهضة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأبيد الشرف ، وتحليل الذكر تحت الاسم الجامع لهم هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه .

تنتع جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفساد التعصب الديني وزعموا أن حماية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضاضفهم لدفع ما يلزم بدينهم من

غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير الى كمال الدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم ، ومن رأى أولئك المثقفين أن لاسبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بالتحلل العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب اليهم .

كذب الخراصون ، ان الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأفئدة إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة ، وقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصاً دين الاسلام فهو الذى رفع أمة كانت من اعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، وسماها الى أرقى مراق الحكمة والمدنية فى أقرب مدة ، وهى الأمة العربية .

قد يطرأ على التعصب الدينى من التنغالى والإفراط مثل مايعرض على التعصب الجنسى فيقضى الى ظلم وجور ، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفهم ومحى وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمى الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذلك فى بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى ، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم إلا ان هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامى فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الإفراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفهم

في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف ، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم :

(أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن امر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية .

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكاة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من ارباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ما كان ، وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) .

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم ، وتغلغلهم في اقتتاح الاقطار ، واندفاع همهم للبسطة في الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فإن قبلت زالا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي ، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فإنهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين اولئك المساطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية ، بل في البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزية في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني تقيصة ، وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الا بما يكون به التعصب الديني اقدس وأطهر وأعم فائدة . لانهال عاقلا يرتاب في صحة ما قرناه فاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أى أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه تقيصة يجب الترفع عنها .

نعم ان الافرنج تأكد لديهم ان أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية ، وادركوا أن قوتهم لا تكون الا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كعلمنا ، وعلم العقلاء أجمعون ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التي يببالغون في تعظيمها واحترامها حقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكناً سواء فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لقواصل الجو وما يتصل به على حياته .

من هذا ما سلك الانجليز في الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدا بهم وفي دينهم ما يعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم ، وأرشدتهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد الحمدي والعصبة المليية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمه الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين ، وفي صدورهم غل ونفاق وفي قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون في البلاد الهندية

بالنيجرية أى الدهريين فاتخذهم الانجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حيتهم ويحمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف فى العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانجليز فى التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل التزنديق أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش) .

هذا أسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الجبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجيبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ، ويهجرون فى رى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب يستبعدونها ما دامت الأرض أرض والسما سماء .

والله ما عجيبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخرجون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة . الافرنج أشد الناس فى هذا النوع

من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ، ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، وإذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشرى على واحد من على دينهم ومذاهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً وهيئات ونياءات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدينة الغربية وينادى جميعهم : ألا قد ألت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فاجمعوا الأمر وخذوا الأهباء لتندارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنتخدش الجامعة الدينية ، وتراهم على اختلافهم ، في الاجناس وتباغضهم ، وتحافدهم وتنازلهم في السياسات ، وترقب كل دولة منهم ، لعثرة الاخرى حتى توقع بها سوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحرية والسياسية لحماية من يشاكلهم ، في الدين وإن كان في أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم ، الأنساب الجنسية .

أما لوفاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء الخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم إحساس بل ، يتغافلون عنه ويذرونه وما يحرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهممل الراعية ، وليس من نوع الانسان الذي يزعم الاوروبيون انهم حماة وأنصاره ، وليس هذا خاصاً بالتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم ولتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تتجاوزوه . أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبة الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كجلادستون ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب (١) بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه ، (أنظر إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة) .

(١) هو داعية الحرب الصليبية .

فيا أيها الأمة الرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ،
وأرواحكم فلا ترهقوها ، وسعادتكم فلا تتبعوها بضمن دون الموت . هذه هي روابطكم
الدينية لا تغرنكم الوسوس ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ،
ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم
رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت
لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر
وإن تنأت دياره ، وتقاقت أقطاره .

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم
وسيادتكم فلا توهنوها ، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ،
فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا
الله وتلتزموا بأوامره في حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة وإحكام
الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان
المختلفة ، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ،
وعليكم أن لا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم
ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصره على
مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة
والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية .
اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد
أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا
على الأثم والعدوان .

القضاء والقدر

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية ، فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد ، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الأعداد الماضية ، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدرجات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس ، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق به عند الاعتقاد شيء مما تصادفه ، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ، ولا كيف يصرفه اعتقاده ، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة ، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالباً ، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب ، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبش المسير ، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد الحققة استناداً إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة .

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحققة . كثر فيها لفظ المغفلين من الأفرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعفة ،

ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم خصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا : ان المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والحيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلية وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم ان يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، الأمراء فيهم يقطعون أزمנתهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً نفقاتهم واسعة ، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخازلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، قرب تنافر بين أميرين يضع أمة كاملة ، كل منها يخذل صاحبه ، ويستعدى عليه جاره ، فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية وضعفاً قاتلاً فينال من بلادها ما لا يكلفه عدداً ولا عدة . شملهم الخوف وعهم الجبن والخشوع يفرزون من الحمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الأمم في العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم ، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، وإذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لا يسمعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولا سرية ، يكون من مقاصدها احياء النيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بنى الأقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار ، وزعموا ان لا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن

المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تمديداً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفنى بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجنب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله ؛ وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتمطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ماوهمهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشى أن أقول : كذب الظان . وأخطأه الوهم وبطل الزاعم . وافتروا على الله والمسلمين كذباً - لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدى واسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرّة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختيارياً في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية ، والنواهي الربانية ، الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت أن لافرق بين أن يحرك الشخص

فكه للاكل والمضغ وبين أن يتحرك بققفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسة الفاسدة ، وقد انفرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقاربه فى الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو ، حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الادراك . والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس . وشموورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات . فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله . فضلاً عن عاقل ، وأن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته . وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له . خصوصاً فى العالم الإنسانى .

ولو فرضنا أن جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس فى إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الإرادات البشرية . فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنّها الله فى خاتمه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين - وإن بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان فى اثباتها ، ولسنا فى حاجة إلى الاستشهاد بأرائهم .

إن للتاريخ علماً فوق الرواية عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطوائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والأخلاق والأفكار ،

بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول ، أو فنا ، بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والادعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف للحادثات ، ولو استنقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والأقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرائر النمر . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكار ، ومقارعة الأهوال ، ويحللها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة ، كل هذا في سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته ، أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا القوم وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وفهروا الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة

بين اسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة ، أرغموا السلوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة ، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات .

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبلاً وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب ، وأعدوا كل فريضة وما كان فائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الإعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمت سيوفهم بالشرق ، وانقضت شبهها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة . هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم ، كأنما يسرون إلى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج إليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الابطحال السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الأولاد مهابة ، هذا الإعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد افلاذ الاكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب ، يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيخوا بروق سيوفهم ولمعان أسننتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم .

بكائي على السالفين ونحيبي على السابقين ، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ، أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المضمين يوم الشدة أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأجداد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ، ألا تنتظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحتكم ، انحر فواعن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعاً ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتتحرق الأكباد حزناً . اضحوا فريسة للامم الأجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال ، إلى سواء السبيل ؟ (انا لله وانا اليه راجعون) .

أقول وربما لا أخشى واهماً ينازعني فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات ، ثم رقى بهيمته الى أعلى الدرجات فذلت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، وينبث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله ، الإنسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجلبة ، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا ، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه الى أن المقدركائن ولا أثر لهول المظاهر .

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة ، إلا أنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لا يهول له هول ، ولا توهن عزيمته شدة ، وإن اسكندر الأكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيز خان التتري

صاحب الفتوحات الشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد ، بل كان نابليون الأول بوناپرت الفرنسي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهي التي كانت تدفعه بمسأكره القليلة على الجماهير الكثيرة ، فيتهيأ له الظفر ، وينال بغيته من النصر .

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس . الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت ، نعم إننا لاننكر ان هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر ، وربما كان هذا سببا في رزيتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة ، ورجاؤنا في الراسخين من علماء مصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون ، وينشروا بينهم ما أثبتته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا في العمل ، لا في البطالة والكسل ، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ، وننبذ ما أوجب علينا ، بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين ، الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقبة التي تجمع كلتهم ، وترد اليهم عزيمتهم ، ونهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول ، الادعوة خير من علمائهم ، وان جميع ذلك موكول إلى ذمتهم .

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشأوه هذه العقيدة « ولا غيرها من العقائد الاسلامية » ونسبته اليها كنسبة النقيض إلى تقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار . نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وتمثل من العز والغلب وفجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان ، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده ،

وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم ، وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأى ، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ، ووسد الامر فيهم الى غير أهله ، وولى على أمورهم من لا يحسن سياستها ، فكان حكمهم وأمرؤهم من جرائم الفساد في أخلاقهم وطباعهم ، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم ، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذنه الآنية ، وأخذ كل منهم بناصية الآخر ، يطلب له الضرر ويلتمس له سوء من كل باب ، لا لعلة صحيحة ولا داع قوى ، وجعلوا هذا ثمرة الحياة ، فآل الامر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا اليه .

ولكنى أقول — وحق ما أقول — ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح في أذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم ، وكل ماعرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلى ، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحققة ، ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالمهم ، ويذهبون مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم ، وارهاب الأمم الطامعة فيهم ، وإيقافها عند حدها ، وما ذلك ببعيد ، والحوادث التاريخية تؤيده . فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم ، واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوخوا البلاد وأرغموا أتوف الملوك ، ودانت بسلطانهم الدول الافرنجية ، حتى كان السلطان العثمانى يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر .

ثم أرجع البصر تجدهزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء النقلب : حركة سرت في أفكار ذوى البصيرة منهم في أغلب الانحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع ، والسعى بنفاية الجهد لبث أفكارها ،

وجمع الكلمة المفرقة ، وضم الأشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية ، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يضمرة الأجانب لهم ، وإنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم ، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها ، وتأيد مقصدها الحق ، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً .



الفضائل والرزائل وأثرهما

”وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين“

قالوا : للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه ، وقالوا إنه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل ، فإما هي الفضائل وما هي الرذائل ، الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لا يتشاحن ولا يتنازعان في التعامل ، فإن من سجية كل منهما البذل في الحق ، والمنع إذا اقتضاء الحق ، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاودة الأعمال المالية ، والأعفاء لا يتراحمون على مشتهى من المشتهيات ، فان من خلق كل منهم التجافى عن الشهوة ، وفي طبيعته الايثار بالرغائب ، وهكذا إذا استقرت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشئ عن تلك الفضيلة فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام في جميع الأعمال والمقاصد أو جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة وعلى هذا النحو يكون الأمر في الأشخاص الكثيرة ، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد ، تميل بكل منهما إلى الآخر إلى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك بإرادة واحدة ، ويطلب في حركته غاية واحدة ، مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فإذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحاديها عند حده في عمله لا يتجاوز به بما يسحقاً للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازن ، لكل شخص من أفراد الإنسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الألهية من القوى مابه يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو

في هذا يساوى سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازاً عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرق وأعلى ، وهو كون الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد ، والأفراد فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال ، وإنما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود إليه نصيب من عملها الكلى كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية ، والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها الابصار وتميز الألوان والأشكال ، وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة ، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الإنسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكأن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها : كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الإنساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله .

أى أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب والدافع ، وجميع من يدير أمورها ، ويسوسها في شؤونها إنما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها « من الأعلياء والأوساط بل سائر الاطراف » ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى إلى غاية تميل به من غاية الكل ، ولا يهمل عملاً يتعلق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا ترعزعه العواصف ولا تدركه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة ، تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الأغبيار عليها ؛ فهى الأمة التى سادت فيها الفضائل ، واستعملت فيها مكارم الأخلاق .

أن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغايرون إلا للاتحاد ، فثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة . يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثلهم في تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرفي خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجهه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا يفرقان ولا يتباينان ، ولا تقنى منفعة أحدهما في منفعة الآخر ، أما أن مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وإنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لنستمد منه .

يرى كل واحد منهم أن ما تبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالليل إليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والقلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة . إنما يمكن إذا توفر للأمة حفظها من هذه المزايا فيسمى جهده لا بلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداداه ليأخذ بسهم مما يناله . فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها . فضلا عن هيئتها العامة . وإلا فقد خان نفسه . لأنه أبطل آلة من آلات عمله . وقطع سببا من أسباب غايته . ولا يحتقر واحداً من الآحاد . ولا يزدري بعمله ، ويحسب الشخص من الأمة وإن كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك أن تنظر في حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي يبناه : التعقل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة « لين الجانب » والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار « تقديم الغير بالمنفعة على النفس » والنجدة والسباحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والروءة والحمية وحب العدالة والشفقة .

الآثرى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الأمم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والاتساع التام؟ هل يوجد مشار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرين صادقين وفين كريمين شجاعين رقيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين . أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتاً لأحييها ، أو قفر لأنبثها أو جدباً لأمطرها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لها من الوحدة سياجاً لا يخرق ، وحرزاً منيعاً لا يهتك ، وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجيا الشريفة أمة قال نبيهم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدى إلى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وأما الرذائل فهي كصفات خبيثة تعرض للانفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقنطرة « قلة الحياء » والبذاء « التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام » والسفه والبله والطيش والتهور والجن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والحيانة والكذب والنفاق ، فأى صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألفت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف إلى حيث لا يبقى أمل في الوفاق ، فإن طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق وإما السقوط إلى مالا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملة أو القبيلة أو العشيرة أو بأى نوع من أنواع التعامل ، والإنسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقاً منها ، وإن شئت فتخيل وقحين بذئيين سفهين جبانين بخيلين « كل يمنع الآخر حقه » شرهين حاقدين حاسدين متكبرين « كل لا يستحسن إلا فعل نفسه » لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين ، هل يمكن أن يجمعهم مقصد أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بالتباز كل من صاحبه وإن لم تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قويا للتناذر .

هذه الرذائل إذا فشت في أمة تقضت بناءها ونثرت أعضائها بددتها شذر مذر ، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر ، فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة .

هذه صفات إذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبي عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء إليهم ، يمددون السبل للغالبيين إلى النكايه بهم ويمكنون محالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا ، إذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم ، وإذا غاص أحدهم ببحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس في الامكان أن يكون منا عارف ومن المحال أن يوجد بيننا خير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ، ويتنافسون في سفاف الأمور ودنياها ، يرتابون في نصيح الناصحين ، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالوعظين ، وإن كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين ، يبدلون جهدهم لخبة من يسعى لإعلاء شأنهم ، وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون في طريقة العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تنتظم لأعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لقصد معلوم ، فتنتفلت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط . فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعا ومبعثا للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب ، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي ، بل كالمتبلى بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمربيه ومهذبه ثم ينشئ بطيبه ومن يعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكلة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الأمة قطعاً وجذاذات بعد ما يشوهون

وجبهها ويوشوشون هيئتها، أولئك قوم يسامون في مراعى الدنيا والحسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ، ويدلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم ، وبهذا يكتنون الذلة في نفوسهم ، من دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الأعداء اللداء من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتنفى في أمة أو ملة أخرى ، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد) اعادنا الله من هذه العاقبة ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير إلى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر إلى مابه تقتنى الفضائل . وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأى لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آباءه وأسلافه ، أنى يكون لهم حظ منها ، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم يرشدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلل بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا إذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبين أوامره ونواهيه وتثبيتها فى العقول ودعوة الناس إلى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها ، أما إذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو أهملوا فى تأدية أعمالها ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلمت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت إلى الأنفس أفاد الرذائل ، فيحرق على الناس كلمة العذاب ، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا إليه سابقاً .

هذه علل الخراب فى كل أمة لقد ظهر أثرها فى أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الإنسان إلى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل

فيهم ، بعد ما بدلوها وغيروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المبروفين عند الأوروبيين بطائفة « باريا » (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم). فالدين وهو السائق إلى السعادة في الدنيا كما يسوق إليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتقلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ، ولا يكون ناشئا إلا عن شيء من الإهمال في اتباع أوامر الشرع الإسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك ، وربما لا ينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد إلا إنهم لا ينجحون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الفراء ، وهذا مما يحدث ضعفاً في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ولهم حسن الاذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لا يبق وحالاً لا يدوم .

انظر نظرة انصاف إلى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم ، وإلى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، تجد من نفسك حكماً بأن علماء الديانة الإسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع ، والمحتملة على ذمتهم بأمر الله الموجه إلى الذين يعقلونه وهم في

قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الإلهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ولوقاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة ، لرأيت أن الأمة الإسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع ، كل ذلك في أقرب وقت ، ولن تكون إلا صيحة واحدة فإذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الإسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الأزمان الأخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة فالرجاء في همهم وغيرتهم الدينية وحميتهم المالية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الأخوة والألفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم أنه لا يئأس من لطف الله إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوى فيهم إباءة الضيم ، والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الأنفة ، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتى الدنية في دينه ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق في قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

الوحدة الإسلامية

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا أو تذهب ريحكم »

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكأنى على حدود الصين في عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء . أقطار متصلة ، وديار متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب . أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام ، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم . قلاعهم وصياصيهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم « أراضيهم السهلة الواسعة » وأخياهم « الأراضي المنحدرة عن الجبل » رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأنصاف الأشجار ، صنع أيدي المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم ، وتفخرها بشمس الفضل ، وبدور العلم ، ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الأعلى في العلوم والآداب .

كان في نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم ، وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل وماثلوهم ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة في جميع طبقات الملة . كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا . ومن ملوكهم في قروهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى وملكشاه السلجوق ، وصلاح الدين الأيوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب السلطان محمد الفاتح . والسلطان سليم والسلطان سليمان العثمانى ، أولئك رجال قضوا ولم يبطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

(١) فغفور : لقب ملوك الصين

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البحار إلى زمان غير بعيد ، كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم يملأون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمائة مليون ، وأفرادهم في كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ، فأودع في أفكارهم جرائم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنًا وأشد استعداداً لنيل الكلمات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة في الأخلاق ، وربما يرون لأنفسهم من الإختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذي سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت . لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه . ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسلياً ، وبما ساخ (خاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم إليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل .

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم ، وأخذت مما لكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته . هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون . هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار

شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لا . لا . إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في إرادتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم .

نعم يوجد للتقصير في أماء العلوم ، والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأننا بينا أن لاجنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وأهلوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الدهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاعسار دون الترقى في عوالبها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم .

هذا كان من أمراء المسلمين مع مافيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغى ، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع ياطل فاقبلوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤئل ، وقنعوا بألقاب الأمانة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ، ولجأوا للاستئصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشعب البالي والنعم الزائل .

هذا الذي أباد مسلمي الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند وعما أطلالها وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء

السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن ، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون ، أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الأمة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنينا .

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الحسائس ، ما أشد ضررها وما أسوأ أثرها ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه ، فاختلّفوا والمدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة ، حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم ، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم ، ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفساف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة ، وشقاء أبدياً بعد المات ، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام .

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم واثلت آحادهم ، ولكن وا أسفاً تخلصهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أسر فيها ولا نهى . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب .

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية ، من أشد أركان الديانة الحميدة ، والإعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم ، ولا كتاب يثبت ، ولا رسائل تنشر . إن رعاة المسلمين فضلاً عن علام تتصاعد زفرائهم ، وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الفتوة من الأمراء ، ذوى المطامع في السلطة بينهم ، لاجتمع شرفهم بغريبهم ، وشماليتهم بجنوبيهم ، ولبي جميعهم نداء واحداً إن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم ، إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن

إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار .

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة ، هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا وليس في ممالكها ينابيع الثروة ، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهي مصابة بالحاجة والاعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسى أوروبا ، لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعداها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاه دول أوروبا .

فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، فيما هو أيسر الأشياء علينا ، ونحن أشد الناس ميلا إليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحيط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها . مارد الأفكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين في المضجع ، وتناول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والحول ولا يراعون في حرصهم مابعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد وهز الرؤوس وثنى الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذليل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه الموائل (جمع مائل من الرسوم مذهب أثره) بكل دينثة ، هؤلاء يقبلون من قصر أعدائهم في بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لاحول ولا قوة إلا بالله .

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويانسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ، هل مضى وقت التدارك ، هل آن أوان اليأس ، لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل

الزمان منكم ، إن من أدركه إلى ييشاور دولا إسلامية متصلة الأراضي ، متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبراعة ، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ، ولو اتفقوا فليس ذلك يبدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ، أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون أخوة) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفعة عليهم من جميع الجوانب .

لا ألتبس بقولي هذا أن مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بمجده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق ، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا ، إن البكاء لا يحيي الميت ، أن الأسف لا يرد الفائت ، أن الحزن لا يدفع المصيبة ، أن العمل مفتاح النجاح ، إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف المهمة من أسباب الختف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقدموا مع القاعدين ، أهدروا أن تقعوا تحت قول الله : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) أن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقتله فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله بغافل عما تعملون) .

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بملافاة
أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزى به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا أن أول
صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقف من الرقدة ، تصدر عن أعلام مرتبة ، وأقواهم
شوكة ، ولا ترتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل
الشريف ، والله يهدي من يشاء والله الأمر من قبل ومن بعد .

الوحدة والقيادة

« المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً »

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدي إليهما الدين تارة أخرى ، وقد تفيدها التربية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصعبه بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلائوها ، وهما الميل إلى وحدة المجتمع ، والكلف بسيادة لا توضع . وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوائيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع في ضائصه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأ خلقاً سوياً ، ثم استبق له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله .

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالقلب ما تنمو به بنيتها ، ويشند به بناءها ، فلا بد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسط الأرض . إن التغلب في الأمم كالالتغذي في الحياة الشخصية ، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول ، ثم أفضت إلى الموت والهلاك ، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها ؛ وتصول على من يليها لتخزل منه ما يكون مادة لنمائها ، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها . إذا أحسست من أمة ميلاً إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم ، إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفناها ، وجدنا سنة الله في الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في القلب ، وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم ، إلا عند لهوهم بما في أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ، ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلة إلا بعد ما رزؤوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلاً طويلاً وعذاباً وبيلاً ، ثم فناء سرمدياً .

الوفاق تواصل وتقارب يحده إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته ، فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد ، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ثم لا يكون نظراً عقياً حائراً بين جدران الخيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويختارون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لابنائها من بعده وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذي بيناه ، رأيت في الدهماء منهم والخاصة همما تعلقا ، وشيا تسمو ، وإقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم ، في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه ، ويكون نزوعهم على الأمم بعد الغلب الأول تدققاً من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر .

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ومن خالف أمر الله فيها فرض منهما عواقب من مقتته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، جاء في قول صاحب الشرع « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدهما ألم تأثر له الآخر ، وجاء في نهيه « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا » وأنذر من شد عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن ، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الألهي (وإنما المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد على وجوب الاصلاح وإن أدى إلا مقاتلة الباغي ، فقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » وإنما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى ، ويوصله جهنم وساءت مصيراً ، وفي أمره الصريح بإيجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تمريز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة وأخبر الصادق عليه السلام (أن يد الله مع الجماعة) وكفى بالقدره الالهية عوناً إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية ، حتى جعل إجماع الامة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين ، وعهد ججوده مروفاً من الدين ، وانسلاخاً عن الايمان ، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله عليه السلام « لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم

ويأخذوا الحق من الظالم ، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه (فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه ، هذا اجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنازعة والمنازعة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه .

وأما السعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجذب فيه ، حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء الفروض منه ، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية ، مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها ، هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا . كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف لإجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به ، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليها الشريعة كما قدمنا ، هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا ينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ، وأيسر شفاعة إلينا أقامتها وعديدنا ربعمائة مليون أوزيريد ، هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، إلا افتراقنا وتدابرها والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لو ادينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا ، وتطمئن

قلوبنا بذكرها ، وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للاغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيمهم ، وأيدينا على نواصيمهم . إن لأبناء الملة الإسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل ، هل يود المسلم لو يعمر الف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الإزدراء بالحياة هو دليل الإيمان ، أرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرفب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همة أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلده ، والجالية من أمته .

لا . لا . إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد . واخجلتاه لو خطر هذا بيالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام .

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهامم بعض ما أشرنا إليه

في أعداد ماضية فألهام عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديه من بين جوانحهم ، فسهبوا وما غفوا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة ، كل يطلب عوناً وهو معه ولكن لا يهتدى إليه ، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحججه ما استطاع ، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض ، وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديت الأجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الأغراب على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراقى ، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلاً ، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ، ويهيئ لهم فوزاً ونجاحاً بمون الله الذى ما خاب قاصده ، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب .

الأصل وطلب المجد

« إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون »
(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبئ عن سر عظيم ، اختص الله به الإنسان ، ورفع به على سائر الأكوان ، ليلبغ به المقام المحمود ، ويحوز ما أعدته له العناية الإلهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة شرك ، تجدد في وجدانك ميلاً قوياً ، وحرصاً شديداً ، يدفعك إلى طلب المجد ، وعلو المنزلة ، في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها « تجدد مثل ذلك في كليتها كما هو في آحادها تبتهنى رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها ، ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل إلى ما يطلب ولكنه يلاقى في الوصول إليه وعراً في السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله ، يقطع شعباً ، ويعانى صعباً ، حتى يرقى ذروة المجد ، ويتنسم شاهق العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء ، ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل إلى غاية العامل منه ، رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف ، هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر والنهي ، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من وضعه فيهم ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار ، حتى إذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ، ونافس أهلها في الجاه ، ولا يزال يتبع سيره مادام حياً يخطر في بسيط الأرض ، ذلك لأن الكمال الإنساني ليس له حد ، ولا تحده نهاية ، وليس

في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية .

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان وماذا ملكت من أهوائه ؟ يعمده ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى أنه يحتقر الحياة عند فقدده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه ، أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له إذا اعتدى عليه من تطول يده إليه بفعلة تهينه ، أو قذفة تشينه ، يغلبه الغضب للدفاع عن المنزل التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به إلى الموت وأن القذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه في مبيته ، آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم إلى المهالك ، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد ، جل شأن الله لا يهنا للإنسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع إلا أن يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة ، فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعاني الإنسان من التعب البدني ، وكم يقاسى من مشاق الأسفار ، وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات ، وكم يتحمل في الانقطاع عن اللذات ، مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما أناه الله منه ، ما أجل عناية الله بالإنسان لا يعيش إلا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهي وسيلة إليه ، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعر يسلكها الحي إلى ما يستطيع من المجد ، وفي نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه آسف الفؤاد على ما قصر عنه .

ما هو المجد الذي يسعى إليه الإنسان بالإلهام الإلهي ، ويخوض الأخطار في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله ، هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتدعن له بالاعتلاء ، وتلقى إليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل في

نسبته إليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر أمته فتتفد كلته إليه وكلة المتصلين به ،
 والمتحمين معه فى شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معانات
 الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الأولى ، فما كان يحسبه طالب المجد
 طائداً إلى نفسه بالمنفعة . يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بنى جلده أجمعين .
 واه ! تلك حكمة بالغة : إذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها
 من السؤدد . نعم وهل نال ما نال إلا بعبوة سائر الآحاد منها (ذلك تقدير العزيز
 العليم) . ماذا يستطيع المجاهد وحده . وماذا يكسبه من سعيه . إن لم يكن له أعضاء
 من بنى قبيله . فمن كان همه أن يصعد إلى عرش العزة . ويرقى إلى ذروة السيادة
 فعليه أن يهيب نفسه والمتتمين إليه لتحصيل كل ما يعد فى العالم الإنسانى فضيلة
 وكمالاً . ما أصعب القيام بخدمة هذا الليل الفطرى والإلهام الإلهى . وما أشد ما تحمل
 النفوس فى قضاء بعض الوطر ما يتصل به . وما أعظم الحامل للأفس على تجشم
 المصاعب لنيل ما تميل إليه من هذا الأمر الرفيع . ما هذا الباعث الشريف الذى
 يسهل على الأرواح كل صعب ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل
 خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ،
 فضلاً عن بذل كل نفيس ، والسلاح بكل عزيز ، هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب
 للفعال هو الأمل .

الأمل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق فى يهماء الكروب ،
 وعلم هادى فى مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم إذا عرتها فترة ، ومستفز للهمم
 ان عرض لها سكون ، ليس الأمل هو الأمنية والتشهى اللذين يامحهما الزمن تارة
 بعد أخرى ، ويعبر عنهما بليت لى كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون إلى
 الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يروم
 أن يبدل الله سنته فى سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوق إليه
 ما يهيجس بخاطره دون أن يصيب تعباً أو يتلاق مشقة ، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ،
 ويصحبه حمل النفس على المكار ، وعرك لها فى الشاق والتعب ، وتوطئتها للالقاء

البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغد بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون .

وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً ، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة ، غير أن ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات ، فإن كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر فكل طالب ومطلوب ، ولم تبلغ سعة العقل الإنساني إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس ، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أجباً شرفاء بما يأتون من أعمالهم ، ولكنهم تراحموا في الآمال والأهواء ، ومسالكهم ضيقة ، ومشاعرهم ضنكة ، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . فإذا توالى الصدام علي شخص أو قوم حدث في المهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هاتين الخليتين الشريفتين « الرجاء وطلب المجد » كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف إلى اليأس والقنوط « نعوذ بالله منهما » .

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ، يحكمون على أنفسهم بالخطية ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنيا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الأهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أياً كان ، فتسلب منهم جميع الأحاساس والوجدانات الإنسانية التي يمتاز بها الإنسان عن الأنعام فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بحاجات قبحهم وذنبهم ، ثم ياليتهم يكونون هملاً وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الفئث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم فأن الله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون

كأنهم الحماله لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيفتهم أن تسعى وتسقى ليسعد غيرها ويستريح ، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرها من الأعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد ما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً ، ثمرات كسبهم بأسرها محولة إلى الذين سادوا عليهم بهمهمهم « هذا الذى يتجشمه الذليل فى ذلة من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه فى طلب العزة لأصاب حظه منها » بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فإن السائدين يشعرون بحكم البداهة ، إن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله فى تكوينهم على الشكل الانسانى وإيداعهم ما أودع فى أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان فى الائم التى أدركها اليأس وسقطت فى أيدي الأجانب .

ونظن أنه يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم فى الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .

عجباً كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ؟ والأمل وحب الكرامة طبيعيتان فى الانسان ، بعد إيمان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته ومتى كانت قوة المانع أعظم من

قوته فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع في الشقاء الأبدى ،
أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لمظمته ، وتدين كل
سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عبادته كيف
يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ،
فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التي هي أعلى
من كل قوة ، فيركن إليها في أعماله ، ولا يجرد اليأس إلى نفسه طريقاً ، فكلما
تماظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم
منها ، وكلما أغلقت في وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب ، فلا يعمل ولا يكل ،
ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ، ويلقى
قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من
نواصي الأقوياء ، وهم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ، فتشدد عزيمته ويدأب فيما كلفه
الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الأولى والآخرة ،
وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى
عن الواقع والحقيقة التي لا ريب فيها بما قال وهو أصدق القائلين (أنه لا ييأس من
روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه إبراهيم (ومن يقنط من
رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر ومن أين
يطرق اليأس قلباً عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه
الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ
لهم أيمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم
إلى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم ، فإن لهم ملوكاً عظاماً ، ولا يزال
في أيديهم ملك عظيم على بساط الأرض ، وأن من الحق أن نقول : أن أبواب رحمة

الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وأن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها والفرص دائماً تمتد أيديها إليهم تطلب إنقاذهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر ما يكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأى موجب لليأس وأى داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغي (فاذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقائطين فيهم من عذر؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا ، ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم ، وببيض شامت ، ومقبح غبي ، ومشنع ذنى ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالاً عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم ، ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة إنسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات . أينسون أنهم كانوا في الأرض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض .

إن كان للعلماء عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ، لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ، لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ، لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ، لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم .

بلي أن قوماً شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر في
مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة إلا أن
أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعريضهم ، ليتمكن الجميع
من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .



رجال الدولة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ﴾
 ﴿ ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي ﴾
 ﴿ صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة ، والقلاع المنيعة ، والجيش العاملة ، والأهب الوافرة ، والأسلحة الجيدة . قلنا نعم هي إحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ، ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تحرس بذاتها ، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة ، وأولوا رأى وحكمة ، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب ، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوى التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ، يوطئون طريق الأمن ، ويسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ، ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التى تليق بها بينها ، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالرحمة والشفقة على سكانها ، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم ، يجدون فى أنفسهم منبهاً على ما يجب عليهم ، وزاجراً عما لا يليق بهم ، وغضاضة وألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ضرر ، ويوجس عليها من خطر ، ليتيسر لهم بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يؤديوا أعمال وظائفهم كما ينبغى ، ويصونوها من الخلل الذى ربما يفضى قليله إلى فساد كبير فى الملك ، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة .

يسهل على حاكم فى أى قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ، ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم . عقلاء رحماء ، وأباة أصفياء ، تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم لابد أن يتبع فى هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الطبيعة ، فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق ، وقلمنا يخطئ فى رأيه أو يتأود فى عمله من أخذ به دليلاً ، وجعل له من هديه مرشداً . وإذا نظر العاقل فى أنواع الخطأ التى وقعت فى العالم الإنسانى من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله فى خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والرحمة والحمية والنمرة على الملك والرعية ، إنما تكون لمن له فى الأمة أصل راسخ ووشيع يشد سلطته بها ، هذه فطرة فطر الله الناس عليها أن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعى نسبته إليها ونسبتها إليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه « راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندما يرى أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسورى ينتقد المصريين أو مصرى ينتقد السوريين » هذا إلى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمتة من الفوائد يلحقه حظ منها وما تصيبها من الأرزاء يصيبه سهم منه . خصوصاً إن كان بيده هامات أمورها وفى قبضته زمام التصرف فيها فان حظه من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم ، وسهمه من العار الذى يلحق الأمة أكبر ، فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التى هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولى الأمر فى الدولة أن لا يكل شيئاً من عمله إلا إلى أحد رجلين : إما رجل يتصل به فى جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة فى نفوس المنتظمين فيها محترمة فى قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغافل فى وقايتها من كل شين يدنو منها

ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان ، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت
جامعته مقام الجنسية ، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها ، كالدين الإسلامي الذي حل
عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين
« الجنسية على النحو السابق والدينية » مبدآن للحماية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم
رابطته مقام الجنس ، فثلهم في الدولة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهيمه إلا استيفاء
أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل ، هذا إذا صدقوا في أعمالهم
يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر ، واقفين فيها عند الرسم الظاهر ، فان الواحد
منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة
لأنه منفصل عنها إذا فقد العيش فيها فارقها وارتد إلى منبته الذي ينتسب إليه ، بل هو
في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي
يأخذه وهذا معلوم ببدهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على
الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلى شأنه ، بل لا يجد باعثاً يبعثه
على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه ، هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة
لوفرنا صدقهم وبراءتهم من أغراض آخر ، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين
من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق
وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا ، وسواء راعوا
الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يهدون لها طرق الولاية
والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك
الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث
على الغش والخيانة)^(١) ومن تتبع التواريخ التي تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكى لنا عن
سنة الله في خليقته وتصريفه بشؤون عباد ، رأى أن الدول في نموها وبسطها ما كانت
مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها

(١) يقصد الأفغان في مهاجمة الغنيفة هنا ، بعض الأجانب الذين يسيئون إلى البلاد التي آوتهم .
وبدهى أن هجومه لا ينطبق اليوم على الأجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد في ظل القومية العربية .

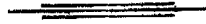
بيد أجنبي عنها وأن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الإنحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها ، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم ، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة .

نعم كما يحصل الفساد في بعض الأخلاق والسجاياء الطبيعية لسبب الموارض الخارجية ، كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب الفساد ، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته ، إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة ، لا يمكن محوه بالكلية فإذا أساء في عمله مرة أعجبه من نفسه صائح الوشيحة الدينية أو الجنسية ، فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى ، وأن ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والإلتفات إليها ، ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق وأن بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين ، حيث سلموا أمورهم ووكّلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم ، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولو هم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم ، بعد ما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضعف والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة ، وبعد ما علمتهم التجارة أنهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا أهانوا ، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجاوزون على اللقمة بالطمعة ، والركون إليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة ، أما أن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقص ألم بأن لهم أن يرجعوا إلى حسمهم ووجدانهم

ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلهم عليه الرزايا والمصائب ألم يكن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأبدى أهدائهم .

ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللا جانب عنكم (ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم)
 قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (إن تمسكم حسنة تسؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا إلى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير ، إتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوى بكم الخطل إلى أسفل سافلين ، ألم تروا ، ألم تعلموا ، ألم تحسوا ، ألم تجربوا ، إلى متى ؟ إلى متى ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .



كم حكمة الله في حب المحمّدة الحقة

العالم الإنسانى كتاب المعبر ، وسفر المستبصر ، وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ولنا في كل ما خطه القلم الالهى عبرة .

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة ، وأدوارها المتبدلة فترى أمماً علت وسمت وحلقت في جو العالى وجازت في الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث ، ومنها أجيال كانت في ثنى العدم ثم اكتست حلية الوجود ، واتخذت من الاجتماع الانسانى مكان الهامة من الجسد ، ثم انطوت وأختت عليها أمهات قشع ومنها ما نراه إلى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالأمر والنهى من شواهد القوة .

فن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التماثيل ينسبط لبعضها إذا أعجبه ، وينقبض لآخر إذا أنكره ، وهو في غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها ، فإن سئل عن السبب قال : سبحانه الله هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الأشقياء .

ومنهم من تنفذ بصيرته إلى الحقيقة فيقف على ما هياه الله من الأسباب التى تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها ، ويعلم أن ما سبق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أمثالها جدوا وجاهدوا ، وربما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبنى جنسهم ، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع ومكانة من القلوب تحمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة وهم لا يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم ، وإنما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار إلى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف

ثمار الشاء وتحليله الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم ، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ السير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة ، ورءوس مجذوزة ، وأشلاء مبددة وشعور منثورة ، وصدور مدقوقة ، وبشهاد الطريق مضرسة بقبور الشهداء ، من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ، ولا يحصى عن سلوكها ، وتبدوله غابات وأدغال يرجع إليه منها صدى زئير الآساد وزجرجة الضراغم ، ولا بد له من اختراقها .

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها ، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة ينحور عزمه ويضعف همه فينكص علي عقبه ، ويرتد إلى أسوأ حاله ويرتفع في مراتع أمثاله ، حتى يروح إلى عطنه الأولى به وهو العدم ، وتارة يوحى إليه الإلهام الإلهي أن الشخص في خاصته والأهم في هيئاتها ونوع الإنسان في مجموعها ، تطالبها صورة الإبداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس في السعي ، وحملها على مالا تهوى ، ومغالبه الأهوال والفوائل ، وفيما أودع الله الإنسان من القوى العالية ، والخواص السامية ، أكبر مساعد على ما تندفع إليه الهمة ، وتنبعث له العزيمة .

إن من أحياء الله بالحياة الإنسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً علي قهرها كما أن صاحب الشمع لا يزيده الخصام إلا حدة في الجدل ، وإصراراً علي إقناع المخاصم ، وكثير ممن على شكل الإنسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعانى فيها من الشقاء أشد مما يعانى فيه الإنسان في إبراز مزايا الإنسان .

إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسه السكواسر ، ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانه من الرفة ، وتقصر عنه يد التناول ، أما من أخذ إلى السفلى فخطه من الحياة خوف لا ينقطع ، وإشفاق لا يزول ، كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل ، مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ،

ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رُغموا الجحول ، ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل إلى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد ، فإما وصل وإما مات كما يموت الكرام .

لم تنل أمة من الأمم مزية من الزايا الحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف ، والآداب والفضائل ، أو القوانين والنواميس العادلة ، أو العسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها إلى ما تحشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلكوا تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأهمهم ، أقصى ما بلغت بهم همهم ، مع الاعتماد على العناية الأزلية في جميع سيرهم .

ماذا يريد القانون في خدمة الأمم أو النوع الانساني ، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعهم معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركونهم في النوع ، أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً ، أليس من سنة الله في عباده أن لا تتجه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المديد إلا بعد تصور غاية تعود إلى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ، فإن كان الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينغد في مناهدة الأوصاب البدنية ، فاذا يقصدون من أعمالهم ، إن كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوى ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على إيلاهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ، وصددهم عن السعى فيما يرجع خيره إلى أنفس المعارضين ، ويشخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشتم والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافأة والمنازلة فما الذي يبتغون من جسدكم وكدهم ، لالذة تجتنى ، ولا ألم يتقى ، فما هذا الباعث القوى الذي غلب الأهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء .

نعم أودع الله في الانسان ميلاً أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع ، وهو (حب المحمدة الحققة وحسن الذكر من وجوه الحق) أقول هذا تفادياً من حب المحمدة من أى وجه حقاً كان أو باطلاً ، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأخيار ، مع تبطن سرائر الأسرار ،

فإن هذا من أسوأ الحلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة
 هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني ، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني
 تهاون بالشهوات أو ازدري بالذائد الحسية ، وقوى فيه الميل إلى المحمدة الباقية ،
 وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمل ، إن الفاضل يرى له في هذا العالم
 أجلين أقصرهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد
 من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم
 النوع الانساني ، وغاية هذا الأجل عندما يمحي أثره من ألواح النفوس وصفحات
 التاريخ ، فلروح الفاضلة وجودان : وجود في بدنها الخاص ، ووجود في
 جميع الأبدان ، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل ، ولاريب
 أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذاك الأجل القصير ،
 وذاك الوجود الكز^(١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير .

يطول بي الكلام فاقصر ، إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع
 في جيلة البشر ميلاً إلى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه ، ألم تر انطلاق الألسن
 في كل أمة بالثناء على كل من كان سبباً لها في مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ،
 أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال في فضيلة ، أو تقدم في علم أو صنعة ،
 ويرسمونه في الألواح ، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ، ويرفعون له الهياكل
 والتأثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا
 وينقرض العالم .

إذا جحدت الأمة حق العامل لها ، أو قصرت في استحسان عمله ، ضعفت
 الهمم ، وقل السعي في المصالح العامة ، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها ، فهبطت شؤون
 الأمة ، فافترقت وماتت .

(١) الكز : اليأس والمنقبض ، والمراد هنا مالا خير فيه .

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التميز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفًا ، ولم تنكر منكرًا ، سلبت آحادها الميل إلى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكايه بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالم لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت ، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فإنه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإيقادها ، وأما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم ، لا عقبي له إلا الموت والهلاك .

كيف لا تكون المدحة الحققة نعمة على النفوس الإنسانية ، يسعى إليها الأعلون من بني الإنسان ، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) ، وكيف لا تكون حقًا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ، كما سوغ لنبيه ذلك في قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) .

قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها ، تجد برهانًا قاطعًا على أن الأمة متى نجست قيم الأعمال العالية ، وازدرى فيها بشأن الفضيلة ، فقدت مابه قوامها ، وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس ، ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم .

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة ، التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعى في توحيد المسلمين ، ويسرنا أنا نرى عددها كل يوم في ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها إنه نعم المولى ونعم النصير .

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون ، فئة ترى الشرف في تشييد القصور ، والتعالى في البنان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلي بجلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالليك والباشا ، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية ، حتى أنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرًا ، ويرفع بناءً وزخرف بيتًا ، ويقم له حراساً من المالك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجدًا أبدياً وفخاراً سرمدياً ، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف ، وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسى برفيع الثياب ، ويتزين بأجل الحلى ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يداني فيها ، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه ومنهم ثالث يسهر ليلته ويقطع نهاره ، بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحاً ، وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وإن أفضت إلى خراب بلاده ، أو تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده أنه رفى الذروة من معنى الشرف .

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لا نفلها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن إدراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ، ماذا يجد من نفسه الباهى بقصوره ، وولداه وحوره ،

لا يحس من أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبي عنه ، وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء في تحصيله ، ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة .

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرد منه وخلى بنفسه إن لم يكن لداته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ، ألا يكون هو وعرة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور ، في ميدان واحد ، ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته ، على حال تجل ، أو كمال يجعل ، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام ، أو نزع عنه الوشاح ، يعود إلى منزلته من الاحتقار فإن نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به ، ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسماً ظاهراً لا يمس بواطن القلوب .

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر إذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً إليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعلة يمتقها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام أو اللقب عنواناً على ما اقترب كاسبه ، وعلامة على ما احترم .

انظر وتدبر ولا تخطئ ، فما أنت من الصواب ببعيد ، إن عثمان الغازی الذي لقبه أعداؤه بأسد (بلالونه) نال رتبة ومنح لقباً ، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته ، وجاهد في إعلاء كلمة دينه ، بما شهد له الأعداء والأصدقاء ، وأن بعض الأمراء في ديار إسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الإنجليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام

جيوش أعدائهم ، لافتتاح بلادهم ، حتى مكنوا الإنجليز من ديارهم ، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها ، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين ، أظن رجح النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلاً عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم ، ألا يعلمون أن الثياب المعلقة بالدم ، الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهيج ، هي التي حفظت للباسيها ذكراً حسناً لا ينقطع ، وأثراً مجيداً لا يمحي . إن الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد للملهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب ، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا محبهم في غيابات الحب ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن ، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود هم الذين سما ذكرهم إلى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء ، أظن أن الذين كانوا في الغرفات العاليسة ينظرون إلى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم ، ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخبز والدباج ، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم ، فارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاءوا إلى الدنيا ، ومتى انكشفوا عنها .

هل سمعنا أن أحداً يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ، نعم يقولون علم وعمل ، وأعطى وبذل ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ، وأباد وأبقى ، وما يشا كل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت ، إذا ذكر اسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولاً . أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهاوا وتنعموا أكان جميع ما ينالون من ذلك

بعد أن يسودوا ويفتحوا ويفلبوا ويأخذوا بالنواصي . خدع قوم بالأحلام وغرّبهم الأوهام ، ففرطوا في شئون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التي لا مسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصاً بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدّثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه ، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذرايرهم ، لطرخوا الرشاحات ، ونبدوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافاً وثقالاً لطلب الشرف الحقيقي .

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر ، وليس لدى شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالأنظار ، ويوجه إليه الخواطر والأفكار وجمال يروق حسنه في البصائر والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الإنساني عامة ، كإنقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق . وسؤدد سلق . أو إنهاء من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم . أو تحذير من شر يعم . أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول . أو جمع كلمة وتجديد رابطة أو إعادة قوة . وانتشال من ضعف . أو إيقاد حمية أو حضومة لنيرة .

من أتى عملاً من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن

الخصائص والأكواخ . ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب الفقر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربى والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدى إليه ضالة الألباب ، وتأنه الأفتدة ، تعرفه الشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه دارات القلوب المتطائرة إليه ولا تنفصل عنه ، له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستر حتى يبصر ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يرفعه إلى أعلى عليين ، حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) .

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالألسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله ، ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدوها شرفاً ، وحسبوها مجداً ، وقد بينها كما كشفتها الشرائع وآراءها المفلاء ، وإنما مثلهم مثل الجمل ينفر من رائحة الورد ، ويألف روائح القدر ، لا يبعد أن يستخر بالعامل الفاضل أناس لا خلاق لهم ، أو يقصده بالأضرار من لا ذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزأون ، وبمصالحهم يضررون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها ، ولا يسمعون بعد ذلك إلا الحمد لفارس الشجرة ، وحافظ الثمرة ، وإن كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فسرط منهم ندماً على الخطيئة ، وأسفاً على السيئة وألماً في قلوبهم تهيجه ذكرى ما قاموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم ، هكذا تمنح المنايا الألهية

— ١٠٣ —

هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حياً ، فإذا غابت شمسُه عن
أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات ،
وبدور منيرات ، نعم أنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ،
ولكنه قائم في الأئمة ، شاهد على الألسنة ، حي يرزق عند ربه ، ونعمة الحياة
حياته ، ولئلا هذا فليعمل العاملون .

الأمة وسلطة الحاكم المستبد

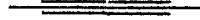
« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

إن الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مضالحها ، ولا أثر لإرادتها ، في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ، ومشيبته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير . فتعتورها السعادة والشقاء . ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر . ويتناولها العز والذل . وكل ما يمرض عليها من هذه الأحوال خيرا وشرا . فهو تابع لحال الحاكم فإن كان حاكما عالما حازما أصيل الرأي . على المهمة . رفيع المقصد قويم الطبع . ساس الأمة بسياسة العدل . ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة . وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع . والحقق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحلهم على التحلى بالزاياء الشريفة من الشجاعة والشهامة وأباء الضيم . والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكما جاهلا سيئ الطبع . سافل المهمة . شرها مغتلا جباناً . ضعيف الرأي . أحمق الجنان . خسيس النفس . معوج الطبيعة . أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل . وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل . وفتح أبواباً للعدوان . فيتغلب القوى على حقوق الضعيف . ويختل النظام . وتفسد الأخلاق وتخفص الكلمة . وينقلب اليأس فتتمد إليها أنظار الطامعين . وتضرب النول الفاتحة بمخالها في أحشاء الأمة .

عند ذلك إن كان في الأمة رفق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله

بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب المهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة . واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسرى فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرهم بمحضض المبودية . وعناء الذلة ووصمة المار بين الأمم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم . وما ربك بظلام للعبيد .



دعوة القرس إلى الاتحاد مع الأفغان

«إذا أراد الله بقرم خيراً جمع كلمهم»

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرة إهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيهاً لأفكار المسلمين ، واستلفتاً لعقولهم إلى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر ، خصوصاً جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة (طهران) وهذا التهج القويم مما نتم به الفائدة في جميع الأقطار الإسلامية ، فإن جميعها بمد بلاد العرب ، وإن اختلفت السنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب ، وكان بوجدنا أن يبرزوا أفكارنا بما تجود به قرائهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم إليه عقولهم العالية ، خصوصاً فيما يتعلق بالنقاء للوحدة الإسلامية ، وإحياء الرابطة المليية بين المسلمين ، لاسيما في الإتفاق بين الإيرانيين والأفغانين .

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجمان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم ، وقد زادها إرتباطاً إجتماعياً في الديانة الحقبة الإسلامية ، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الإختلاف الجزئي لا يدعو إلى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائق عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبب في تخالف عنيف .

ليس يبعد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه وكشف أسرارها ، وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة .

نعم البخارى ومسلم والنيسابورى والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود والبنغوى وأبو جعفر البلخى والكلينى وغيرهم ممن أنبتهم أراضى إيران ، أبو بكر الرازى الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازى ممن نشأوا فى طهران ، أبو حامد الغزالى حجة الإسلام ، وأبو اسحق الاسفرائينى ، والبيضاوى ، وخواجه نصير الدين الطوسى ، والأبهرى وعضد الملة والدين ، وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخر للمسلمين ، الفيلسوف الشهير أبو على بن سينا ، وشهاب الدين المقتول ، ومن على شاكلة من جبلوا من تراب فارس إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه ، وأبو على الفارسى ، والرضى ، ومنهم عبد القاهر الجرجانى ، مؤسس علوم البلاغة لبيان أعجاز القرآن ، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية ، وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروزابادى ، من إحدى بلدانهم ، الزنجشبرى ، والسكاكى ، وأبو الفرج الأصفهاني ، وبديع الزمان الهمداني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن ، وشيدوا معالم الدين ، كلهم من أرض فارس .

الطبرى أول المؤرخين ، والأصطخرى ، والقزوينى ، أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس ، الشبلى كان من نهاوند ، وأبو يزيد البسطامى كان من بسطام ، والأستاذ المروى وهو الأستاذ الحقيقى للشيخ محيى الدين بن العربى ، كان من هراة وكلها بلاد إيران .

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوى والآمدى ، والمرغينانى ، والسرخسى ، والسعد التفتازانى ، والسيد الشريف والآبيوردى ، وكلهم من أبناء فارس ، من أين كان القطب الشيرازى ، والصدر الشيرازى ، ورأس الحكمة فى التأخرين ميرباقر الداماد ، وميرفندر كسى وغيرهم كانوا من بلاد فارس ؟ أى فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أى مزية من الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبى ﷺ (لو كان العلم فى الثريا لثاله رجال من فارس) .

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم ، وانظروا إلى آثاركم في الاسلام ،
وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية ، أنتم بما سبق لكم
أحق الناس بالسعى في استرجاع ما كان لكم في فتوة الإسلام ، أنتم أجدر المسلمين
بوضع أساس للوحدة الإسلامية ، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم ،
أظن لا يخفى عليكم إن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين
والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً ، وحرزاً
منيعاً ، تقف دونه أقدام الطامعين ، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانجليز على الممالك
الهندية ، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين .

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب
ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين . حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم
من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة ، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي
والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة .

هذا أن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتوائق ، أحاط الأعداء
ببلادكم ، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تمكنه الفرصة من شن
الغارة على أطراف بلادكم ، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفونها
في غيره ، الإنجليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة
العسكرية ، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم .

الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شيبوبته أشد
الناس عداوة للإنجليز ، وبينه وبينهم حزازات لا تزول ، بل تقول إن عداوة الإنجليز
سارية في عروق الأفغانيين عموماً متميزة بدمائهم ، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة
الشاه وبين إمارة الأفغان ، لوجدت قوة إسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف
الإسلامية ، وينبثق فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة ، وتتجدد لهم آمال جلية ،
وتتنمش بذلك أرواح المؤمنين ، هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال

جيرانهم في المسألة المصرية ، وتحركت فيهم السواكن ، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم .

هذا عمل من أجل الأعمال وأجزائها فائدة ، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين ، وإن لذلك لأثراً عظيماً في النفوس خصوصاً إن كانت من أعلام العلماء الأعلام ، والمجاهدين الكرام .

العالم الإنساني عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجل الأثر في تهذيب الناس وتنقيف عقولهم ، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم ، فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعدوا ، وكتبوا ونشروا ، مع الوقوف عند الحدود الدينية ، والأصول الشرعية ، كان فضل الله كافلاً لهم النجاح .

أى فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ، ولا نشك أن شاه إيران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعى فيه ، إن البادئ بالعمل في هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً وينجي ثمرته في وقت قريب .

كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين في مذاهب الديانة الإسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ، ظهر الضعف في الأمة الألمانية ، وكثرت عليها عادات جيرانها ، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا ، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية ، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا وببدهم ميزان سياستها .

— ١١٠ —

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فوهنك) الأصفهانية ،
وصاحب جريدة « أطلاع » الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا
أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ، ويجعلوا له محلاً فسيحاً في جرائدهم ، وينشروها
في بلادهم ، وبلاد الأفغان ، باللسان الفارسي ، وهو لسان الطائفتين ، وما هي إلا أيام
ثم نرى علامئ النجاح إن شاء الله رب العالمين .

امتحانُ الله للمؤمنين

« آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون .
ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . »

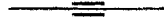
من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا . وللإيمان آثار ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل أن يتليهم أيهم أحسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس ، وغرت بها الأمانى ، وأنهم تأهون في أوهامهم يحسبون أنهم على شيء ، وهم خلو من كل شيء ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . إلا في غيه حتى يتليهم في دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة ، حاشا حكيمًا أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعد الحق ، أن يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر ، وظن ليس له أساس ، بالسعادة السرمدية ، والتعميم الأبدى ، إن المغتر يزعمه ، الحائر في ظلمات أوهامه الذى لا ينهل عليه الإيمان إحتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله ، ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد الإيمان يغلب كل هوى ، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواء . يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الإيمان ، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون .

صدق الله وصدقت كتبه ورسله إن للمقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والإرادات لا يمكن للمعتقدين أن يزيجوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين ، هكذا الإيمان في جميع شؤون وأطواره ، له خواص لا تفارقه ، وثرعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يحددون عقيدتهم ، نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً أبيضاً صافياً من كل غش ، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً . ما أصعب إبتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب .

نعم إن دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات ، وبذل الأموال وبيع الأرواح ، كل خطر فهو تهلكة ينبئ البعد عنها إلا في الإيمان ، فكل تهلكة فيه فهي نجاة ، وكل موت في المحاماة عن الإيمان فهو بقاء أبدي وكل شقاء في أداء حقوق الإيمان فهو سعادة سرمدية ، المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر ، وإن كان الشيطان يعده الفقر ، ليس في النفقة لأداء حق الإيمان تبذير ولو أتت على كل ما في أيدي المؤمنين ، إن للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة ، وأن له لذة وراء لذاتها ، وأن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الإيمان مس قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله .

إن الفرار من محنة الله في الإيمان مجلبة للخزي الأبدي . إن الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدى . لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق ، إن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، إن القيام بفرائض الإيمان مخوف بالمخاطر ، مكتنف بالمكاره . كيف لا وأول ما يوجب الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامره ، لن يكون المؤمن

مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه . أول إحساس يلم بنفس المؤمن أنه في هذه الدنيا عابر سبيل إلى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى . وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعي الايمان ، ولاداعي أرفع صوتاً وأين حجة من ندا الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تلمة ما دامت الرجلء تمشي والعين تنظر واليد تعمل . إن امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه .



ومن يزيل الشر فإله من همار

يوجد بين بنى البشر نفوس لم يرضها الاسلام ، ولم تقنع بالكفر ، تتلون
تلون الحرباء ، وتتشكل تشكّل الأغوال ، وتقلب قلب الدهر الخؤون ، لا ترضى
بحال ، ولا تنسج على منوال ، يضحكون وقت البكاء ، ويمرحون عند اشتداد اللأواء ،
ويكون لأوقات السرّة ، وبضجرون لسعة الرحمة ، مثلهم كمثل الحسك الثلث
الأضلاع ، كله شوك حيثما قلبته ، تراهم فى النهار مسلمين منقلبين بين مذاهب الإسلام
يصبحون سنيين وبقيلون شيعيين ويقضون طرف اليوم وهابيين ، فاذا جن الليل رأيتهم
دهريين أباحيين ، أولئك الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، منهم
أناس من أرباب الجرائد الساقطة فى الهند يريدون أن يتزلفوا للحكومة الهندية
الانجليزية بما فيه مضرة أوطانهم وأبناء الملة التى ولدوا فيها لينالوا من ظالمهم جائزة ما ،
أو ليكون لهم فى دوائرهم اسم ما ، فأخذوا يؤولون بعض فصول العروة الوثقى
ويحولونها عن وجهتها جهلاً ، أو عناداً ولوماً ، ويحرفون الكلم عن مواضعه على
حسب أهوائهم الخسيسة ، وطباعهم الخبيثة ؛ قاتلهم الله أنى يؤفكون ، أولئك قوم
عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأن يعرفون به فليس يهمننا أمرهم . وإنا نقدم الشكر
للجرائد المهمة الهندية الناهجة فى خدمة أوطانهم منهج الحق ، السالكة جادة الاعتدال
على ما تعنى به من ترجمة فصول العروة الوثقى إلى اللسان الهندى تعميماً للفائدة فى أبناء
أوطانها ، جزاها الله عن المسامين خيراً .

أسباب حفظ الملك

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها تسمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

أهلك الله شعباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بآناس آخرين ، حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثاً ، أمر الله عباده بالسير في الأرض (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليرى قضاة الحق وحكمه العدل ، فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة ، من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية إنقلاب الأمم ، وخاض في تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل ، يحكم حكماً لا يخالطه ريب ، بأنه ما حاق بالسوء بآمة وما نزل بها نازلة البلاء ، وما مسها الضر في شيء إلا وكانت هي الظالمة لنفسها ، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرمانه ، ونبتذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات .

كما أن للأغذية والأدوية ، واختلاف الفصول والأهوية ، أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ، ولكل طور من أطوار البشر ، أثر في الهيئة الاجتماعية ، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز

النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأُنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر ، أما تأثير أحوال بنى الانسان في هيئة اجماعهم ، فيسهل على سره لكل ذى إدراك ، إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة ، وجعل التنازع والتناوب علة للضعف ، وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهياً لوقوع المتنازعين في مغالب الماديات من الأمم ، فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصاباً بمرض القلب ، وعمى البصيرة ، أدرك سر أمر الله في قوله (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهيه في قوله (ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه ، والثقة بمن لا تنبئ الثقة به ، سبباً في اختلال الأمر وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا تجتمع معه جامعة حقيقية ، ولا تصله به رابطة صحيحة ، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ، ودفع الدار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وإن كان ملكاً ضاع ملكه أو أميراً بطل أمره والحوادث عاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى في قوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أتمه عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويمد لها مآلاً صالحاً في الآخرة . وهو إنسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه في شيء فانه سائر الأشياء ، فلو توغل في الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطر فيما أنعم الله عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرّم من منافعه ، وحل به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً ، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه ، ولمخرفه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته ، أو يوطنه في مدينته ، وهذه آثار الترفين في كل أمة تنطق بما لا يمجم إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كهفاء ، وإن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين ، لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ، ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

ما أوتي الإنسان من العلم إلا قليلاً ، لا يمكن لإنسان وحده أن يحيط بوجود المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقها ، خلق الإنسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهذا رابنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاء الله رعاية أمة ، وألقى إليه بزمام شعب مصالحة التامة تحت إرادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع ، لا ريب إن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سميه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سمة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المصوم

من الخطأ تعليماً وإرشاداً فقال (وشاورهم في الأمر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ، أى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) .

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو الميج لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لأطباع الطامعين ، وأن الحرص المودع في طباع البشر ، يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليندلو قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم ، فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيلاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم فوام الملك ، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان ، ورفع نوازل الفارات الأجنبية ، فلو فرطوا في إعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع ، أو تساهلوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ، بأى وجه كان ، ومن أى نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوى الأخطار .

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم ، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم ، وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر بإعداد القوة وكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة . على حسب ما يقتضيه الزمان ، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) .

إعطاء كل ذى حق حقه ، ووضع الأشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك ، وقوة السلطان ، وشييد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشقى نفوس الأمة من العلل ، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض ، وثبت بها نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى (إن الله يأمركم بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل

الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناء واضمحلاله ، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها ، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل ، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور ، والحكام أولى من توجه إليه الأوامر والنواهي في هذا الباب ، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد آتو خيراً كثيراً) هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير .

من سار في الأرض ، وتبع تواريح الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما يهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجيد ، إلا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الأجنبي ، أو استبداد في الرأي ، واستنكاف عن المشورة ، وإهمال في إعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الأشياء في غير مواضعها ، فيكون جور في الحكم ، واختلال في النظم ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحصل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي آلت بالممالك الإسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا إليه ، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملّة المحمدية ، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلفتهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائع ، ونبذت أوامره (فإذا هم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعدته الحق في قوله تعالى
(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) هذه
وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين ، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله
إليهم ، ووكل إلى ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحمله الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ،
وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم .



وزيد أن نمى على الذين استضعفوا في الأرض

﴿ ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾

للإنسان عقل سمى ، وفكر على ، وحدث قوى ، وبراعة في الاستدلال ، ومهارة في الاستنباط ، ومع هذا كله تراه في رأيه عليلاً ، ولا يصيب في مقاصده إلا قليلاً ، تشابه علل الحوادث في تنوعها يحول بين المرء وعلم الحوادث الآتية ، ويحجب عن نظره حادة الصواب ، فيخبط في خطاء ويخوض في عمه ، وتلتبس عليه المقدمات ، وتشبه النتائج ، فيختل قياس الاستنباط ، هذا ما يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكن ، أو إمكان مستحيل . لو أن حاذقاً بصيراً بفنون السياسة ، وخبيراً بأحوال الأمم ، ذهب إلى البلاد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة ، وساح في أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين ، وما هم فيه من الذلة وأحفاد (تيبوسلدان) وما أصابهم من الفقر والسكنة . وسلالة سلاطين (أوده) وما نزل بهم من الهوان ، ونوابي (كارناتك) وأمراء السند وما حل بهم من الصغار ، وتدبر شئون (مرتة) تلك القبيلة العظيمة القاطنة في (فونا) و (ستارة) وما حولها ، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات المظالم ، ثم لاحظ سلطة الإنجليز وتغلبهم على تلك البلاد وما أعدوه لقيهرها من الآلات الحربية ، والحصون القوية ، وما هم عليه من الخدق في الحيل والخدع السياسية . وما عليه رعاياهم من الضعف والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان ولو أتى من الفكر في لواحق هذه الأحوال على غاية جهده لحكم بناء على ما لديه من المقدمات ، وما يحضره من الأقيسة ، بأن أولئك الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين ، قد ضرب عليهم الدل الأبدى ، وسجلت عليهم المبودية السرمدية ، بل ربما ذهب به الوهم إلى الحكم عليهم بتحتم الفناء ولزوم الاضمحلال ، فإن الناظر في شئونهم ما كان يحضره إلا صولة

الإنجليز وسعة اقتدارهم ، وخضوع الهندين وشدة عجزهم ، ما كان يخطر في ذلك الوقت بخاطر أحد أن الأيام تأتي بهذا الحادث الجديد .

إن الروسية تقطع الفيافي من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعة أعلامها ضاربة في تلك البوادي ، زاحفة إلى حدود الهند ما كان يخطر في صدر أحد في تلك الأوقات أن حرص الإنجليز وطمعهم في الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضى قيام رجل السياسة (البرنس بسمارك) لجمع كلة الدول على مصادمتهم . ما كان يحوم في خيال أن قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية في أعلى السودان وبعد ارغامه للإنجليز مرات يحرك قلوب الهندين ويوقظ نائمهم ، ويشير الساكن من خواطرم ونهض الهمم ، ويحيي الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته في أرجاء الهند ، نعم ومن أين يكون للانسان علم هذه الحوادث وهي محجوبة بستار الغيب ، فهو معذور في أحكامه مقصور على أوهامه .

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الإنجليزية ، وقد تهيأت ضاربات الشر للوثبة عليها ، وليس لها حليف في أوروبا ، وأن استئثارها بمنافع الأمم ، وطمعها في الاختصاص بمصالح العالم ، أبعد عنها الأصدقاء . ونفر منها الأولياء ، فكانت هذه السقطة بهزة لتهوض الروسية وتقدمها إلى الحدود الهندية ، ومن مصلحة الدول في أوروبا خصوصاً دولة الألمان على ما يظهر من جرائدها الرسمية أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند ، فإن اندفاع السيل الروسى على تخوم الهند خير لأوروبا عموماً وألمانيا خصوصاً من انحداره إلى بعض المواقع الأوربية وأنجع في صيانة السلم الأوربى إذا جاء يوم التصادم بين روسيا والإنجليز على حدود الهند وما هو بعيد كان قضاء السوء على الجيش الإنجليزي في الصدمة الأولى فيما نظن لقلة عدده ، ولأن العدد الغالب فيه من الهندين الحرجة صدورهم المجروحة قلوبهم المترقين لفرصة تمكنهم من الخروج على حكامهم الظالمين . فإذا وقعت الهزيمة اشتملت نار الثورة في عموم

الهند ، وحيت سلطنة الإنجليز بأيدي الهندين .

ليس من الممكن للروسية أن تستولى على الأقطار الهندية استيلاء مطلقاً لأول وهلة فإن البلاد واسعة أطرافها شاسعة تحتاج في إدارتها والمحافظة عليها إلى ملايين من الناس يعسر عليها جلبهم من بلادها البعيدة ، نعم أن الإنجليز تسلطوا على الهند ولكن في أحقاب . فدولة الروسية ملجأة بحكم الضرورة إلى تشكيل ممالك في الهند يديرها رجال من العائلات الملكية القديمة من أولاد سلاطين المغول وذرية سيبو سلطان وأمراء السند و (أوده) و (كارناتك) والمرتين وغيرهم وتكتفي دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينها وبين تلك الممالك . وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الإسلامية المستقلة وبعض ممالك المسلمين وقد يكون من مصلحة دولة إيران وأمارة أفغانستان أن تتفقا مع الروسية اتفاقاً يفيد كلا من التحالفين .

إن الروسية ما جاءت إلى (مرو) لتهلك عساكرها في قفارها ولا يصدّها عن سيرها إخلاصها في محبة الإنجليز ولا ارتباطها معهم بعهد مع عليها أن لا عهد لهم . إنما جاءت لتفتح باب التجارة مع أترى قطر في الشرق وتهدم سلطان الإنجليز فيه فإن الأثرة الإنجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمة من الأمم . هذا عارض سوء على حكومة بريطانيا ولكنه سبحانه رحمة على الهندين بما انتقم الله لهم من عدوهم فبذلك فليفرحوا وليعد الأمراء أنفسهم لما أعد الله لهم من العزة بعد الذلة والحرية بعد العبودية والخلّاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً .

لا نظن ولن نظن أن يجد الإنجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوروبا ولا من دول المشرق ولا من الهندين ولا من صنف البشر لأنه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الإنجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضر .

إن حكومة الإنجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم وتعلم أن ما ينزل بها من المصائب في الهند لا يقتصر ضرره على حالها فيه ولكنه يزلزل جزائر بريطانيا فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند ، كيف لا يشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم في القوى العسكرية وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم واحتدامها غيظاً عليهم عجل الله لهم ما فيه خير الضعفاء .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أزفت هجمة الروسية على الهند وسير الدول في سياستها وحرصها على تقرير السلم في أوربا يمد الروس في مقاصدهم ويهيء لهم الأسباب ويقرب مدة الوصول . هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة إيران مع إمارة أفغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل ، أن الروسية وإن كانت تنصرها نفرة القلوب الهنديين من الإنجليز إلا أن في طريقها عقبات لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان . إن الهند بعيد من معسكرات الروس ودونه مسالك مجهولة وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها في شيء ، الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفي ضرورة للوقوف على أخلاقهم ومجاري ميلهم ومواقع أهوائهم ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانيين في أعمالهم الحربية والسلمية . ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمها في النفية وتشركهما في المنفعة وإلا كانا سداً محكماً دون أهم غاياتها .

كيف يمكن للروسية أن تخرق تلك الأجسام الآخذة بطريق الهند وهي مرابض الأسود . كيف تتوهم السلامة في معارها الضيقة إذا قصدت الاختصاص بالفريسة . إن الروسية لا تخفى عليها صعوبة الأمر ولا يغيب عنها إن كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقاباً ونالت فيها أعلى مجدد وأعظم فخار يعد من أعظم الأعمال ويحتاج لكثرة الأعوان والأنصار وليس بين يديها من يصح به الاستنصار

إلا دولة الفرس وحكومة الأفغان فليس من الحكمة في العمل أن تحتص دونها بشمراته خصوصاً وأنها لا تبتغى سوى فتح أبواب الهند للتجارة فعلى الأفغانين أن يرفنوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد ، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين ، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة . وهى أشرف الروابط « رابطة الدين الإسلامى » وليعلموا أن استمرارهم على التخالف في مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى إخوانه المسلمين من الهنديين . وعلى الفارسيين والأفغانين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعى في المذهب سبباً في خفض الكلمة الإسلامية ، وقطع الصلة الحقيقية ، فليس من العقل أن يقام من خلاف جزئى ، علة لاضمحلال الكل .

أظن أن قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذى جلب على كل منهما ما جلب . هذا الخلاف الفرعى بينهم استعمله بعض السياسيين في الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوءات ، وربما جنوا من غرسهم ثماراً آتية ، ولكنه الآن لا يشمر إلا الدمار والبوار ، وهذا مما لا أخاله يخفى على عاقل . لا يجوز للأفغانين في هذا الوقت أن يقفوا عند هذا الخلاف الفرعى فليجوزوه إلى الوحدة الأصلية فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب ، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين ، هذا وقت التأخى ، وهذه فرصة اللثام ، ليس للأفغانين عذر ، ولا لتعلمه عندهم محل ، لا سيما وقد تولى الصدارة في الدولة الفارسية رجل عظيم القدر رفيع الشأن ، واسع العرفان ، لا تحجبه شؤون الكثرة ، عن ذات الوحدة ، ولا تقف به أطوار التلوين ، دون منازل التمكين ، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع ، يتجلى له الواحد في مراتب الكثير ، وتنجلي له حقيقة الأحدية في المنازل العددية ، فالاتحاد مشريه ، والائتلاف مذهبه ، وعندى أنه الأب الرحيم لكل إيراني بدون استثناء ، يسمى

لجمع كلمتهم بلا ملاحظة اختلاف في المذهب ، ولا تفارق في الفروع ، وإنما يراعى
الجامعة الحقّة ، فعلى الأفغانين أن يمدوا سواعدهم في هذه الأوقات لمحالفة
إخوانهم ولا يضيعوا هذه الفرصة ، وعلى القبيلين أن يجعلوا وفاقهم سياجاً لأوطانهم ،
وعدة لمكافحة أعدائهم ، ومنبعاً فياضاً لخير بلادهم ، فينالوا شرفاً رفيعاً ، ويورثوا
أعقابهم مجداً مخلداً .

سُنَنُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ

وَتَطْبِيقُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مِنْهَا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ .

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ، هل كذب الله رسله ، هل ودع أنبياءه وقلامهم ، هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ، نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات اليبينات لغواً وعبثاً ، هل افترت عليه رسله كذباً ، هل اختلقوا عليه إفكاً ، هل خاطب الله عبده برمز لا يفهمونها ، وأشارات لا يدركونها ، هل دعاهم إليه بما لا يعقلون ، نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذى عوج ، وفصل فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء ، تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، هو الصادق في وعده ووعيده ، ما اتخذ رسولا كذاباً ، ولا أتى شيئاً عبثاً ، وما هداها إلا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ، ويقول (والله العزة لرسوله وللمؤمنين ، وقال وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ، وقال (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً ، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل ، إلا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه ، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده ، وعدّها

بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدّها إلى يوم القيامة ، وما جعل لمجدّها أمداً ، ولا لمزتها حدّاً .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها إلى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكت لمظمتها عوالى الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحيّر في سببه كل عقل ، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدّهم بنصر من عنده هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من عنده ، هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الأسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلمهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر في هممتها اختلاف الأهوية ، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ، ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة ، كانت تطرق ديار القوم فيجفرون أمرها ، ويستهيئون بها ، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تززع أركان تلك الدول العظيمة ، وتمحو أسماءها من لوح المجد ، وما كان يخلج بصدر أن هذه المعصاة الصغيرة ، تقهر تلك الأمم الكبيرة ، وتمكن في نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها ، لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها ، ما لم تنله أمة سواها ، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا ، وسعادة في الآخرة .

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمئة مليون من النفوس ، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسي إلى أحشاء بلاد الصين ، تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رجة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوقة ، تتغلب الأجانب على

شعوب هذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في مائة ، ويمسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم .

هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد ، وهن صاغرات ، استبقاء لحياتهن ، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في الترف إلى تلك الدول الأجنبية ويا للمصيبة ويا للرزية .

أليس هذا بخطب جلل ، أليس هذا بيلاء نزل ، ما سبب هذا المهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالوعود الإلهية ، معاذ الله هل نستئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ، ونعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا ، حاشاه سبحانه ، لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سناً متبعة ، ثم قال : (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ، ثم لعدوهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظام المنكرات ، خارت

عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

هكذا جمل الله بقاء الأمم ونمائها في التخلي بالفضائل التي أشرنا إليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها ، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى في الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال ، علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ، هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح ، هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه وبذل في أمرنا سنته ، حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً ، فبدل عزنا بالذل ، وسمونا بالأنحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية ، نبذنا أوامر الله ظهرياً ، وتحاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه ، كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يفتصبون ديارنا ، ويستذلونا أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا ، ولا نرى في أحد منا حراكاً .

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان ، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلا ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما يبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا .

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة

ولا يمس سواد القلوب ، هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف ، فإن أصحابهم خير إطمأنوا به ، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ، هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ، ولا يحص ما في قلوبهم ، ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته ، لا يخلون في سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ، فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الإيمان ، لا بماله ولا بروحه .

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً ، ويقولون في أقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل ، كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عنده ، متمتع بالسعادة الأبدية ، في نعمة من الله ورضوان ، كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله الله من خصائص الإيمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا ، ياسبحان الله ، أن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء ، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً ، فما لنا نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية ، صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والتسمون بسمه الإيمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نفرة ، ولا تستفرهم للدفاع عنه حمية ، ألا يا أهل القرآن

لستم على شيء حتي تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي ،
وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم ، مع مراعاة الحكمة في العمل ، كما
كان سلفكم الصالح ، ألا يأهل القرآن هذا كتابكم فافقرأوا منه (فإذا أزلت سورة
حكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي
عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ، نزلت في وصف من
لا إيمان لهم ، هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة .
أو غر كثيرين من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لغيرهم
أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

أقول ولا أخشى نكيراً ، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول
أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان ، لا يراعى في ذلك عذراً ولا تلعاً ، وكل
اعتذار في العقود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله .

مع هذا كله نقول أن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا
به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول .
ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ،
وأحيوا روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستنلفتهم إلى عهد
الله الذي لا يخلف ، لرأيت الحق يسمو ، والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهّر الأبصار ،
وأعمالاً تحار فيها الأفكار ، وأن الحركة التي نحسبها من نفوس المسلمين
في أغلب الأقطار هذه الأيام ، تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق
يجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون
العمل قريباً ، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ،

— ١٣٤ —

صحت لهم الأوبة ، ولصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل
علي المؤمنين ، فلي العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير ، وهو الخير كله :
جمع كلمة المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل (ومن يهد
الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) .

* * *

الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا
نضل ونشقى ﴾ .

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطوراً يكون ممثلاً للمسرات ، حاكياً للمنعشات ، وهو فى جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة ،
فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قوياً ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكاً ،
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوماً ، والمعدوم
موجوداً ، الواهم فى كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ،
لا يدرك ماذا أدركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلبس الروح الإنسانية وهى
فى ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلمت على الإرادات ،
فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون فى مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ،
ولا يستقيمون على طريق .

كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات ، وذلك
فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة ، واختلاف الأهواء ، وحجبت
بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون
كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الإختراع سحراً أو كرامة ، فأنهز الإنجليز تلك
الفرصة وأندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادموها سكانه

إلا بيمض غرائب الصنعة الأوربية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام ، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حياثل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب الساكنين وأذهلهم عما في أيديهم ، بل أخذهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ، فسلبوا أموالهم ، وانزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفت بما ملكت ، واليوم تراها حاکمة على أقطار واسمة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الأقطار ، متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزر من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالرة ، وقد ظهر هذا الأمر على الأمة الإنجليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لأية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الإنجليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء .

ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرق أن الإنجليز على ما كانوا عليه في ماضى زمانهم ، فثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبماً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهماً وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول إلى غايته وربما صادف مهلكة في ضلالة ومتلفة في غيه ، بل لا نخطئ إن قلنا أن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى إنجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، مترتبة على عرش هذه العظمة الخيالية ، يحس الإنجليز بضعف قوتهم

فيجتهدون دائماً في ستره ولا ستار أكشف من الوهم ، ولهذا زاهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليشيروا بالضوضاء هواجس الأوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتغشى بصائر المستبصرين ، فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا قليل من الإلتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز .

ذهب الإنجليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال في ميدان الأراضي الهندية الواسعة فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدتهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد أو طيب قلوبهم ، فالت النفوس إلى الإنجليز إغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالبة قلوبهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن « الإنجليز » فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم إننا نرى للإنجليز الآن في الهند والهند الصينية ، وبورما سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز ، ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبعوضة إلا خمسون ألف جندي إنجليزي ، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها ، ما لو جمعت قواها لبلغت أكثر من ثلاثمائة ألف جندي ، هذا فضلاً عن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الإنجليزية

وزال استقلالها بالمرّة ، فلولاً الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائرة القوة في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الإنجليز في الحالة الجائرة لرأوا موئلاً الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم ، لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ، وقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها . ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبقى لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين ، لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الإنجليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة أن دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين

القتال ، ويتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها في قوة دولة إنجلترا ، فإنما هي في الحقيقة قوة لأعبيائها عليها ، وهي في ارتقَاب الفرص لخلق طاعتها ، فتمى ارتبكت دولة إنجلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانجليز خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبله لهم وملاذاً يلجأون إليه وهم أول قوم حريين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها ، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحركات الانجليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعتديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية .

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانِب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة من الريب . والقسم الأول غلخ إلى الفشل ، فدخل الانجليز بالحرب حقيقة وإنما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس ، صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاماً ، فأنحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانجليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدن توفيق باشا وينقذونه من التآثرين عليه ، فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الانجليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانجليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل إليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ،

ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم ، ولكن الوهم يحسم الخافة ويكبح العزيمة . إن أهالي مصر كأنهم ذهلوأ عن الأسباب التي مكنت الإنجليز من بلادهم ، كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانجليز ، ثم تغلبت عليهم القوة الانجليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الانجليز مادخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب . إن الذين كانوا من مدة سنتين سبباً في تغلب العساكر الانجليزية وحلولها في وادى النيل وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا . وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفاقاً . هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي . ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانجليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها . ألا قاتل الله الوهم .

إن للانجليز قوة حربية بحرية لا تنكر ، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن . لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابل إلى أبد الآبدين . إذا كان الأهالي في داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس في الأمر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغريين فعملوا من هم الانجليز .. ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء . صوت عال وشبح بال . قامت الدول على معارضتهم لعلها أن الانجليز صاروا للأمم كالودودة الوحيدة على

— ١٤١ —

ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بق أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمرهم ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى ، ولا يستبدلوا سيّداً أجنبياً بسيّد آخر . اللهم ارفع عنا حجب الأوهام وهبي لنا الرشد في أمورنا ، واحفظنا من الغواية وأهدنا إلى خير نهاية .

* * *

الجَبِيتُ

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾
 قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملائكم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال
 تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر إليها ضعفاء العقول ، فيعدونها معجزات ،
 وإن لم تكن فى أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وإن لم تكن من
 تحدى الرسالات ، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب ،
 وموافقة الطوالع ، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف ، وقذفات الاتفاق ،
 عجراً عن إدراك الأسباب ، وفهم الصواب ، وأما من أتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ،
 فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل
 مكسوب بعمل ، وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة
 روحانية ، يكون بهما مظهرًا لمجائب الأمور ، وبهذه القدرة وتلك الموهبة مناط
 التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب
 عند واسع الكرم سريع الحساب .

إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح ، رأى فى تشابه القوى الانسانية ، وتماثل
 الفطرة البشرية ، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر
 السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل إنسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً
 لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق . هنا وقفة
 الحيرة .. استعداد فطرى للكمال فى خلقه الانسان ، ميل كل فى كل فرد لأن ينفرد

بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى ، لا يخيب طالباً ، ولا يرد سائلاً ، إذا صدق القاصد في قصده ، وأخلص السالك في جده ، فما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزه إلى الميل الغريزي ، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعدته ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعرف بيوم العرض الأكبر ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ، ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل . إذا ردت المسببات إلى أسبابها ، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هي أم العلل . ومنشأ يقرن به كل خلل « الجبن » .

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها . هو الذى قطع روابط الأمم فخل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم . وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم . هو الذى يفلق أبواب الخير في وجوه الطالبين . ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين . يسهل على النفوس احتمال الذلة . ويخفف عليها مضض المسكنة . ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان . يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليّة . يرى الجبان وعر المذلات سهلاً . وشظف العيش في المسكنات رفهاً ونعماً .

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء . ولا ترى إلا حباء . ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس

لا يلم به إلا ألم اللاؤاء . هذه حياته : أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء . وهو يظن أنه أدرك البغية . وحصل النية .

ما هو الجبن ؟ إنخزال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت ، الموت مآل كل حي ومصير كل ذى روح ، ليس للموت وقت يعرف ، ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة ، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم ، والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله ، نعم نفعل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقعياً للحياة — وهو الشجاعة والاقدام — سبباً في الفناء ، يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً ، ويتوهم أن في كل خطوة خطراً ، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم ، وما ذلوا من المصاعب في سيرهم ، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان . ووساوس شياطين . غشيتة فأدهشته . وعن سبيل الله صدته . ومن كل خير حرمته .

الجبن فح تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام ، لتفتال به نفوس الانسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب . هو حباله الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء إلا وهو مبدأ ، ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعنه وموجبه . ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ، ومنكس الأعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ، أليس هو الجبن ؟

ماذا يبسط أيدي الأدياء لديثة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الإنسان ، الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤمنون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه ، يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتنحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) . . . الإقدام في سبيل الحق ، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أو سمة يتسم بها المؤمنون ، لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الأيدي ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق ، والمدل الإلهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقدده ، لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد ، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام ، وإن عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه ، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلى إحدى الحسينين ، إما أن يعيش سيدياً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرباً سعيداً ، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ، ويلتحق بالكروبيين والملائكة القربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ،
 فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان في شيء . كل آية
 من القرآن تشهد على الجبان بكسبه في دعوى الإيمان ، لهذا تؤمل من ورثة الأنبياء
 أن يصدعوا بالحق ، ويذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام
 لإعلاء كلمته ، والنهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك ، وفي
 الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف والنهي عن هذا المنكر)
 زمناً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين
 رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه
 مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر ، فالؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن
 في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه ، ويسير من التذكير ،
 فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله
 مقاماً محموداً .

زلزال الانجليز في السودان

نقلت الجرائد الإنجليزية برقية وردت إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كرت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصله : إن الألسن تلهج في مدينة دونقلا وفيها بين الجيوش الإنجليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف إليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لا بد أن يلافوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الإضراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصاً عساكر مدير دونقلا خوفاً وفزعاً . ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا إليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين في تلك الأطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الإنجليز في منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة الآبسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانجليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والإمكان قِياماً بما يوجب الدين والوطن ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه بل توجب في مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذى عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقى من الأرواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها ما يخطف بروقه الظاهر ، لب الألباب ويذهب بهوة الصوري بنور الأبصار ، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال . تلك أرواح الأجانب ونفوس الأبعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغفطون الحقوق ويفسدون الأخلاق وينزلون النفوس . المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكاتف في دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى

صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مزايا التواريخ عند ما يمر النظر إليها على تمثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وضيغت لهم هياكل من اللعن الأبدى مسربة بالخرزى والعار السرمدي هكذا يعرف الشيء بضده .

لسنا نعى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بضمن بخس أو بغير بخس (وكل من تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذاك هو الخائن في أى لباس ظهر وعلى أى وجه انقلب . القادر على فكر يديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن من لم يستطع عملاً وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم إلى الغد ، وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين وممقوت في نظر العالم أجمعين . ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الأوطان » يأتى الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار . محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ودرن في صفحة الإمكان مكتنفة باللعنة مخوفة بالقت إلى أبد الأبدى . لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما بدانت في الإدراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا .

كنا على يقين ولا نزال عليه . إن الذات الشاهانية وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين هى أجدر الناس بالاتفات إلى حركة الأعداء في البلاد الإسلامية وهى لا تألو جهداً في تعويق سيرهم وإجباط أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الأُمم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية وأنه لخرج

الصدر من أعمال الحكومة الإنجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والإسلامية المصرية بلغت غشمة الإنجليز إلى حد لا يحتمل ، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور وتفيض بالغليظ منها القلوب ونيل منها دروع الصبر وتذوب سابغات الجلد .

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً ، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة ، ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة ، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمات من خدمة أوطانكم ، وأنتم أحق بها وطالما دافعت عنها في الأيام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوي الداخلية ، يطلب استالة القلوب إليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف به إذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين ، ماذا ترجون من مطاولته وماذا تؤملون في إرخاء العنان له ، وماذا تهابون في معارضته والأخذ على يده . أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم أنه أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأقر آلافا مؤلفة من المائلات ، ووهب من بلادكم لأعدائكم وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فالغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم ، (كالأوقاف) وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها . فإذا تخشون منه ، هل تخشون أن تنقص أموالكم ، وثمرات كسبكم إذا أدبتم حقوق وطنكم ، وحاربتهم عدوكم ، ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الأموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات ، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً وأوسعكم خراباً ودماراً ، وإن رسخت قدم العدو بينكم لا يبق منكم غنى إلا افتقر ، ولا عظيم إلا احتقر ، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقروا حالكم في تواريخ من سبقكم . هل تخشون إذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطر على حياتكم . يمكن أن

يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم ، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة . الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبتة بنتائج أعماله ومحاسبتها على عواقب تصرفه ، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية . أنه مسرع في سيره منطلق إلى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً ، ومقراً أميناً ، ولا يخفاكم أن المسرع في جريه يكبه علي وجهه عثرة في مدرة ، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة ، أو مؤاخذه طفيفة ، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم ، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماء سراب ، وسحابه جهام ، وسيفه كهام ، وأوقفتم سيره واستعلتكم بقوتكم على ضعفه ، وأقمتم للدول حجة قوية في كبجه ورد جهاحه ، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة ، ونزع قوة العمل من يد استبداده ، وتحويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة . أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لقره ، ويقوى على أمره ، ويدوخ السودان ، ويحيط بجيوشه أعلى البلاد المصرية « لا أناله الله ذلك » صعب بعد هذا تعريفه بقدره ، وإيقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول في معارضته ، إن أفوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة وإصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر فلو تمكن عدوكم بسكونكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم وأصبحت دماءكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جورره .

في إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في إمكانه أن يضربكم ، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحت في عجز عن مقاومته وأصبح وفي يده عصي الجبروت لإذلالكم .

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم ، أليس

يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة ، ويهانون ويدللون وكثير منهم يقتلون ، أن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم في أبدانكم ويفعل بإخوانكم في ديار غير دياركم ، ثم لا يبقى على أحد منكم . فأنتم اليوم أصحاب أمركم وهذا قصده إليكم وفي إمكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل ، بدون ضرر عاجل فإن شئتم فارحموا أنفسكم ، وإلا فأنتم ساقطون ، فيما منه تخافون .

يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محب حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه ، تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالإباء ، لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم . ألسنتم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم ، ألسنتم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ، ألسنتم تنتسبون إلى أولئك الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ، ألسنتم تدعون أنكم أشرف عنصرأ وأكرم جوهرأ فإن قتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعدائكم ، إن كان الموت فهم يخشونه ، إن كان الخسار فهم يرهبونهم إنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون .

لأى شئ يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له ولأى سبب لا تقدمون بشئ من شهامتكم في حفظ ما هو لكم إن هذا لشئ عجاب ، هل بذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة إلى معالى الأمور . إنما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ، فإن لم يستنفذكم طلب العلا وسمو الهمم فليستنفذكم تصور الشقاء المنتظر ، الذى رأيتم بوادره ونموذ بالله أن تدرككم أواخره . استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لا يزال دينكم يترب منكم حية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه .

إن صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة
لإعلاء كلمة الحق وإيقاده من مغالب أعدائه وأن الله في عزة جبروته لن يدعكم على
ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين ، يا أيها الذين آمنوا كونوا
أنصار الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا
وأقم الأعلان إن كنتم مؤمنين .



باب التنف والأخبار

سياسة إنجلترا في الشرق

هلع على ما في البيت فهلوع لإغلاق الباب ، فأنخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه .

هذا شأن دولة بريطانيا في الهند ، وقناة السويس ، قصارى بغيها أن تكون في أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية ، في مسألة أرباب الولاية عليه ، فيقونه بأرواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الأبد .

إلا أن جيشان الأوهام ، وموحشات الأحلام ، دفعها لمباشرة حمايته بنفسها ، فإذا الأمر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم .

أرادت دولة إنجلترا بعد تبوئها أرض مصر ، أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بإنجليزية ، وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، وإقرار الراحة بينهم ، وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت ، لولا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائها على الأفطار الهندية ، وإنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين الكائنين ، فلا الإحسان الإنجليزي يمكن تنميته ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنوله ، وخطر الأمرين غير يسير .

ظهرت دعوى المهدوية في السودان واشتد أزر القأم بها بمسارعة الإنجليز إلى التداخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد ما أراق دماء

غزيرة ، ودبت روح دعوته إلى سواحل البحر الأحمر ، وحدود مصر الطبيعية ، وأمال القلوب إليه نفرتها من السلطة الإنجليزية .

يقرب من الظن أن نفثاته مزجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس ، أو قاربت وأن هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على أمتهانه ، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب ، وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء ، وعند ذلك يمسى باب الهند بين ألسنة النيران من جهتين بل من ثلاث جهات ، أيبعد عند العقل وبريطانيا لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت ، إن الخطر اليوم أشد مما اهتمت بدفعه سابقاً ، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة ؟

أرسلت جوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين ورقية محمد أحمد الحمداني . السودانيون لم تلتئم جراحتهم من ظلم جوردون أيام كان حاكماً مستبداً عليهم ، وفي علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية ، فقد طلب وهو فيهم قسماً من السويس لنشر المذهب البروتستنتي بين مسلميهم ، فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحض صدور العرب من الضغينة الدينية والدينية ، بعد ما رسخت أعواماً ويمحوها في بضعة أيام ، وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد ، بعد ما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كوردفان ، أو هل يقنع صاحب هذه الدعوى بمثل هذا اللقب بعد ما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد ، بدون إذن جوردون . قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهديّة وموقعها من قلوب المسلمين ، ويكفي لكشف بعض ما في الغيب ما اتفقت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية وأثبتته المحابرات الرسمية من إخفاق جوردون في سعيه كما تراه في غير هذا المقام .

سأقت خمسة آلاف وعلى بعض الرويات أربعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر باشا وثار ضباطه من الإنجليز (أما هكس باشا وضباط جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولا ثار)

وغلب هذا الجيش المدرب الكامل العدة الشاكي السلاح من أجود طرز ثلاثة آلاف من عراة العرب السودانيين (بمعنى أنه قتل منهم ثمانمائة بدوى). والقبائل على عصبيتها لم تحين بعد . هل بهذا تدفع الفوائل . أيطن ذو عقل أن فاتحاً فتك بعشرة آلاف جندى مرة وألفين وخمسمائة مرة أخرى جميعها تحت أمرة مشاهير من قواد جيش إنجلترا يخور عزمه لانهزام شردمة من المنتسبين ، إليه وهل يؤثر هذا وهنا في اعتقاد المدعين لدعوته . سبحان الله ؟ كان لغلبة هذا الجيش رجة في إنجلترا وخيل لحكومتها أنها نجاح في العمل وربما نشأ هذا الخيال من التهنئات التي وردت إليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الألمانى .

أقول وحق ما أقول أن الضيرم شديد فإن ترك امتد وأخاف الدانية والقاصية وليس في إمكان جوردون ولا أحذق سياسى في إنجلترا أن يخذل لهبه والمناوشات البريطانية تحضره فزيده إشتعالا وإنما يتيسر إطفأؤه لأولى العزم من العثمانيين والعصرين لكونهم على شاكلة صاحب الدعاوى ويدهم عنانها .

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا في حفظ باب الهند بعرض العثمانيين وخضوع المصريين مع القوة البريطانية وإلتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية . ماذا يفيدهم سد الباب إذا وهى الأساس فتداعت الجدران وخر السقف ، إن قبائل التركان في (مرو) مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس إختياراً بعد ما كانوا مستقلين في أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم فأى مانع يمنع تركان سرخس وهم سنيون من الإقتداء بهم تخلصاً من حكومة فارس المخالفة لهم في المذهب فإن تم هذا فتح للروس طريق فراه إلى قازين إلى سجستان وأى قوة تصدها عن طمعها وإن حلت في سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند .

ان قبائل أذربك من سكان (ميمنة) و (أندخو) و (شيورغان) و (سرول) وسائر بلاد بلخ إلى (وبليان) في ضجر من الحكومة الأفغانية أفلا يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركان فإن غفلوا فتحت لهم روسيا باباً من الملاحظة

وذهبت بهم في طرق من سياسة اللين لتشويقهم إلى الدخول في حمايتها والتملص من نير الأفغانيين وليس في قوة حكومة الأفغان كبجهم إن أرادوا لضعفها فيهم .

إن قبائل هزارة من الشيعة الساكنين في الجبال الممتدة من هراة إلى كابول ينتحلون الأسباب للخروج على حكومة الأفغان نفرة من سلطة السنيين وقد كانوا في الحرب الأخيرة بين الإنجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز فهو لا بعد ما يرون جيرانهم إنحازوا إلى الروس أفلا ينزعون إلى مجاراتهم خصوصاً إذا لعت لهم بوارق الوعود الروسية . هذا كله يكون فتشرف روسيا بعده على الميدان التسع الممتد من هراة إلى قندهار إلى غزنة بل إلى كابل من جهات كثيرة . فهل بعد هذا يبقى للهند سياج وهل يمكن أن يقام في وجه روسيا مانع من السير إليه وهل ينفع عند ذلك الوقوف على نافذتي (قناة السويس) .

أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك المواقع الإيقاع بين قبائل الأفغان وبين المرشحين للامارة ويتخذون منهم أحزاباً كما فعلوا بخوانين القرم .

تقربت دولة روسيا إلى المانيا والنمسا في هذه الأيام وانعقدت بينهم معاهدة على حفظ السلم في أوروبا إلى زمن غير قصير ولم يكن هذا التقرب مبنياً على ما يخيله السياسيون في كل دولة على حسب مصالحهم وإنما رأيت روسيا أن الوقت وقت العمل في آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوروبية لتتفرغ لإجراء مقاصدها في أطراف الهند وأن الفرع من هذا الانتقال الفجائي قد ظهر أثره في جميع الجرائد الإنجليزية .

ليت الإنجليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلهمهم من الخطر

القريب ولم يقعوا في شرك المسألة المصرية . فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما
 صرفاً فلما طرقتها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد ثم هم في عجز عن علاجها
 وأننا نظن كما يزعم الوزراء العثمانيون أن الانجليز ليس في إمكانهم أن يكسروا
 سورتها بأنفسهم ولا بد لهم من يوم يلجأون فيه إلى ذوى العزيمة من العثمانيين
 والمصريين وإلى الله عاقبة الأمور .

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الأول من القرن الماضي (الهجرى) تعد من نوع حكومة الأشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفاً في أغلب أنحاء المسكونة .

ثم أعجب الدهر فيها بفرائبه بعد ما فوضت أمورها لمحمد على باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل بسيط من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء وعد هذا التقدم السريع من عجائب الأمور (١) .

هل كان في حسابان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملى لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل إليه .

تقدمت بعد ذلك فيها الزراعة تقدماً غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحائها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد ، وخطوط

(١) ترى ماذا كان يقول الأفاضل لو بحث من قبره ليتحدث عن المآسى التي خلفها خلفاء محمد على باشا وما كان من مهازل بلاط فاروق الأول ! !

التلغراف ، وتعارفت أهااليها ، واثتلف الجنوبي بالشمالى ، والشرقى بالغربى ، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا فى المعاملات ، وتشاركوا فى المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ما جالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة ، وامت بقاعها وطفجت ، ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى أراضى البلاد الغربية ، وتوارد إليها الغرباء ، وقصاد الكسب ، من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا أخفق فيها سمى ساع ، فأثرى فى مغانيها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد إليها يمدح أهلاً خيراً من أهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن .

وساد بها الأمن وامت الراحة ، وضارعت فى كل أحوالها نوع ماعليه الممالك الأوروبية العظيمة ، وكان التأمّل فى سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع ، أن عاصمتها لا بد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدينة لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقرراً فى أنفوس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها وهو أملهم الكبير ، كلما ألم خطب أو عرض خطر ، غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحتة فمتر العاقل ، وفرط المالك وأعثر المعجب ، وتهور النبي ، وخار الأفين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا حواشى طوامير الأوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألحت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتفضت منها أصول

على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس أبواب وأنساب ، بين طبقات الناس ،
دهاة سياسة ، وطلاب غايات ، فنفرق اتصال ، وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة
الوازعة ، ونبتت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن .

قضاء حل بتلك البلاد ، فاحتاجت في إعادة شأنها الأول إلى رأى قويم ،
وعزم ثابت ، ووازع قوى ، تدين لسطوته النفوس ، وإن من ذوى الحقوق فيها
من يجمع هذه الأوصاف ، وله من القلوب السكانة العليا ، وكان يسهل عليه القيام
بما يعهد إليه ، لكن تحكم طمع وأخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة ، واشتدت
الحاجة .

أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال ، أوطنت أن آن التقدم بعض
خطوات قد آن ، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها ،
فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتفريم وما شاكل
ذلك مما لا حاجة لبنيانه ، وعم بعض أنواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد
إلا مسه ضرره ، ما خلا أشخاصاً قلائل وهذه المهربات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض
من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها
لنظام البلاد .

أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا ، وما وضع نظام في البلاد
ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من
الحقوق الأوروبية ، اليوم رزئت بالنقص في الإيراد ، وحملت من تعويضات متالف
الحرب أربعة ملايين من الجنهات ، ورميت بنفقات جيش الحلال ، وحرب
السودان ، ومصاريف اخلائه ، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل ،
فاختلت الموازين ، وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها
الحاضرة .

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى ، وهو قوة البلاد وبه فخارها ، وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم جنود مصر ، وقصر الجهد عن محاربة محمد على باشا ، وإبراهيم باشا ، اللذين دوا كثرًا من الأقطار بجنود مصرية .

إن كان كل ما تقدم من الشدائد والخطوب وزيادة النفقات وإلغاء العساكر الوطنية إنما يتخذ سبيلا لراحة الأهالى ، وتحسين أحوالها فنعمت الوسائل إذا أدت إلى غايتها ، لكن أين السبيل من المقصد وأين هذه المعدات من تلك الغايات .

وأسفًا على حالة الأهالى بعد هذا ، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة ، وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائليهم ، وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة ، ألم يمس هؤلاء ضر الفقر ، ألم يعرضهم ناب الجوع ، ألم يهتك مستورهم ، ألم يضق ذرعهم . ألم يصبحوا كساء بسرائيل الكآبة . عراة من أكسية المسرة . إن لم يكن كل هذا فقد كان جله . وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفريقية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون . حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنجلىزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية .

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال . وظنوا أن لا تبعه عليهم فيما يعملون فانطلق ماغل من أيديهم . وحكموا أهواءهم فى أداء وظائفهم . فخطوا وخطوا . أفعمت السجون بأعيان الرعية . ورفعت أذئاب الكراييج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التغذية وامتدت مخالب الجور لتجريدتهم من بقايا أموالهم . وثمرات كسبهم . وحدث

نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم . ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات . وتمطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة . فإذا الفلاح لا يبالى بعمدته والعمدة لا يبالى بمأمور مركزه والمأمور لا يحترم مديره . وسرى التهاون إلى الدوائر العليا . وعاد الأمر لقوة الساعد . وكثرة الأعوان فعانت اللصوص . وكثر قطع الطرق . في كل ناحية . وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية . فوقفت حركة الأعمال العمومية وبدت للناس شؤون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم . وامتنع الدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين . فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشفاقهم من الضياع على رؤوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة في رأس المال من قبيل آخر . واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية فالحراثة بعد ما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية . ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التي ألفوها . فعميت عليهم السبل . وضائق بهم المسالك . ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلاً . ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها . وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد على باشا . ومطالب الحكومة في ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ في اقتضاءها . فعم العسر وأحاط الضنك . وتقوضت آلاف من البيوت التجارية . وأتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة . وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهباً وسلباً . باع الفلاح أثاث بيته بل وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه ، بعد ما

ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ، ولم ينل من غضاره
ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح
لحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم .

وزاد الويل بحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وإن ضعفت ، واتباع
بواطل التهم وإن بعدت ، أو استحات ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ،
وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه
شرطى يقوده إلى السجن ، أو يقتضى منه فداً ، وكل معروف الاسم من المصريين
ينتظر فى كل خطوة عثرة ، وفى كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص
دهشة ومن كل طارق لبابه غشية ، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته . شنع
من هذا .

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى . هذا بعض
ما يضيق به الصدر ، وتنقبض له الأنفس ، مما رزؤوا به بعد ما تكفل أحباؤهم
الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة ، هذه طلائع الإصلاح البشرى به
من زمان بعيد على السنة رساله . أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم ، تأميين
عن رشادهم ، لا يعلمون ماذا يحل بهم ، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول
الأوربية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ،
ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها .

أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت ببلاده من نحو
عشرين شهراً كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شؤونها نعم يمكن أن يخطر بالبال
أنها تمهد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها ، وإقامة جسورها ،
وتكثير جداولها ، وتقوية مواد الخصب فيها ، حتى تعود بعد مدة جنة من جنات

الدنيا ، أوروقة من رفاض الآخرة ، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ووزت الأرض بعدهم قوم آخرون .

فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يمثله الحاطر ، فى وقتنا الحاضر ، ولايكفى للبداة فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من المالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشؤون المصرية فى هذه الأيام ، دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة ، واستولت عليها من مدة أربعين سنة ، ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ، ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى فليتنظر إخواننا المصريون فإننا معهم من المنتظرين .

اعجوبة

ظهر لمراسل التاميس بالاسكندرية في هذه الأيام ما كان ظاهراً عند الكافة عامتهم وخاصتهم ولم يخف على غبي ولا ذكي ولا أعمى ولا بصير بل لم يحصل فيه أدنى شبهة في زمن من الأزمان الماضية ، فأبرق إلى جريدة التاميس يثبت فيه ما يأتي : أنه يوجد بين طبقات الأهالي جمهور كثير ينفر من سلطة الإنجليز (وخجل أن يقول جميع الأهالي) كذلك وإنهم لا يسرون بإرسال العساكر إلى توكار بل بلغ الأسف منهم غايته عندما سمعوا بانتصار جراهام على العربان .

ويقرب من هذه الأعجوبة ما أجاب به غرانفيل موزورس باشا عندما بين له لزوم التداخل العثماني في حوادث السودان حيث قال إن العساكر التركية تلاقى من معارضة المصريين مثل ما تلاقى العساكر الإنجليزية ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

غريبة

روت جريدة التان ، عن الجرائد الانجليزية أن الخديو الحالى عقد عزمه على الاستعفاء من منصبه إلا أن حرمه (زوجته) عارضته فيما عزم عليه كل المعارضة وعند ما أشار إليها بما فى نيته تناولت مقراضاً وجزت شعرها علامة على الحداد وأقسمت أن لا تلبس الجوارب والأحذية حتى توقن بعدوله عن مقصده هذا ، وهى من ذاك الوقت تمشى حافية وتنتظر آخر عزيمة من زوجها الخديو .

ولعل هذا من مبالغات الجرائد الانجليزية أو يكون منشأوه الحاح السير بارين عليه بطلب حماية إنجلترا كما رواه كثير من الجرائد أو إجباره على التنازل كما روته جرائد أخرى .

جوردون باشا

إن جوردون باشا بعد ما نصب نفسه للمدافعة عن حرية السودانين زماناً طويلاً وكثر ما توسل بذلك لعودته حاكماً للسودان نال في هذه الحوادث بنغيته ، وأرسل من قبل دولته لعمل سوداني فوصل إلى خرطوم وافتتح أعماله بمخالفة مشربه ، فأعلن إباحة بيع الرقيق وإلغاء معاهدة سنتي ١٨٧٧-١٨٧٩ ثم تعدى على حقوق السلطان بدعاوى مختلفة ، منها أنه جاء نائباً عنه ، وتضاربت أقواله في مأموريته ، فادعى أنه حاكم عام على الأقطار السودانية بأمر دولته والحكومة المصرية ، مع تصريحه بأن الحكومة المصرية لا دخل لها من الآن في إدارة السودان رأساً واعترافه بأمرة الشيخ محمد أحمد على كوردفان ، هذه كل وسائله لامتلاك قلوب السودانين . ولم يلبث أن ظهر ضعف سياسته عند جميعهم لعلمهم السابق بأطواره فكان ما أجمعت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية من عدم نجاحه في مأموريته فإن الأخبار الخصوصية الواردة من الخرطوم متفقة في أن ما أشيع من البهجة بقدم جوردون محي أثره وتحول إلى اضطراب وقلق وتشويش في الأفكار ، وأن القبائل فيما وراء خرطوم تسخر بمنشوره وتهزأ بوعده ووعيده ، وهذا الضرب من السياسة ربما يستغربه من لا يعرف حال جوردون ، أما المصريون جميعاً والسودانيون خصوصاً فلا يعجبون منه لوقوفهم على أحواله من قبل ، وإنما العجب من كون الحكومة الانجليزية ذهلت عن أن ثورة دينية لا يمكن إطفائها بيد من يخالف التأثيرين دينا وشكلا ولغة وإن كان عاقلا سياسياً .

يثبت هذا الذي قلناه ما ورد إلى «الدلي نيوز» من أن الجنرال جوردون بعث برقية أثبت فيها أنه عاجز عن مساعدة الحامية المصرية في السودان ما لم يكن تحت إمرته جيوش على النيل الأبيض والنيل الأزرق ، وما جاء من مكالته لمراسل التاييس حيث صرح له أنه لم يعد في إمكانه أن يفعل أزيد مما فعل (وما فعل شيئاً) لتقرير

الراحة بين السكان ، وأن العزم على إخلاء السودان فتح للشيخ محمد أحمد سيلا لإثارة القبائل بين بربر وخرطوم ، وفي أثناء المحادثة أظهر احتياجه لفرقتين من المساكر ترسل إليه من جيش الجنرال جراهام . ومما قاله أنه من الضروري تعيين زير باشا خلفاً له في خرطوم ويفوض إليه إعادة الراحة ومقاومة التأثيرين وهذا من عجيب تدبيره فإن هذا الباشا إن لم يكن معتقداً بصاحب دعوى المهدوية ، فعنده أعظم باعث للاتفاق معه فإنه لم ينس ما حل بأولاده وأقاربه من القتل صبراً ، وما سلب من أمواله نهباً وغصباً ، فكيف يميل لمساعدة الحكومة المصرية على إخضاع التأثيرين عليها .

جراهم وعثمان دجمة

بعث الجنرال جراهم قائد جيش الإنجليز في جهة سواكن ، بمنشورات إلى رؤساء القبائل يهددهم ويمنعهم ويتوعددهم لينفصلوا عن عثمان دجمة ، وإلى عثمان يرعده ويبرق ، ويرغى ويزبد ، ويطلب منه التسليم . فورد الجواب من عثمان برفض الطلب والاستعداد للحرب ، ووردت الرسائل من واحد وعشرين شيخاً من مشايخ القبائل ناطقة بأنه لا واسطة بين الإنجليز ومساعدتهم ، وبين القبائل السودانية إلا السيف ، ثم قالوا أن كل من لا يصدق بدعوى المهدي فإنه سيكون لا محالة فريسة للموت وطعمة للهلاك .

فاضطر الجنرال جراهم لإعادة التهديد مرة أخرى على النحو الأول ويغلب على الظن أن الجواب . يكون الجواب .

وجاء في جرائد الإنجليز أن الشيخ المرغنى « وهو شيخ طريقة من المسلمين » بعث إلى عثمان دجمة رقيماً يستدعيه للطاعة ، ويحذره من مقاومة العساكر الإنجليزية ، فأجابه عثمان دجمة بأن في عزمه شرب دماء الإنجليز وكل من يساعدهم فإنه يحارب بسيف الإسلام . وفي ختام جوابه نصح المرغنى وطلب منه أن يقوم بإرشاد الإنجليز إلى ترك الحرب ووضع السلاح وهو أولى له من نصيح مشايخ القبائل العربية الإسلامية .

المسألة المصرية

إن المسألة المصرية صبت في انجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها ، وكلما عرضت على العقول في لون خيل لها أنه أجود ما في الدنيا ، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد ، وهي في انتقالاتها هذه لا تزداد إلا إشكالا ، ولا تزيد انجلترا في إنهاؤها إلا ارتباطا .

كان بود مستر جلادستون أن ينهج في سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبوا إلى مقصده بالأناة والتؤدة ، ويلتوى في مسيره إلى معاطف متخالفة ، ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يسوغه الحدق ، حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتضى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد بيكونسفيلد من أنه لا يميل إلى الفتوحات ، وهم البعد بانجلترا عن المداخلات في الأمور الأجنبية ، بالقوة الحربية ، إلا أن الحوادث المصرية أُلجأتها إلى العدول عن مشربه ، والتطور بغير طوره ، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله ، وسار سيرة التخبیط ، ونشأ من طلعه في السياسة توعر السبل على حكومته في بلوغ ما تريد ، وحدث عنه النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد ، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى ، والاستقالة من المنصب ، وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحزابه ، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقاً للسعى في إسقاطه من مكائته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة .

الذى أباح لمستر جلادستون أن يركب غير طريقه ، ويتداخل في مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة . وتخليصها من خلل القوضى ، ومن مصلحة انجلترا أن تتولى إغايتها مما وقعت فيه ، فدیده لوضع قواعد

العدالة ، وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد ، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابي اسكندرية ، والحلول في ثكن القاهرة ، فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أو حفظ مصلحة مهمة ، بأعمال خفيفة ، ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة ؛ ولكن مع الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية .

تتابعت الفتن وعلا لياقتها حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال ، فاضطر لسوق العساكر ، ومداومة الحروب ، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها ولم يكف محمد أحمد عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دجّة بهذه الصدمات المتتالية ، وأجعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيله ، ويهاجم الإنجليز مرة ثالثة ، وأكّد رواة الأخبار أن محمد أحمد أنبأ من قبل أنه سيهزم مرتين قبل تمام ظفره بالإنجليز ، فكانت هذه الهزمتان مما يقوى الاعتقاد به ويجمع الكلمة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان ، وحركت الخواطر على الوزارة الجلاستونية ، وتخوف رئيس الوزارة من عواقب المداولات في المسائل المصرية ، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام وزير الحربية مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة ، وفهم من بعض خطاباتّه أن من نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها ، وأن تحمل في شرق السودان ، وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية كما تراه في غير هذا الحل . فقامت الحجة بكلامه هذا في حزب المحافظين ، ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق ، والتجأها للعدول عن سياستها في هذه الأوقات ولم يكن من رأى جلاستون أن تصرّح الحكومة بمقاصدها ، وتظهر مشرّعها بوجه جلي ، ووقع الخلاف بينه وبين وزير الحربية ، وكثير من أعضاء الوزارة ، على جملة مواضيع في المسألة المصرية ، وزاد الخلاف شدة ميل جلاستون لمرضاة الإيرلنديين وتجاوى بقية الوزراء عن رغبته وثبت الرئيس في آرائه وهو يفضل الاستمعاء على التساهل في شيء منها ، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل

انقلاب في الوزارة أو فض البرلمان ، وأكدت قرب ذلك جريدة التاميس وجريدة الديلي نيوز وهي نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة جلادستون في خطر .

فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية ، وخلفتها أخرى من أي حزب كان ، فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة . أقبل الصيف وصعب على عساكر الإنجليز أن تأتي بحركات عسكرية في أطراف السودان الشرقية مدة أشهر ويتعذر حفظ المواصلات بين سواكن وبربر وخرطوم فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأت به البرقية انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية ، واجترأوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر . في هذه المدة وهي غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ودعائه أن يجمعوا قوام وينالوا من النعمة ما يتعسر على عساكر الهند مقاوamته بل هم الآن على القرب مما نقول . ففي الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنجليزية ، والبلاد المجاورة لخرطوم في ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة نوبيا ، ومحمد أحمد مهم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم إثنا عشر أوربياً وستون ضابطاً مصرياً نجوا من عساكر هكس ، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلي نيوز واعترف مستشار خارجية إنجلترا أن المواصلات بين شندي وخرطوم منقطعة ، ولم يصله خبر عن جوردون من حادي عشر هذا الشهر فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنجليزية فلا نظنه إلا يصعد جدار الهند كما بينا في العدد الماضي ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوربية في مصر (وليكن كذلك) .

ولا نظن أن دول أوربا تسمح بضياع مصالحها في الأقطار المصرية خصوصاً بعض الدول التي كانت تسابق إنجلترا في وادي النيل وأنحط مقامها فيه بالتدخل الإنجليزي الذي ليست له حدود معروفة ، ولا غايات معلومة ، وإلى هذا تشير جريدة التان الفرنسية الوزارية حيث تقول : إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين أيدي أوربا ، وتنوه به جريدة سان برسبورج حيث

تقول : إن روسيا ليس في عزمها أن تفتتح بعمل في مصر فإن إنجلترا اعترفت في جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع في شيء منها إلا باتفاق أوروبا ، هذا إذا تمكنت إنجلترا أن تأخذ على نفسها اطفاء الفتن وإجهاذ الثورات ، واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها ، ففي نهايته تطلب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها ، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان ، وهي بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز في حركاتها العسكرية شواطئ البحر ، فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنجلترا ، وأنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوربيين ، وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدي أهلها ويفعل الله ما يشاء .



الإنجليزية في السودان

إن البرقيات التي وردت من سواكن جميعها متفقة على أن العساكر الإنجليزية هاجت معسكر عثمان دجة في ثمانية منقسمة إلى مربعين وبعد أن فارقت زفراً غارت عليها العرب بعدد وافر مع بسالة الأيس ودخلت في المربع الأول وهو المقدمة وكانت فيه مذبحاً هائلة ، وتقهرت العساكر الإنجليزية وتركت مدافعها بعد ما قتل منها جم غفير بأسنة العرب وحرايهم إلا أن فرقة من مشاة البحرية جاءت من القلب وسدت الخلل الذي وقع في صفوف العساكر من هجمات العرب ودفعت قوة المهاجم ، ولم تسكد المربعات الإنجليزية تلتئم وتعود إلى الانتقام حتى هاجمتها جيوش عثمان مرة أخرى بآس شديد وانقضت عليها من الجناحين والتحمت مقتلة عنيفة وترامى العرب على الموت واستهانوا بالحياة مفضلين الشهادة على التقهر والتسليم .

وتضافرت الأخبار على أن العرب أظهروا من البسالة والشجاعة مالا يوصف ، حتى قال الرواة أن ماشاهدوه منهم يعد من غرائب الأعمال البشرية ، إلا أن الروايات اختلفت في عدد من قتل منهم ومن عساكر الإنجليز فبعضها أوصل قتلى العرب إلى ثلاثة آلاف وبعضها إلى أقل ثم جاءت الأخبار الرسمية (وما أدراك ما الأخبار الرسمية) وما تبالغ في قتل أعدائها مصرحة بأنها ألفان أما قتلى الإنجليز فقد بالغوا في قتلها حتى أوصلوها إلى مائتين أو ثلثمائة بعد ما اعترفوا بأن العرب فتكوا فيهم فتكاً ذريعاً .

وعلى أى حال قد انتهت الواقعة بانسحاب العرب إلى جبالهم ورجعت العساكر الإنجليزية بغاية السرعة إلى سواكن وتركت المواقع التي استولت عليها وتوافد إليها العرب مع قائدهم عثمان واجتمعت له في الموقع الذي هوجم فيه قوة حملته على الشموخ بأنفه والنداء باستعدادده لمهاجمة العساكر الإنجليزية وإنه لا يقبل التسليم وإنما لنعجب كما يعجب سائر الجرائد الأوروبية من هذه الرجعة العربية بعد الطنطنة

بالنصر والظفر والإعلان بأن العساكر الانجليزية نالت من الشرف أعلى ما يناله جيش في قتال ، فإن سرعة الرجوع شاهد بين على أن هذا الجيش المنظم يقتدر على حفظ مركزه في ساحة الحرب وإنه خشي التلف لو بقي فيه فعاد راجعاً إلى شواطئ البحر فكان المقتلة لم تكن إلا كرهة أعقبتها قوة حتى عدها بعض الجرائد هزيمة وحسبها من الخطأ العظيم لأنها تجرىء العرب على البقاء في الطريق الذي يصل سواكن ببربر وقطع الطريق على سالكيه وإنا، إن وافقهم على ذلك لكننا نعدّها عجزاً ظاهراً عن مقاومة العربان في جبالهم .

وما أشبه فعلة الانجليز هذه بفعلته من نحو عشرين سنة عندما كان يحارب في حدود الهند سرايا الأمير عبد الله الوهابي واخوندسوات فإنه بعد ما انهزم في جبال (سوات وبنير) شر هزيمة وترك مدافعه وذخائره رجع ثانية ودخل قرية صغيرة من فرى تلك الجبال .

وفاجأها ليلاً على غفلة وأحرقها فقتل أهلها جميعاً وانقلب راجعاً إلى بلاده في الهند من ليلته ، وأعلن بأنه قتل وسلب ونهب وظفر وانتصر فليعتبر المعترفون .

وكان الجنرال جراهام بعمله هذا لم يرد إطفاء الفتنة في الأراضي المصرية ، وإنما قصد رد شرف العساكر الانجليزية والأخذ بثأر بعض من قتل منها سابقاً وإقامة البرهان لأوروبا على أن عساكر الانجليز يقدرّون على محاربة العربان ويستطيعون الهجوم عليهم ، نعم إنه لم يغفل التدبير بالسكينة فإن الجرائد أخبرت أنه وضع رأس عثمان دجمة في المساومة وجعل لمن يأتي به ألف ليرة انجليزية ونعم ما دبر ولكن نخاف أن عثمان عند ما يبلغه الخبر يضع رأس الجنرال في المزايدة ويجعل لمن يأتي به مائة قنطار من سن الفيل ويكون الخطر على الجنرال أعظم !!!

ثم إن الجرائد الانجليزية على عادتها من ترويج سياسة حكومتها في الحروب

أشاعت أن الجنرال جراهام بعد رجوعه إلى سواكن دعا بعض رؤساء القبائل وذكرهم في إقرار الراحة بين سكان البلاد السودانية ورغب إليهم أن يتمهدوا به فأجاب بأنه غير ممكن لهم إلا بمساعدة المسافر الانجليزية وأنهم استصوبوا ما نشره الجنرال من تعيين الجمالة على جز رأس عثمان بمبلغ ألف ليرة انجليزية ، وهذا مما لا نظنه بالعرب لمخالفته طباعهم وبنوا أخلاقهم على الخضوع للأجنبي عنهم وما عهد ذلك فيهم من يوم نشأتهم العربية إلى اليوم . وبعد إنهاء الكلام معهم أخذ في ذم عثمان على ما روته تلك الجرائد حيث لم يظفر به بأنه كذاب وخائن لبلاده وأبناء جلده فإنه الذى عرضهم لسفك الدم وإتلاف الأرواح .

وقد ذكرنا هذا بقصة أحد القواد الأفغانين حيث عرض نفسه لخدمة الإنجليز في الحرب الأفغانية الأخيرة فأمدوه بمبالغ وافرة لإعانتته على العمل فأخذ ما أخذ ونثره في قومه وهياهم به للكر على الإنجليز والنكاية بهم ونال منهم ما نال . وبعد ما ذاقوا منه الوبال أخذوا في نشر المنشورات وتحرير الإعلانات بأن هذا الرجل قليل الوفاء خائن العهد لا يثبت على قوله ولا يقى بوعده مع أن الوفاء هو أداء حق الوطن والمدافعة عنه والقيام بذمامه وكل عهد يخالفه فالذمة تنكره والصدق يأباه كائنًا ما كان .

هذه أسطورة أمر الجنرال جراهام ، وأما الجنرال جوردون فقد أخبرت بعض الجرائد الإنجليزية أنه في خطر وأنه يوجد قلق عظيم في مصر من جهته ، ويثبت هذا الخبر امتناع وزير الحرية في إنجلترا من عرض المخبرات التي جرت بينه وبين الجنرال خوفاً من تأثيرها في الأذهان .

وروت جريدة الدبلي نيوز بناء على تلغراف ورد إليها أن زبير باشا صرح باستعداده لأن يخلف جوردون باشا في السودان وهو يظن أنه لا يمكن إعادة الأمن إلى تلك البلاد إلا بطرق سلمية ولا يستطيع أن يبدى فكره في شأن المهدي قبل أن يخبره وهو في ريب من اعتقاد السودانيين بنبوته (كذا) ومما قال أن تجارة

— ١٧٨ —

الرقيق يمكن إلغاؤها بالتدريج عندما يشرع سكان السودان في معرفة فوائد التمدن
ومنافعه ثم كذب ما أشيع عنه من البغض للجنرال جوردون .

نعم إن زير باشا لا يبغض الجنرال في هذه الأوقات ما دام في القاهرة
أما إذا وصل إلى السودان فيمكن أن تعود إليه الضغينة التي مزجت قلبه
سنين عديدة .

* * *

صدى دعوة الله السودان

وردت برقية من تاشكند إلى جريدة الساندر الإنجليزية مفادها أنه حصل اضطراب عظيم في أفكار المسلمين سكينة بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول وظهر فيهم داع جديد يحث على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلفه من منفرسه إذا لم ينشر اللواء الأخضر (المغالبة ومصادمة التمرد عليهم) هذا برهان جلي على ما أُنذر به سابقاً من أن دعوى المهدوية في السودان لهذه الأوقات التي صدم المسلمين فيها أشباه الحوادث الماضية في القرن الخامس والسادس من الهجرة ستدعو إلى حركة عامة يصيح فيها الشرق بالغربي ويصعب على الانجليز وهو في مجراها أن يتسكب عنها دون أن تعرفه هزة من مفزعاتها خصوصاً والمظاهرة الدينية في البلاد المحكومة بسلطة أقوى وأظهر .

إن بلاد بخارى بينها وبين السودان مسافات متطاولة وأبعاد متنائية ويظن الناظر في لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة ومع ذلك يرى التنافس بين القطرين في الغيرة بنائية السرعة فما ظنك ببلاد هي أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها منالاً . يغلب على الظن أن الروح هبطت إليها ولكن تتحرك بحركة العقل وتنمو على القوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادية ، فلا يشمر الأقواء إلا وقد بات بحلاقيمهم المستضعفون والأرض أرض الله يورثها من يشاء من عباده الصالحين .

إذا سهلت الحوادث ظهور الكوامن ومهدت بروز المغيبات ماذا يمكن أن يؤخذ به من الوسائل لوقاية العدد القليل من غيلة الجمهور الأغلب الذي لا يقاوم

وما أمكنت مقاومته في الأزمان الخالية .

نظن أن لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه والدخول إليه من بابه ،
وتركه للمسلمين يرضى بعضهم بعضاً ويدافع بأسهم بأس بعض . فإن كان هذا هو
نهاية السير ، فمن الخطأ السياسي أن لا يبدأ به قبل اشتداد الكرب ، وعظيم الخطب ،
والله الهادي إلى الطريق الرشاد .

اضطراب سياسة الانجليز في مصر

تشا كلت أفكار السياسيين من الإنجليز في لوم الحكومة على سياستها المصرية ، قال اللورد سالسبرى في بعض الاجتماعات العظيمة أن الحكومة الإنجليزية بالتواء سياستها وتذبذبها وضعت من شرف إنجلترا وخفضت اسمها ، وعرضت أجل مصالح الامبراطورية (الهند) للخطر ثم تكلم في منشور جوردون باشا المبيع لبيع الرقيق فقال ليس من الممكن لسيو جلاستون أن يبيع تجارة الرقيق على حفاقي النيل وهو يحظرها على سواحل البحر الأحمر (والأولى أن يبيحها في جميع البقاع لاستحالة منعها مطلقاً) . وذكرت جريدة (البال مال جازيت) أن مستشار جمعية منع الرق في لندن أرسل إلى اللورد جرانفيل خطاباً بالنيابة عن أعضاء الجمعية يلقى عليه التبعة في تسمية زبير باشا والياً على السودان الشرقية ، وأن الجمعية اتفقت آراؤها على أن مساعدة الحكومة الإنجليزية لرجل كزير باشا تكسيها عاراً وحطة في نظر أوربا .

* * *

وقالت جريدة الدليل نيوز : الصحيح أن الارتباك الواقع في مالية مصر اقلق وزارة إنجلترا وبعثها على البحث في إيجاد وسيلة لادخال النقود إلى مصر فإنها في غاية الحاجة إليها ، ويؤكد أن الحكومة الانجليزية ستعرض أفكارها على البرلمان في هذا الشأن وفي الظن أن ماتعرضه عليه يكون متعلقاً بضمانة القرض المصري (دخول مصر في حماية إنجلترا رسمياً) إلا أن عدداً عديداً من الأحرار في البرلمان صرحوا بعدم قبولهم أى فكر يعرض عليهم في هذه المسألة . ومع هذا فقد كذبت هذه الجريدة ما أشيع في الدوائر المالية من أن في عزم الحكومة الانجليزية أن تعد قرضاً للبلاد المصرية مبلغه ثمانية ملايين بفائدة ثلاثة ونصف في المائة .

برلمان إنجلترا

انقذت له جلسة من أيام لم يحضرها المستر جلادستون لأنه كان مريضاً (أو متهازناً لخوفه من عاقبة المداولة فيها) فتاب عنه في الكلام هرتنكتون وزير الحربية وابتدأ يطلب نقوداً لنفقات حلول الجيش الانجليزى في الأقطار المصرية وبين النواصي إلى ما طلب فعارضه السيو لابوشير (وهو من الحزب الحر الذى يأبى أن تدخل إنجلترا في أى حرب كانت) وطلب تنقيص المبلغ الذى طلبه وزير الحربية ثم دارت المباحثة في المسألة المصرية وحى وطيس الجدال فيها وتكلم الخطباء عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبينوا الأغلاط التي ارتكبتها الحكومة في سياستها وماذا يجب الآن إعداده من وسائل الخلاص وقال اللورد نورثكوت «وهو رئيس حزب المعارضين لسياسة الحكومة» إن خطاب وزير الحربية دل على تغيير عظيم في أفكار الوزارة فقد علمنا من كلامه أنها جارت الرأى العمومى في البلاد وأذعنت لمقتضيات الحوادث وعدلت عن السياسة المرتجة التزعزعة واعترفت بما تعهدت به وقبلت أن تقوم بوفائه بعد أن كانت تحاول التملص منه وفهم منه أيضاً أن بلاد السودان إذا ركت لصغار السلاطين القدماء الذين يحاولون استعادة ممالكهم ليقوموا فيها بإمارات صغيرة فإن خرطوم تكون مستثناة لأهميتها في راحة البلاد المصرية وإن البحر الأحمر لما كان تابعاً لقنال السويس ومرتبطاً بطريق الهند، فصالح إنجلترا تقضى بأن تكون الثغور المصرية «من امسكندرية إلى ماوراء عدن فتدخل رشيد ودمياط وبور سعيد وسواكن ومصوع» بيد الانجليز مادام المصريون عاجزين عن الدفاع عنها ووضع في خطابه (وزير الحربية) أن أفكار الوزارة في هذه الأوقات متجهة لأن تحمل عساكرها في مسافات طويلة من السودان الشرقى لعلها بلزوم اتصال شواطئ البحر الأحمر بالمراكز التي تبقى في السودان وأن توصل سواكن ببربر بخرطوم، وهذا الرأى الذى أبداه وزير الحربية يستدعى حلول في مصر إلى مدة

أطول من المدة التي صرح بها سابقاً .

كانوا بدأوا في استدعاء قسم من العساكر وصمموا على استدعاء قسم آخر منها ، لكنهم الآن لا يريدون إلا تقرير حكومة أهلية (كذا) قادرة أن تقوم بنفسها وتأتى أعمالاً مفيدة لبلادها وبعدما كانوا يستعملون الألفاظ البهيمية في شأنهم مع مصر ، صرحوا بالحالة التي يجب أن تكون عليها مصر حتى تتركها انجلترا وشأنها ويريد وزير الحرية بحكومة ثابتة قادرة ماتكون موضع الثقة لرعاياها والأوربيين المستوطنين في البلاد ومحل من النقود التي تحمل اليها (ديناً وقرضاً) .

* * *

قالت جريدة التان بعد ذكرها هذه المباحثة أن الوزارة الانجليزية حادت عن منهجها الأول وصرحت بقبول التبعة في مداخلاتها التي كانت تؤمل التخلص منها متى أرادت ، إلا أنها الآن حملت حملاً ثقيلاً على ماليها وسياساتها الخارجية ، إنها لم تصرح بكلمة حماية حتى اليوم ولكنها ، المراد من عبارتها ، وتزعم أنها مساقدة إليها قهراً لفرض أن تمنح مصر إدارة قوية وجهادية منظمة وقضاء عادلاً وهذه الحماية تمتد من شمال الدلتا إلى خرطوم ومن خرطوم إلى البحر الأحمر ولكن يصعب علي انجلترا أن تنال هذه الحماية ما لم تناقش في الحساب بين يدي أوروبا ، وإنا لنأسف على فقد اللورد بيكوسفيلد ونتمنى لو كان حياً حتى يذكر المسيو جلادستون بخطبه المشتملة غيظاً ، المفعمة لوماً وتقريماً على من يميل لسياسة الحروب والفتوحات .

قالت صحيفة الديلي نيوز وهي شبه رسمية إن الوزارة الحالية (الانجليزية) في خطر وأنه في يوم الخميس الماضي كان الكلام دائراً في مجلس البرلمان على تغيير وزارى وعلى حل المجلس وأنه لا يمنع من ذلك رفض اللأئحة التي قدمها لاوبشير في لوم الحكومة ثم قالت إن البلاد (الانجليزية) لا بد لها أن تهياً

لا بداء أفكارها في شأن الوزارة وتصرفها داخل البلاد وخارجها .

ويقال في الدوائر السياسية أن تأخر مستر جلادستون عن الحضور في جلسات المجلس يوم السبت والأحد لم يكن ناشئاً عن انحراف الصحة وإنما كان هذا تعللاً ومراوغة ليس إلا . (١)

(١) ادعاء المرض أو التمارض الدبلوماسي أصبح معروفاً في مصر فلتبحث بريطانيا عن سلاح آخر !!!

الباب العالى

إن كان البرهان يدفع غارة أو يهزم عسكرياً أو يفتح بلاداً فهذا أقوى ما يكون من البرهان على أوضح حق يوجد .

كتب مراسل الثان فى الآستانة كتاباً مفصلاً عن أفكار أعظم العثمانيين فى المسألة المصرية وما للباب العالى من الحقوق . فما أثبتته أن العثمانيين فى ضجر من أحجاف انجلترا وجورها عن العدل فى معاملة السلطان وعدم الاكتراث بما له من الحق الثابت وتصرفها فى مصر بدون مراعاة رضاه وأن بعض الرجال المظالم بين له حيف انجلترا وتعديها على المعاهدات الدولية والفرمانات الشاهانية وأثبتته بأدلة منها ما أجابت به انجلترا عن بلاغ الباب العالى إلى الدول من نحو سنتين فى بداية الارتباكات المصرية حيث قالت أنها ترغب حفظ الحالة المقررة فى مصر (الاستاتوكو) (١) على مقتضى الفرمانات السلطانية والعهود الدولية وأنه لا يسوغ التغيير فيها بوجه ما إلا باتفاق الدول .

ومنها نص فرمان الصادر بتولية توفيق باشا فإنه صريح فى أن مصر بحدودها الطبيعية وملحقاتها تعد من الأملاك العثمانية وأنه لا يسمح للخديو أن يتنازل عن قطعة أرض منها صغرت أو كبرت لأجنبى كائناً من كان لأى سبب ولا بأى وجه ولا يسوغ له أن يتخلى عن شىء من الامتيازات الممنوحة لمصر مهما كانت الأسباب والحوادث ولا يجوز له عقد شرط أو عهد إلا بعد عرضه على الدولة ورضائها ويحظر عليه تجديد قرض مالى إلا فيما يتعلق بتسوية المسائل المالية التى كانت لذلك العهد .

ومنها أن قنال السويس لم يفتح إلا بعد استئذان الباب العالى فكيف ساغ لانجلترا الآن أن تتولى فصل السودان عن مصر وأن تتداول فى فتح قنال آخر وأن

تتدبر في قرض جديد تحمله على عواتق الحكومة المصرية وأن تتناول حماية الثنور
بعضا كرها بدون الاتفاق مع الباب العالي ولا مشاورة الدول العظيمة .

وأنا في حيرة مما أراد هذا العظيم من إقامة الحجج هل أراد إظهار ما كان
خافياً على دول أوربا وهم يملونه حق العلم أو بيان أن إنجلترا أخطأت في فهم هذه
الفرسانات وتلك المعاهدات أو حاول إقناعها بالدليل والبرهان . ولكننا نعلم أن حكومة
بريطانيا لا تفزع من الاحتجاج ولا ترهب الجدل فإنها تمرنت على ذلك من أزمان
طويلة مع الملوك والأمراء الشرقيين وأمكنها في أحوال كثيرة أن تجيب عما يرد عليها
من الاعتراضات وإن بلغت مقدماتها من الظهور حد البدهة ولولا هذا لما احتدت
جريدة التايمس عندما بلغها نبأ مؤداه أن جرانفيل طلب من السلطان أن يرسل حامية
تركية إلى سواكن وبالغت في إنكار ذلك بقولها أنه مما لا يخطر بالبال ثم تعللت بما
لا يذهب على فطنة أحد حيث قالت أن إنجلترا لا تريد أن تحامى عن حقوق السلطان
بعدما صارت بضعفه نسياً منسياً .



ايرلندا

فى كل يوم يقيم الإنجليزى برهاناً منطقياً ودليلاً جديلاً على أنه ما ذهب إلى مصر إلا بقصد إقرار الراحة ووضع قواعد العدالة . ولكنه كلما رتب مقدماته لإقناع السذج بقضاياه المشهورة عارضه الإيرلنديون ببراهين عملية تنقض ترتيبه وتبطل نتيجته فإنه لا يمضى وقت من الأوقات إلا ولهم فيه عمل لكسر شوكة الحكومة الإنجليزية فى إيرلندا يضعون الديناميت لتدمير الأبنية وهدم الجسور وتعطيل السكك الحديد ويفتكون برجال الحكومة ويتضجرون من ظلمها ويطلبون كل وسيلة للتخلص من سلطتها وهم فى سيرهم لا يهنون ولا يفرون .

هيئت وليمة للمستر بارنل رئيس حزب الإيرلانديين حضرها جم غفير منهم احتفالاً بعيد سان بترس وفيهم كثير من أعضاء البرلمان فألقى عليهم خطاباً أظهر فيه مسرته من تقدم الحركة الجنسية فى إيرلندا وأوصى الإيرلنديين أن لا يعتمدوا على حزب من الأحزاب الإنجليزية وإنما يكون اعتمادهم على نشاطهم واجتهادهم ثم قال إن له فى المستقبل أملاً حسناً وختم كلامه بقوله أن اليوم الذى يجتمع فيه الإيرلنديون على اختلاف أحزابهم فى بسطة أرضهم هو قريب وسيكونون عما قليل تحت حكم برلمان إيرلندى وفى ذلك الوقت لا قبله ترسل إيرلندا إلى إنجلترا رسالة سلمية . وعند رفع كؤوس الشراب أبى الحاضرون ذكر الملكة وإنما وقع بارنل أول كأس ونادى باسم الأمة الإيرلندية وطلب من الحاضرين ذلك .

هكذا يطلب الانجليز ضم أراض إلى أملاكهم فتتفصل عنهم أراض أخرى وإلى الله علم العاقبة .

الفرنسيون في التونكين

مضت عدة أشهر والفرنسيون ينتظرون ما تؤدي إليه حركات عساكرهم في بلاد تونكين وكادوا يرتابون من حسن العاقبة حتى وردت البرقية إلى وزير الحربية في باريس من القائد العام بأن العساكر الفرنسية دخلت باكنين من طريق يوصل إلى لانسون وأن الصينيين انهزموا إلى نواحي نكبين حيث اشتدت عليهم المهاجمات الفرنسية من جهتي الشمال والشرق وخسروا خسائر جسيمة ولم يجرح من الفرنسيين سوى سبعين رجلاً وحازت العساكر الفرنسية كميات وافرة من الذخائر وبطارية من مدافع الكروب وجدوها في قلعة باكنين ويظن كثير من رجال السياسة الفرنسية أن فرنسا قد آتت عملها بالاستيلاء على هذا الموقع المهم .

وأكد هذا الظن ما ورد بالبرقية من بكنين إلى جريدة الستاندرد أن ملكة الصين عند ما بلغها استيلاء الفرنسيين على باكنين عقدت مجلساً حروباً لدراسة الموقف في الأمور الصينية الحاضرة ، فقرر الأعضاء وبينهم الأمير كونج على أنه يلزم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية بطرق ودية .

وفي حسابنا أن مثل هذه الفتوحات لا تسلي أحزان الفرنسيين ولا تعزيمهم على ما خسروه في مصر وأن ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح .

مستورات

روت جريدة الثان عن جريدة سان بترسبورج أن أمبراطور روسيا أظهر
رغبته في السفر إلى برلين في الصيف القادم مع الأمبراطورة ولم يعلم تاريخ توجهه
بالتحديد إلى الآن ويظن أن سفره هذا يكون قبل سفر أمبراطور المانيا إلى (أمس)
حسب عادته .

وتعد هذه الزيارات من مؤكدات المواصلات بين دولتي الروس وألمانيا وهو
مما يوسع للروسيا ميدان الجولان في آسيا كما بينا سابقاً .

* * *

وردت إلى الدلي نيوز برفية من القاهرة مفادها أن قبيلة تراشي في بربر
انضمت إلى قبائل كوردفان المتقدمين بمحمد أحمد . . وهذا مما يقنع الناظرين
في الحركات السودانية بأن هذه المبالغات التي يذيعها الإنجليز في انتصارهم لم تؤثر شيئاً
في نفوس القبائل ولم توهم اعتقادهم بذلك المدعى السوداني . وبقیم دليلا على ما قلناه
من أن هذه النيران الملتبهة لا يطفئها إلا رجال من عطاء المسلمين .

* * *

نشرت في عدة مدن من إيرلندا إعلانات ثورية وجددها أعوان الشرطة
ملصقة على جدران الشوارع والأماكن العمومية مكتوباً فيها هذه الكلمات : (حرب
أهلية في شهر مارس سنة ١٨٨٤) وهو الشهر الحادي فتناول الشرطيون تمزيقها بغاية

— ١٩٠ —

السرعة . وكان الإيرلنديون من قبل ، وضعوا الديناميت في محطات السكك الحديدية من جملة جهات وهذا الإضطراب الداخلى الشديد ثلاثة الأثافي للمسألة المصرية ودخول مرو في حوزة الروس ، وهذه الثلاثة ، إن لم يكن لها رابع ، فهي كافية للمتبصر في تقدير الإرتباك الذى ألم بالحكومة الإنجليزية في هذه الأيام .

* * *

إن الله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ورد تلغراف من القاهرة أن جريدة الستاندرد يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الانجليزية) إلى اطلاق ألف ومائتى منهم من أبواب الجنايات الخفيفة وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين . لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزناً .

* * *

ورد من سوا كن إلى الستندارد :

إن المنشور الذى نشره هفت الأميرال الثانى بتميين جمالة لمن بأتى برأس عثمان دجه وصل إلى مشايخ عرب ثمانية فأحرقوه علامة على رفضه وعدم قبوله .

* * *

برلين في ١٨ مارس

إن جريدة البوست وهي جريدة لها علاقات مع السفارات في برلين ، من فكرها إن استعفاء توفيق باشا وهو قريب الوقوع يفتح للدول الأوروبية باباً

لإعادة المراقبة المشتركة في مصر لأن إنجلترا لم تنجح كل النجاح في مأموريتها لاتقرار
الراحة في تلك البلاد .

باريس في ٢٧ مارس

اشتدت خطوب المسائل المصرية واشتبهت مناهجها وعظمت أخطارها
والتبست وجوها على ذوى الشؤون وأرباب المصالح فيها حتى على السياسيين من رجال
حكومة إنجلترا . كل يتصور غاية ويطلب خطأ يناله منها وقد شد رحاله للوصول
إليه ولكن ضل أعلام الجادة وتاه في مجاهيل وليل المشكلات مظلم وديجورها
مدلمهم وتما كست مذاهب السالكين هذا يشرق والآخر يغب وكل في وحشة
يطلب العين ويخاف العادى وكلما فرح لنبارى بسهمه من الجزع لا يدرى أصاب خصماً
أو قتل منجداً .

أن دولة عظيمة كان لها من القوة ما اعترف به دول العالم أجمع ، ولها
من الحقوق في مصر مالا ينازعها فيه أحد ، ترى رجالها اليوم يهتزون لدهمة الردود
الإنجليزية ، وإن كان سحابها جهاماً ، ويفزعون من هزيم تلك الأصوات فيحارون
ماذا يفعلون ، وربما يأتون ما لا يريدون .

إدعت دولة واسعة المطامع أنها نائبة عنهم في إصلاح الأقطار المصرية
وانقاذها من الاختلال ، فتبوأنها بقواها العسكرية وأخذت بزمام الأحكام فيها ،
تعزل وتولى ، وتمعطى وتمنع ، وتعاهد وتنقض ، وتنقص من أطرافها ما أرادت ،
وتحمل بمساكرها من بقاعها ما شاءت وأصحاب الملك الشرعى شاخصة أبصارهم ،
مشرتبة رقابهم ، يبصرون مالا يسر لهم خطراً ، ولا يشرح لهم صدرأ ، مع حققان
في القلب ، واضطراب في الفؤاد ، والتهاب في الأحشاء ، فرعاً من سوء العاقبة ،
يحسون بما تقتضيه مواقع الأقطار ، والنسب بين بلد وما يجاوره من البلدان ، وما يلزم

لحمايتها من وسائل الدفاع ، فيحكمون بأنه إن دامت الحال على ما يرون ، أصبحت الآتظار السورية والحجازية واليمينية ، على خطر عظيم في زمن قريب أو بعيد ، وأن تاريخ مصر من عهد الفراغة إلى الآن ، ينادى عليهم نداء الناصح ، بل ينفث فيهم نفثات الحق ، بل يزجهم إزعاج الحاكم القاهر بأن المحافظة على مصر ، من أهم واجباتهم إن لم يكن لذاتها ، فلما يتسلط عليه موقعها من الأفطار .

أما ولاية الأمر من المصريين وأولو الرأي فيهم فقد غشيتهم من هذه الدهادة ما أذهلهم ، عن علم حاضرم ، والفكر في مستقبلهم ، طلبوا لهم عوناً قوياً ، وركنوا إليه في دفع ما ظنوه غائلة ، وتوهموه نازلة ، فاستبد بالأمر عليهم ، وسلبهم ما طلبوا المحافظة عليه وهم بين نوم تطيب لهم أوائله ، بما يلين لجنوبهم من الوعود الإنجليزية ، وبين أحلام مدهشة وخيالات مزعجة ، تمثل لهم ما سيصيب عليهم من حميم العذاب ، وما يؤخذون به من عذاب الهوان ، وأن قليلاً مما يشهدونه حاضر العنوان ، على كثير مما يراه بعضهم بعيداً وزراه والماعلون منهم قريباً .

أما الانجليز ، فليسوا في حل مما كسبوا ولم يهنأ لهم ما طمعوا ، بل دافعهم الحوادث وطاردتهم إلى مشا كل لم تكن في حساباتهم ، وهم الآن بين أمور ثلاثة لا يتيسر واحداها إلا بما ينفي الآخر وهم يريدونها مجتمعة ولن يقدروا عليه إلا بقدر يأتيهم بما يحرق العادة ويفوق الإمكان ، لإنهاء مسألة محمد أحمد ، والوفاء بعهودهم لأوروبا ، وما يضمرونه لأنفسهم في مصر ، ثم هم يتشبهون لكل منها بوسيلة تضارب ما يتمسكون به في الأخرى تارة يظهرون عزمهم على مبارحة مصر جنوباً إلى الوفاء بالمعهد ، لكن يتعمون ما يقولون في ذلك بأن أجل الجلاء غير محدود وتارة تنادى بأن ذمة إنجلترا توجب عليها أن تدخل مصر تحت حمايتها وتتولى إدارتها بصفة سيد حاكم لا مستشار ناصح ، ويشير بل يصرح وزير حريتهم بأن الضرورة

تلجئهم إلى مثل هذا العمل ويعبر عنه أحياناً باسم الحماية وأخرى بما لا اسم له سواها، وطوراً يلقبون محمد أحمد أمير كوردفان ويطلبون من الخديو كارتوتة جريدة (ميموريال ديبلوماتيك) أن يكتب لهم صكاً بأنه يفوض الأمر لهم في شأن المدعى يتفقون معه كما يريدون وأنه يسمح لهم بإحلال عساكرهم في سواحل البحر الأحمر وأنه لا يتولى ولاية خرطوم بعد جوردون إلا شيخ يضمن لهم حسن الاتفاق مع محمد أحمد . فلا الوفاء يروق لهم لمناقضته للغرض ولا الحماية تسهل عليهم لأن دول أوروبا بالمرصاد وبين هذا يأخذ محمد أحمد ما يهيئه له الإمكان من القوة ويثبت دعوته إلى سائر الأقطار ويجيش الجيوش ويزحف إلى خرطوم وهو اليوم يحاصرها وعلى شرف افتتاحها ومع حرص الحكومة الإنجليزية على كتم الأخبار وتلطيف الإشاعات من جهة خرطوم اضطر وزير حريتها أن يعترف في مجلس النواب بأن الخبايا منقطعة بين خرطوم ومصر السفلى (إلى الإسكندرية) وأن الحكومة الإنجليزية في مخبراتها مع الجنرال جوردون إنما تعتمد على الصدفة في وجود من يقطع البراري إلى عاصمة نوبيا وكورسكو حتى يوصل الخبر إليه وأنه لا علم للحكومة شيء من أحوال النيل إلا على من خامس عشر الشهر ، ولا تدري ماذا حل بجوردون ، وأثبتت جريدة التايمس أن الجنرال في خطر عظيم ، وزاد الهول عليهم أن عثمان دجمة لم يترزعزعه بما أصابه في الهزيمتين بل لم يزل خصماً قوياً للحكومة الإنجليزية ، ويدل على ذلك أن الجنرال جراهام يتأهب لمنازلته كما ذكرته جريدة التان وفي أهم الجرائد الفرنسية أن وقوع خرطوم في قبضة محمد أحمد يكون له رجة هائلة وأثر عظيم في تغيير الأحوال الحاضرة في البلاد الشرقية .

نعم إذا حل محمد أحمد في خرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين خرطوم وأسوان وتتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا ولا يعدمون من العرب

في جهات الصيد بل وفي الدلتا من يلتحق بهم وتكون الطامة الكبرى . يغلب على ظننا أن هذه النار ليست مما يطفئه رذاذ السياسة الإنجليزية ، ولا مما تحمده حركات عساكرها البطيئة ، خصوصاً وقد وقع الخلاف بين حكومة بريطانيا وبين قواد جيشها في سواحل البحر الأحمر ، فمن رأى الحكومة أن تداوم الحرب وتسرع في إنهائها ومن رأى الأدميرال هفيت توقيف الحرب إلى شهر أكتوبر (بعد ستة أشهر) لئلا تهلك العساكر من الحر ، وإن في ستة أشهر لسعة لالاهيجس الآن في خاطر أحد . فلو وكل الأمر في تسكين الثورة وحسم الفن إلى القوة الإنجليزية وبروقها الخلب لم نكد نفكر فيما يكون منها حتى تلتهب النيران في أنحاء أخرى ويصعب على أرباب الشأن فيها بعد ذلك تداركها وليس لكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين ، يلقي إليهم زمام العمل فيها خالصاً من المداخلات الأجنبية التي توغر الصدور وتثير الأحقاد .

وأحسنت الجرائد الفرنسية بما في نية إنجلترا أن تفعله من التصرف في الأراضي المصرية ومنها جريدة (الريبليك فرانسيز) وجريدة (الديبا) وغيرها ، فطلبت من الحكومة الفرنسية أن تحمل بعساكرها في جزيرة ديسى التسلطة على سواحل البحر الأحمر مما يلي مصوع محتجة على ذلك بقولها إن صح ما ادعاه وزير حربية إنجلترا من كون شطوط البحر الأحمر تعد من طريق الهند فلنا أن نقول أنها أيضاً طريق تونكين وكوشنشين ومدغشقر بل إن الحلول في تلك الجزيرة من أهم الضروريات لمراقبة منع التجارة في العبيد كما تقضى به المعاهدة بيننا وبين إنجلترا .

هذا بعض ما أنتجته سياسة جلادستون في مصر وربما يسكن روع أمته ويخفف إزعاجها من هذه المباراة الجديدة بينها وبين فرنسا على سواحل البحر

— ١٩٥ —

الأحر بتذكّار ما أعقبته المباراة بين الأمتين فى الهند من أزمان ماضية ولكن
شتان بين الزمانين فتلك أوقات كانت سياسة انجلترا خافية على أهالى الهند وكانوا
ينخدعون لها ، أما اليوم فلم يبق فيها خفاء على أحد من سكان الممالك الشرقية
ولعل الغيب يوافينا عن قريب بما يكون لفرنسا مع انجلترا فى هذه المسائل
والى الله المصير .

الشيخ الميرغنى

وردت برقية من سواكن في ٢١ مارس مفادها أن الشيخ الميرغنى ومعه شيخ آخر يقال أنه من مكة المكرمة ذهبا في ذلك اليوم إلى المعسكر الإنجليزي ليحضر خضوع كثير من مشايخ القبائل الذين جنحوا إلى السلم مع الإنجليز . وفي خبر آخر أن هذا الميرغنى صاحب فرقة إنجليزية تسير إلى بير هندوك ليكون على يديه طاعة بعض القبائل في تلك النواحي ، ويقال أن إحداها لم تزل مترددة في قبول الطاعة وعدمه .

هذا مما يعجب منه أن شيخاً يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والإرشاد ثم يقود جيشاً إنجليزياً لإذلال أبناء ملته ، وإخوان دينه وجنسه ، وهو يعلم أن شرفه شرفهم ، وسيادته بسيادتهم ، ولولاهم ما نال الإكرام والإجلال ، وما أغدقت عليه النعمة ، وتوفرت لديه دواعى الترف والنعيم ، وتمتع بكامل لذاته وشهواته ، كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الإنجليز ، قبل الوقوف على مقاصدهم ، وماذا يريدون من تذليل جيش العرب وإخضاعهم ، هل يصح له أن يأتى أمراً مثل هذا وهو يعلم ما يحذره الشرع وما يبيحه اغتراراً ببعض الأوهام التي لا أساس لها .

وكتب إلينا من مصر والحجاز أن جماعة من العلماء في القطرين حكوا

بمروقه وقالوا إن هذا من أعظم الزلات التي لم يرتكب نظيرها في الإسلام ،
على أنه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الإرشاد ، وإنما نال الاعتقاد
عند بعض السودانين وراثته عن أبيه ، وإنه لم يتميز عن العامة الأميين
في شيء ، وإن كان هذا لا يدفع العجب من فعله . (١)

(١) هذا النص كما ورد في الأصل ويبدو أن ما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني ، وهو في
عنفه ، يمثل صورة من صور الرأي العام حينذاك . وما لاشك فيه أنه قد بنى حكمه هذا مما تجمع
لديه من معلومات ، ولا يخفى أنه كان موجوداً في باريس عام ١٨٨٤ . فاذا قدرنا الظروف التي
كانت تحيط بالموقف ، وبعد الشقة ، واستحالة الوصول إلى مصادر ثقة يعول عليها لما يجعل الأخذ
بهذا الرأي في موضع الحذر والحيطه . ولا ننسى أن الخلاقات الطائفية كانت على أشدها في شرق
السودان في ذلك الوقت (الناشر)

خرطوم

في الجرائد الفرنسية نقلا عن الإنجليزية أن أشياع محمد أحمد كانوا في مساء الثالث عشر من شهر مارس ثلاثة آلاف على القرب من خرطوم ، وفي صباح الرابع عشر وصلوا إلى ستة آلاف وهو يدل على أن الجنرال جوردون عنده شيء من قوة الدفاع حيث لم تقدم تلك القوة على مهاجمة المدينة ، لكن ماذا يجبي من طوعه أن يفعل مع هذه الآلاف المؤلفة التي تتضاعف يوماً بعد يوم وهم يحددون بمحل إقامته من جميع الجوانب ، ومما يدل على أنه في أصعب المضايق بل على شفير الخطر اتفاق الجرائد الإنجليزية على دعوة حكومتها لإيقاظه بنهاية السرعة . وفي أخبار الخامس عشر من الشهر أن فرقاً من الشاوين متحصنون على شواطئ النيل بمقربة من حلفا ، على مسافة بضعة أميال من شمال خرطوم ، وأنهم أطلقوا النيران على مركب كانت تسير في النيل حاملة ثلاثمائة رجل استقدمهم الجنرال جوردون وقتلوا منهم نحو مائة إلا أنه تيسر للجنرال استخلاص باقيهم ، واستبشرت التاييس بهذا الظفر الذي تسنى للجنرال بتخليص بقية القادمين إليه وإن أظهرت غاية الكدر من كونه في خطر عظيم ، وثائرة السودان تحيط بجميع أطرافه وتستحث حكومتها على إنقاذه ما استطاعت (والله يعلم كم بين ذاك الاستبشار وهذا الإنذار وهما في فصل واحد) .

* * *

وفي برقية إلى الدبلي نيوز أن طرق خرطوم منقطعة ، وأن القبائل المذعنة لحمد أحمد محدقة بجميع جهاتها ، وأن ثلاثة من تلك القبائل وافرة العدد وعلى مقدمتها جم غفير من المشايخ والدراريش يزحفون قصد الاستيلاء عليها ، ويظن عموم الناس أن لاسبيل لدفاعهم عنها أو تخليصها منهم إلا بإنجاد عساكر إنجليزية ، وقال مراسل التاييس في ٢١ من الشهر : أن من الواجب على الحكومة الإنجليزية لإغاثة

الجنرال جورودون فإنها فد ألقته في فم الأسد وسيكون فريسة المنية إن لم ترسل
المساكر إليه بغاية السرعة .

وجاءت الأخبار مؤكدة إن حصن كسلا تحت محاصرة الثائرين ،
وأن القبائل في جنوب بربر جميعها في هيجان وثورة شديدة .

وهذا كله يؤيد ما قلناه مراراً من أن هذا المدعى يخشى من قوة بأسه
وسريان دعوته إلى جهات بعيدة ، فإنه إذا اسنقر قدمه في خرطوم لم نلبث أن نسمع
بظهور دعواه في أسوان .



تحكم اللورد دوفرين

نهجت دولة الإنجليز في معاملتها للدولة العثمانية منهجاً جديداً بعد حرب الروس ، تأخذها بالتهديد والتهويل في كل ما تروم قضاءه من أغراضها في الممالك العثمانية ، ولا تراعى فيما تفعل قانوناً دولياً ، ولا عهداً سياسياً ، وتتحكم بجبروتها في تحديد المواعيد وتعيين الأوقات ، وأعظم ما يكون من مرهباتها الوعيد بتغيير قلبها عن وداد تلك الدولة أو اشمئزاز نفسها منها ولا تفرق في نهجها هذا بين صغار المسائل وكبارها .

ومن ذلك ما رواه جميع الجرائد من اشتداد اللورد دوفرين سفير إنجلترا في الأستانة على سعيد باشا الصدر الأعظم وإغلاظه له في القول عند التكلم في شأن شركة عثمانية تحت رعاية دولته بهرام أغا ، منحها الباب العالي امتيازاً بتسيير سفن النقل على شطوط البحر الأبيض ، وكان هذا العمل في يد شركة انجليزية (لم تأخذ به امتيازاً) فامتعض اللورد دوفرين وطلب من الباب العالي استرداد منحه فلم يجب طلبه فذهب يوم الخميس الماضي إلى الصدر الأعظم وخشن له المقال ونسب إلى الباب العالي تعمد المراوغة ، ولما تنصل له الصدر بأن هذا ليس من خصائصه بل يتعلق بوزير الخارجية ، قال إنه لا يخبر فيه وزارة الخارجية (وإن كان من خصائصها) وإنه يلقى التبعة على الصدر الأعظم إذا تأخر الجواب بقبول حجته وإن لا بد من تعويض لمن أصابته خسارة بسبب هذا الامتياز من الإنجليز ، مع تحرير اعتذار رسمي وعزل وإلى أزمير فإذا بلغ أمرنا إلى الخوض بكل تهديد والاقتياد بأى إرهاب ، وصارت مسائلنا الداخلية تحت اختيار من يستطيع أن يلقى التبعة ، ويبالغ في الخشونة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

مقاصد انجليزية في مصر

في كل يوم تلج جريدة التايمس على حكومة انجلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية . زاعمة أنه يحل من الأهالي محل القبول ، ويسرون عنه غاية السرور ، وتشير على الحكومة أيضاً أن تجبر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعه تحصل من مداخلتها في تلك البلاد ، وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها في حاجة إلى إصلاح حقيق ولن يقوم به إلا رجال الإنجليز .

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكنه من السلطة على البلاد المصرية ، وضمها إلى ممالكها الشرقية ، وما كان ذلك خافياً على أحد وإن كان بعض المصريين غلطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم .

وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم ، ثم هي تمهيد في تحسين ذلك بدعواها أن أهالي مصر يفرحون منه مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ولسون إنما كان منشؤها العزم على تقليل عدد العساكر واقفال المدرسة العسكرية ، فالمصريون وهم المسلمون لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج .

— ٢٠٢ —

حجة نوبار باشا

في برقية من القاهرة بتاريخ ٢٢ مارس أن نوبار باشا أقام الحجة على المستر
كليفورد لويد (وكيل الداخلية المصرية) ورفع حجته إلى الماجور بارنج .

* * *

هذا الذي بقي لأولى الأمر من الشرقيين يقيمون الحجج والبراهين ويتنعون
بأن برهانهم سالم المقدمات صحيح النتيجة عند العقل إلا أن بعضهم يقيم حجته على
بعض الدول عند بعض آخر منها وبعضهم يقيمها عند أوليائه من الأجانب وهو منهم
وفيهم . إن هذا شيء عجاب .

عثمان دجمة^(١)

في البرقيات الأخيرة أن فرقة انجليزية ستفارق هندوك وتتوجه إلى نواحي
ثمانية (محل المعركة الماضية) لتعسكر في تلك الجهات أیظنون أن إقامتهم بها يكفي
لخضوع القبائل . غير أن عثمان وعد قومه بأنه سيأتيه أمر إلهي بعد ستة أيام ليبيد
بقوته عساكر الإنجليز ، وأشيع أن محمد أحمد سيبعث إليه عدد .

(١) وصحة هذا الاسم كما ينطق به أهله عثمان دجمة — دجمة — . وهو من قبيلة الدجناب
شرق السودان .

معاملة محل أحمد للرسل المسيحيين

جاء إلى خرطوم ضابط مصري كان في عبيد ، وأخبر أن رسل الكاثوليك في تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد على حرية تامة تجرى عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم في كل شهر خمس تليرات (ريالات) ونصف وأن كنيستهم مفتحة الأبواب وإن كانت المدارس معطلة للضرورة .

وهذا العمل منه يرشد إلى أن له دهاء وذكاء وخبرة بما يجب الأخذ به في معاملة أرباب المذاهب والأديان المخالفة لدينه ومذهبه ، وهذا يزيدنا خوفاً من استفحال أمره وانتشار دعوته .

أخبار أخيرة

* كتب مراسل الدبلى نيوز المرافق للجيش الإنجليزى فى سواحل البحر الأحمر أن الجيوش الإنجليزية تقاسى مصاعب ومشاق شديدة فى قطع الطريق إلى حيث تلتقى مع جيوش عثمان دجمة لثلاثهم معها فى القتال مرة ثالثة ، فإن الحر شديد والمسالك وعرة والمياه مضرّة بالصحة ، مع قتلها ولم يجوزوا إلى أول مرحلة إلا وقد أجهدهم التعب ، واستولى عليهم الوهن . فأعجزوا أربعمائة منهم عن السير .

* قالت جريدة الثان أن هذا الهجوم لم تتبين غايته ، ولما سئل عنه مستشار خارجية انجلترا فى البرلمان لبس فى الجواب وراوغ فى بيان الحقيقة ، كأنه يريد التملص مما عساه أن يرد عليه من بعد وإخفاء المقصد ، حتى إذا لم ينجحوا فيه ستروا ما يلحقهم من خجل الإخفاق فى السعى . وموهوا على ما يمسمهم من الشين ، وغلب على الظن أن القصد منه فتح الطريق بين بربر وسواكن لتتمكن حكومة الإنجليز من مخاربة الجنرال جوردون من جهة سواكن (حيث تعسرت عليها من طريق الخرطوم بعد محاصرتها بجيوش محمد أحمد من أطرافها المتصلة بالنيل) .

* ويقول مراسل الدبلى نيوز أن الشدة لو دامت بالعساكر الإنجليزية على حالتها الحاضرة ، فلا بد أن تصير غنيمة باردة لعثمان دجمة وفريسة ناجزة لأشياعه .

* وفى جريدة التايمس أن القلق فى لندن شديد ، والاضطراب بالغ فيها حده ، وعموم الناس يتطلعون إلى الأخبار المصرية دقيقة بعد دقيقة ، وأتبع ذلك تلك الجريدة بقولها إن لم يتيسر لحكومة انجلترا فتح طريق بربر بهذا الزحف الجديد ، ضعف الأمل من فتح هذا الطريق فى وقت آخر ، وعز على انجلترا إجراء فرضته على نفسها فى الأفطار المصرية ، وقل الرجاء فى تسوية المسألة السودانية بطريقة محمودة .

— ٢٠٦ —

* عازمت حكومة روسيا بعد حلولها في مرو على أن تجعل وراء بحر الخزر من البلاد الداخلة تحت سلطتها حكومة خاصة بها لها مركز معين وقاعدة ترد إليها أحكام تلك النواحي ، حتى تسهل المواصلات بينها وبين مرو ، وهذه حركة جديدة لدولة روسيا في أطراف آسيا ، وهي وإن كانت لاتسبر المحبين لانجلترا ولكنها لاتحزن أعداءها .



نصيحة

أشد ما كانت هيبة الإنجليز وملكتها على الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الألوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجة على أميال من سواحل البحر الأحمر ، وكان يخيل للسودانيين بل يلبس اعتقادهم أن القوة الإنجليزية مما فوق الطبيعة وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار أحرار غرائب القدرة البريطانية بلغت مقالع السحر ، تدهش الأبواب وتحر العقول ، وإذا خلع في صدور أمة من الأمم صغيرة أو كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، أو تناوئها في مرغوب ، انشقت الأرض وانفطرت السماء ، عن كفة من الإنجليز يصبون عليها أصوات العذاب ، ويذيقونها أليم الوبال ، ويخلبون الأرواح من الأجساد ، فيغلبون ولا يغلبون ، خصوصاً إن كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم ، مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض .

إلا أن هذه الدولة العظيمة ألقاها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب في نواحي سواكن ، فتحركت الجيوش المنظمة للملاقاة عثمان ورجاله وبنى القواد في الزحف قلاعاً « مربعات » من العساكر الباسلة . مدرعة بلوامع من حراب البنادق « السنج » مسيجة بالآلات الجديدة ، من صنع (رمتون وهنرى مارتين) ، على أجود طراز يكون منه ، وحصنها بأبراج من المدافع لا تدانيها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو إليها منهم قدرة ، لكن قوة اليقين أو تحكم الجبل دفع على الصفوف الإنجليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها ونقضوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتضام وتقدم وتأخر ، في موقعتين عظيمتين ، كر الإنجليز إلى سواكن « ساحل البحر » وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال وعج الإنجليز غلبنا واتقمنا .

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين ، ثبتت أقدامهم وقوت حاشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقات خصومهم ، لأن شدة الحر كانت من أعدائهم أو نصرائهم ، حيث ألجأت العساكر الإنجليزية للجلاء عن تلك الديار ، فأسرعت إلى البحر لا يستقر لها قدم إلا في مصر أو إنجلترا وما أثارته هذه الغلبة في قلوب السودانيين من نائرة التهور دعاهم لتضييق الحصر على خرطوم ، لما علموا أن ليس في قدرتهم أن يفتقروا أثر الإنجليز في البحر ، ولا يستطيعون الإيفال في طلبهم وهم على غوارب الموج ، ولما اشتد الضيق بمن في خرطوم نهض الجنرال جوردون بشجاعة الأبطال لرفع الحصار فلم تكن إلا كرة تبددت فيها جيوشه وأعقبها فرة إلى داخل المدينة لينتظر ما يأتى به القضاء .

ولكن ليستر وجه الهزيمة رعى ضابطين عظيمين من ضباط المصريين بالحياة ، وأمر أن يضربا بالرصاص فضربا وماتا ، وهما حسن باشا وسعيد باشا « في أخبار البرقيات » أما هذا القلب في السواحل على هذه الصورة البديعة ، وما حل بجوردون فقد أسقط من شأن إنجلترا وقوتها في أقطار السودان عموماً ، وجعل كلمتها هي السفلى وبعث السودانيين على الاعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد أحمد ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

خطب يعقب خطباً ، وكرب يحدث كرباً ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكشر النوابون والرجاوت عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلى ما تطول ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح القرص من خلال هذه الحوادث ، انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الإنجليزية من مصيبة هكس إلى ما بعدها في جميع أرجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ويرجعوا على أنفسهم باللامعة فيما فرطوا من قبل وهم على ربوة الأمل ، يستطلعون سوانح القرص خصوصاً المسلمين فيهم ، كما أنبأنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار

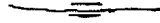
مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن أن الدولة الإنجليزية وعماد قوتها الإيهام والتفريز يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى في نفوس الشرقيين ، خصوصاً إذا أقضت حوادث خرطوم إلى قتل جوردون أو أسره واقتتاح تلك المدينة وهي عاصمة السودان .

يزيد الطين بلة أن يشتد العثمانيون ويأخذوا بالحزم وقوة العزم في صيانة حقوقهم بأى وسيلة كانت ، وربما نراه واقماً فإن العقلاء منهم لا ينفلون عن حاجة الإنجليز لمسالمتهم لأن الإنجليز يحكمون على خمسين مليوناً من المسلمين جيمهم يعترفون بحقوق السلطان ويجيبون داعيه إذا دعا ، وهم له أطوع من الترك أنفسهم ، والحدائق من العثمانيين وإن كانوا يرون أن إنجلترا لا تعامل الدولة إلا بالتهديد والإرهاب ، وجعلت هذا طريقاً لنيل أغراضها منها ، إلا أنهم يعلمون أن من المحال على إنجلترا أن تشهر على الدولة حرباً ، فإن سياسي بريطانيا ، وهم أشد الناس خبرة بدقائق الأمور ، فضلاً عن جلالها ، لا يخفى عليهم ما تكنه قلوب الهنديين من محبة صاحب السلطة الإسلامية ، بل هم على يقين بأنهم لوجهروا بالحرب للعثمانيين لتقوضت سلطتهم في الهند لأول وهلة ، لا على المسلمين خاصة ولكن يتبهم الوثنيين وهذا ظاهر عند كل انجليزي وإن خفي على بعض العثمانيين ورام ستره عن باقيهم .

الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلاً في قلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في لاهور أن محمد أحمد لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقه مهدياً وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده .

بعد هذا كيف يمكن للإنجليز دفع غائلة محمد أحمد ، حر السودان منع وسيمع من جولان المساكر فيه ، وطلب المساكر من كوركوسيك بعد شيوع هذه الدعوة في الهند مما لا تجوزه الحكمة ، ولا تظن أن إنجلترا تثير حرباً صليبية بحكومة الحبش على مسلمي السودان ، لأنه يفسد عليها أمر الهند ويخالف أحكام المدنية الحاضرة .

فما هي آخر الحيل؟ أليكتفي بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسرى ليهيها
إلى مصر العليا بل إلى السفلى، إني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه
الدعوى، وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انجلترا وبكل من له حق
في مصر، فعلى الإنجليز كما نصحننا مراراً أن يصونوا بلادهم، ويحفظوا طريق الهند
بتفويض الأمر للعثمانيين، وأولى العزم من المصريين قبل فوات الوقت، وإلى الله
ترجع الأمور.



الدولة العثمانية

قالت جريدة (الميموريال ديبلوماتيك) أنه لم يؤخذ عن الباب العالي خبر إلى الآن عن المنشور الذي عزم على إرساله للمصريين ، إلا أنه محرر تام وفيه أن الدول ستدعى إلى المداولة التي قطعها إطلاق المدافع على اسكندرية « المؤتمر » ولن يعدل الباب العالي عن نشره إلا إذا قبلت إنجلترا أن تكون غابرتها معه في تسوية المسائل السودانية المصرية بطريقة جدية « لا هزلية » ولم نردد يقيناً بما ذكرته هذه الجريدة في أن الدولة العثمانية لا تتساهل في حقوقها على مصر وأنها تبذل ما في وسعها للدفاع عنها ، وكانت لنا ثقة تامة بمزاعم العثمانيين وأنهم لا بد أن يقدموا لصون بلادهم المصرية من استبداد غيرهم فيها .^(١)

ولهذا تجزم بأنه لا يروق للدولة العثمانية ما ذكرته جريدة « الدبليو » من أن المستر جلادستون سيظهر عن قريب بحماية حكومته للأقطار المصرية ، وأنه سيخبر الدول في تحديد أمد الحماية ولا يكون أقل من خمس سنوات ، وفي أمله أن الدول لا تمنعه فيما يريد الاتفاق معها عليه في هذا الشأن بل تعتبره حقاً قانونياً أوجبه بذل الأموال الإنجليزية وإراقة الدماء البريطانية . وفصلت هذا الخبر بعض الجرائد الفرنسية وبوبته وأشارت إلى ما أجابت به بعض الدول .

فليس مما يخطر ببالنا أن الدولة العثمانية توافق على ما تطلب إنجلترا

(١) هكذا كانت الدول تلعب بمصر ١١٠٠٠

— ٢١٢ —

لو فرضنا أن الدول سمحت للإنجليز بحمايتهم لمصر مدة محدودة أو غير محدودة ،
فإن الحوادث لا تؤمن وتقلبات الأيام لا ثقة بها ، فيمكن في خمس سنوات
بل في أقل منها أن تتبدل القواعد السياسية ، بل ينقلب وجه السياسة انقلاباً
لا يعرف ، والسياسيون لهم في كل حادث علة لحو المعاهدات وتأويل الوثائق .

— — —

انجلترا في سواحل البحر الأحمر

وقع ما أنبأت به الجرائد الإنجليزية من بضعة أيام ، فإن الجيوش البريطانية زحفت للملاقاة عثمان دجمة بعد أن قاست أليم العذاب من وهج الحر ولهب الشمس ، وأصيب منها عدد وافر بالوهن والضعف ، حتى عجزوا عن مداومة السير ، وصار بقية العسكر في زحفه وانتظموا على أشكال مربعات تشاكل ما انتظموا عليه في الموقعة الماضية إلا أنهم لم يتلاقوا مع خصمهم ، وأفاد التقرير الإنجليزي أن السبب في عدم الالتحام وصلت العساكر إلى قرية ثمانية ولم تجد عنها مدافعاً فأحرقها ، ورجعت إلى سواكن ولا يخفى أن جميع أخبارهم قبل هذا الزحف كانت متفقة على أن عثمان يبعد عن ثمانية بتسعة أميال ، وأن مسيرهم هذا كان للملاقاة حيث يعتصم فلم يكن هناك داع لحرق قرية ثمانية ولا الأخبار بأنه لم يوجد مدافع عنها إلا ما تعود عليه الإنجليز في حروبهم إذا لم يصادفوا ظفراً يحرقون ويخربون وإن لم يكن من يصيبونه بأعمالهم محارباً لهم حتى يقولوا ظفرنا وأحرقنا وأتلفنا ، وورد إلى الجرائد الفرنسية أن تقهر عثمان إنما كان ليحشرهم بين شعاب الجبال ثم يغير عليهم ويفتك بهم كما فعل رئيسه (محمد أحمد) بعساكر الجنرال هكس ويظهر أنهم لما أحسوا بهذه المكيدة ووجدوا من أنفسهم ضعفاً عن مقاومة العرب في جبالهم كروا راجعين إلى سواكن واحتججن بشدة الحر سترأ للعجز وتقديماً لبارد العذر ، والجرائد الإنجليزية في قلق واضطراب شديد ولهج أغلبها بحث حكومتها على استدعاء العساكر من سواحل البحر الأحمر ، متعلقة بأنها وإن كانت من حامية الهند ولها جلد على احتمال الحرارة ، إلا أن أثر الحر السوداني ظهر فيها بسرعة شديدة ويخشى عليها من التلف الكلى ،

وأخرى ان يخاف على سواها ممن لم يفارقوا انجلترا إل الحرب السودان . ويغلب على الظن أنهم شعروا بقوة محمد أحمد وثبات عثمان والتهاب الحمية في قلوب المسلمين بتلك الأطراف ، فاستفزهم ذلك إلى إخلاء وجوههم وخوفاً من أن يحل بجيوش السودان الشرق ما حل بمساكر الجنرال هكس وتستروا بالشكوى من شدة الحر واحتدام نار القيظ ، مع أن وهج الحرارة في جنوب الهند حيث كانت تحمل هذه المساكر كما ذكرته جرائدهم أشد منه في سواحل البحر الأحمر .

وما قاله الجنرال جراهام والأميرال هفيت أن الحركات العسكرية قد انتهت على شواطئ البحر الأحمر ، يثبت اعتراف هذين القائدين بعجزها عن فتح الطريق ما بين البحر الأحمر وبربر ، ومساعدة جوردون من هذا الطريق . وبناء على ما أبديناه من البأس صدرت الأوامر إلى الجنرال جراهام بإخلاء المواقع الحربية وإجلاء المساكر عنها والخروج من سواكن بما يمكنه من السرعة ، وأعقب الأمر اجتماع المساكر بأسرها في تلك المدينة ويقال أن فرقة منها تسافر في التاسع والعشرين من مارس إلى مصر وانجلترا . وهذا الأمر لا ريب يعده أشياح محمد أحمد والمدعنون لدموته فتحاً إلهياً وتأييداً ربانياً ، فيقوى اعتقاد المخلصين له ويقطع شكوك التردد في قبول دعواه ولربما يذهب الوهم بالسذج منهم إلى أن الله أيدهم بالملائكة السوميين ، فكشفوا عنهم عدوهم وبعد هذا تجتمع كلمة القبائل وتثبت أقدامهم في مواقف القتال ويزداد حرصهم على تعميم دعوى محمد أحمد ، ومغالبة من لم يذعن لها ويكون هذا الظفر الغريب أقوى برهان لهم على صدق دعواهم .

هذا ما أدت إليه سياسة الدولة الإنجليزية التي وطئت بأقدامها أرض مصر لإخماد الفتن لم تجلب مداخلها إلا تعالى اللهب وقوة الضرام ، وبعد ما سقط في يديها وخابت في سياستها تجافت عن تسليم الأمر لأربابه القادرين على تلافيه من المسلمين ، حتى يحصل الأمن للأجانب والوطنيين ، وتحقق الدماء وتحفظ الأموال ، وعمدت

إلى الاستنجد بحكومة الجيش لحرب السودان ، ولم يأخذها خجل في ذلك وهي تدعى أنها حاملة لواء التمدن والقائمة بنصرة الإنسانية وتتلو آيات الإنجيل أثناء الليل وأطراف النهار ، ثم تستدعى حكومة خشنة غير مهذبة كحكومة الجيش لمقاتلة قوم آخرين وإن كانوا ليسوا بأقل منهم خشونة لتشتبك حرب بربرية تحرق فيها المدن والقرى وتسفك الدماء الغزيرة ويفتك فيها بالأولاد والنساء والشيوخ ومن لا جريمة لهم حتى يفنى بعضهم بعضاً ، ولم تبال في التماس هذه المساعدة أن تصرح للحكومة الحبشية أن الغرض منها كبح المسلمين في السودان وأضاف قوتهم لتثير بذلك حرباً دينية تذكر العالم بالحروب الصليبية . فقد جاءت الأخبار إلى الجرائد الفرنسية : أن دولة إنجلترا تلتزم من يوحنا ملك الحبشة أن يمدّها بجيوش للدفاع عن سواحل البحر الأحمر لعجزها عن حمايتها بنفسها وإطفاء ثورة المسلمين وإخضاعهم وبعثت إليه قائد أسطولها ليتفق معه على شروط هذه المساعدة وما يغتمه بعد القيام بها ، وفي جريدة (الميموريال ديبلوماسيكي) أن من جملة ما تطلبه إنجلترا من الجيش فضلاً عن الإنجاد الحربى أن يتخلى لها عن جزيرتين في البحر الأحمر لتحل فيها بعضاً من عساكرها وله من العوض ما يكافى الأمرين جميعاً .

يريد محبنا الصادق أن يقدم للجيش جزءاً من أراضيها مكافأة له على ما يريد منه ولم يغفل عن مراعاة المراجعة التجارية حسب عادته ترغب إلى الجيش أن يتنازل له عن أملاك في البحر الأحمر ، فليعتبر المعتبرون .

عودة إلى خرطوم

نوهنا مراراً للمسلمين عموماً ، والمصريين خصوصاً ، من الانقباض عن حرب إخوانهم وإراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم في الجنس والاعتقاد لا يعلمون لها عاقبة ، ولا يدرون من يجتني ثمرتها ، بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين ، ربما كانوا أعداءهم أو يكونون أعداءهم ، ولهذا لم يأخذنا عجب من خذلانهم لهكس في السودان الغربي ولا لباكر في السودان الشرق ولا بما بلغنا في هذه الأيام من خذلان جوردون في خرطوم ، ولم يحتلج في صدرنا ولا في خطرات أنفسنا أن انهزامهم في هذه المواقع منشؤه الجبن والخور أو الاختلال والنقص في الآداب العسكرية ، ولكن نعلم أنهم يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب . أما الجرائد الإنجليزية وقواد الإنجليز فهم يبالغون في جبن العساكر المصرية وإختلاها ليتطرقوا بذلك إلى ما في عزم حكومتهم من طرد الجيش المصرى الوطنى وإقامة جيش انجليزى مقامه ، حتى يتمكنوا بجيشهم أن ينالوا ما تطمح إليه أنظارهم في المستقبل .

ومن هنا لا يستغرب عارف بحقيقة الأمر ما ذكره مراسل الناييس في خرطوم من أن جوردون باشا عندما اشتد عليه الحصر من أشياع محمد أحمد خرج بألئى جندى من الجنود المصرية وبعض العساكر غير المنظمة (الباشبوزق) ليفرق المحاصرين وبعدهم عن أبواب المدينة فلم تثبت الجنود لأول الملاقاة وانحاز منهم خمسة ضباط إلى قبائل العرب وعمد أثنان من أمرائهم (بشاوات) إلى قتل من كان على المدافع منهم ليطلقها على إخوانهم التابعين لمحمد أحمد ، ويقال أن جوردون قبض على الأميين ووضعهما تحت المحاكمة العسكرية وآخر الأمر اضطر جوردون إلى الدخول وراء

الحصون بعد أن تبدد جيشه وقتل منه مائتان على مارووا ، ولم يقتل من الثائرين إلا أربعة وغنم العرب من ذخائر جيش جوردون مقداراً وافراً ، مع أن المهاجرين منهم كانوا فئة قليلة لا سلاح لهم إلا الرماح والحراب ، وجيش جوردون كان ألنى رجل شاكي السلاح من الطرز الأوروبي الجديد .

هذا يكون من المصريين لأنهم تحت قيادة أجنبي بأمرهم بأوامر دولة أجنبية ، ولو كانوا في أسرة أمير مسلم مصرى ولهم ثقة بعاقبة ظفرهم أن تكون لبلادهم وملتهم ، لرأينا منهم ما رأى العالم وشهد به الكون لهم من الشجاعة والإقدام أيام محمد علي وإبراهيم باشا .

وبالجملة فقد أرجع جوردون بعد تغلب الثائرين حاميته إلى مأمته في خرطوم يوم السادس عشر من شهر مارس (الماضي) ويقول مراسل التايمس أنه يمكنه التمتع في الحصون بعض أيام إلا أنه لم يجرأ على الخروج مرة ثانية .

* * *

الجرائد الإنجليزية تحكي ما هال أهل بريطانيا من مصيبة جوردون وتندر بخطر عظيم يحل به وفي جريدة « الديلي تلغراف » أن هلاك جوردون أو وقوعه في أسر محمد أحمد يذهب بالأعمال الحربية التي قامت بها تلك المساكر الإنجليزية في السودان ، ويجعلها هباء كإن لم تكن ويزيل أثر تلك المواقف الدموية فتكون نسيئاً منسياً ، وقالت جريدة « الستاندرد » ليس من الممكن لنا أن نتأخر دقيقة واحدة إلا إذا أردنا أن نلقى بجوردون إلى هاوية الهلاك ، وبالسودان إلى الفوضى (نعم لا بد أن يخافوا على السودان من الفوضى كما خافوا على مصر منها) وفي التايمس لا بد لا بجلترا أن تظهر عزيمتها في الأحوال الحاضرة وتأخذ في عملها بالشدة حتى يعلم ذلك منها عند الكافة من الإنجليز ، ومن آمالها أن الأمة الإنجليزية تؤيد الحكومة فيما تعزم عليه وأنه لا سبيل لإيقاد جوردون إلا بتصميم الحكومة الإنجليزية على مازيد (ولم تفصح التايمس عن تلك العزيمة ما هي ولا متصمم عليه الحكومة ما هو لعل كل ذلك هو هذا : لا بد أن نفعل ولا بد أن نترك ولا بد أن نكون ولا بد أن لا نكون) .

قالت جريدة التان الفرنسية أن هذا الخطب الجديد أحدث من القلق في إنجلترا مالا مزيد عليه وعموم الناس فيها يعتقدون أنه إن لم ترسل الحكومة جنوداً لإنقاذ جوردون فهو هالك لا محالة وجميعهم يعلمون مقدار التبعة التي تحملها الوزارة (الإنجليزية) إذا مات أو أسر جوردون فإنها هي التي ألقت به في هذه التهلكة ، والجرائد عموماً على اختلاف مشاربها متفقة على القول بأن موت جوردون باشا يكون وصمة في شرف إنجلترا لا تمحوها الأيام .

إن وزير الحرية الإنجليزية يحاور سائليه من الحزب المضاد في مجلس النواب ويرأوغيهم في الجواب ويتعلل بأن الحكومة لم تعد المجلس وعداً صريحاً بأن تبين مقاصدها في السياسة المصرية ويزعم أنه لا يمكن أن يفيد بتفاصيل عن أحوال خرطوم لإقطاع الأخبار ، لكنه يعترف بهزيمة الجنرال جوردون وبما هو فيه من الشدة والضيق ، إلا أن اللورد نورثبورك لم يزل مصرأً على طلبه من الحكومة بيان سياستها في المسائل المصرية والسودانية بالتفصيل ، وقال اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات إنه لا يرى من السهل في هذه الأوقات أن تفتح الطريق بين سواكن وبربر وخطأ القائلين بسهولة وأفاد المجلس بالفشل الذي حل بالجنرال جوردون .



أمانى انجلترا فى حركات محمد أحمد

صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات بأن المقاومة الشديدة التى لاقوها من قبائل العرب ورؤسهم عثمان فى سواحل البحر الأحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة فى تمكين سلطة محمد أحمد فى البلاد السودانية ، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات والترامى على الموت عدوانهم للإنجليز ولا طمعهم فى توسيع الفتوح وإنما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد أحمد فى السودان خاصة . وهذا من اللورد إماغلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهدوية بل لوازمها التى لا تنفك عنها فإن القائم بهذه الدعوى لا يقف فى سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم وأحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعته الذى يدعى النياية عنه فى تبليغها وصيانتها فى نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقاً فى دعواه أو كاذباً ، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض سوداناً كان أو مصرأ أو غيرها من البلدان إلا بتقدمه إلى ماورائها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحراف عنه ، ويكون له التصرف التام فى قلوب لمسلمين ، يأخذ منها مكاناً علياً يشرف منه على مطامح دعواه فى غيرهم من الأمم ، وسواء يسر الله له النجاح فى ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن ، ولكننا نتكلم فى الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات إن حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول أمارة كوردفان والاكتفاء بها ، ولا يعلم هل قبول محمد أحمد لتلك الولاية يكون حجاباً بينه وبين التقدم إلى سواها ، فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك ، ولا طلب حق له فى الأمارة كان يرثه عن آباءه ، وإنما قام بدعوى لانهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية ، فليس يكافى قوة دعوة إسلامية إلا عزم إسلامى ، ولن يكافح

— ٢٢٠ —

هذا المدعى ويرده إلى قدره إلا رجال مسلمون ، يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها ، فإن لم يرد لحكومة اللورد خبر إلى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ، ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه ، نسأل الله حسن العاقبة .

بعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبار مصدقة لما قلنا في برقية من مكاتب التايمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاءوا مرسلين من قبل محمد أحمد إلى الجنرال جوردون وأرجعوا إليه علامات الشرف التي كان بعث بها إلى مرسلهم ، وبلغوه أن محمد أحمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الإسلام فهو خير له .



الحزم والعزم

إن أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا إلى قصد لا يفترقون في طلبه ، وعلو الهمم فيهم تجعل لديهم كل صعب سهلاً ، وكل بعيد قريباً ، يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف ، ويتجشمون المصاعب للوصول إليه وبلغوا من محبة المجد حداً لا يرونه غداء لأرواحهم فقط بل عدوه من مادة الماء لأبدانهم فهم يفرقون خوفاً إذا عرض وهم لفواته ، خشية من هلاكهم وذهاب حياتهم ، لهذا ترى الرجل منهم يحب فيافي أفريقيا ، ويتسنى جبال سيريا ، ويخالط قبائل وشعوباً لا يعرف لهم لغة ، ولا يألّف لهم عادة ولا أخلاقاً ، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش ، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم ، وهو في كل وقت يقع بين أنياب النية منهم ، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل . كل هذا ما يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته ، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته .

ومن هؤلاء الرجال بل من أحزمهم وأجلهم صديقنا الهمام البطل الشهيد المستر أوكلّي أحد نواب البرلمان الإيرلنديين ، جاء إلينا من أشهر على عزيمة السفر إلى عبيد وسألنا أن نقدم له ما يسهل له الوصول مع الأمن على حياته ، فأجبناه بتحرير رقائم إلى من لهم اليد الطولى في مساعدته ، ووردت منه المكاتيب تبشرنا بنوال مبتغاه ، وفي هذه الأيام جاءتنا برقيات بوصوله ومنهم رجال من عظماء الفرنسيين الأحرار ذهبوا إلى مثل مقصده وتوسلوا بمثل وسائله وهم اليوم يتوسطون الطريق . ونرجو لهم سلامة الوصول .

— ٢٢٢ —

ورجاؤنا أن يكون في هؤلاء أسوة للشرقيين ، لا تقعدهم الأوهام الباطلة ،
ولا تنميمهم الأحلام الكاذبة ، ولقد كان لهم في أسلافهم أسوة حسنة ، ولكن
من الأسف نحتاج في تذكيرهم بما لهم من سابق المجد إلى ذكر أحوال الحاضرين
من غيرهم . والله الأمر من قبل ومن بعد .

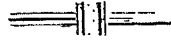


أسطورة

ذكروا في أساطير الأولين أن هيكلًا عظيمًا كان خارج مدينة اصطخر وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام وما أوى إليه أحد إلا غالته النية فيأتي طلاب أثره لقص خبره فيدخلون الهيكل في ضوء النهار فيجدوا به ميتًا ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سببًا للموت ، واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من البيت به حتى ضاقت الدنيا برجل ، فاختر الموت على الحياة وصعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصنع إليهم وقال إنما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحاءه إلى حيث يظن مهلكه ، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جماعًا عظيمًا يخاطبه : هانحن قد أتينا لإتلافك . هانحن قد أتينا لإزهاق روحك هانحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك . فصاح البائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة ، ولم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقة شديدة وانحل الطلسم وانشق الجدار وتناثرت منه الدراهم والدنانير وتفتحت أبواب الكنوز ، فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح ولما أضحى النهار ، وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحًا مستبشرًا يسألهم بعض الأوعية لمل ما وجده من الذهب والفضة ، فاستخبروه قصته فبمد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفرع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها .

— ٢٢٤ —

بريطانيا المظمى هيكى عظيم يأوى إله المرورون إذا أوحشت مظلمات
السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام ، وكم هلك بين جدرانها من لا مريرة
لهم ، ولا نبات لجأشهم ، وأخشى أن يسوق اليأس إله قوى المريرة ، ماقت
الحياة ، فما يكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس ، فينقض الجدار ، وينحل
الطلسم الأعظم .



القوة للحق

أخذت دولة بريطانيا في معاملة الشرقيين لهذه الأيام طريقاً غير طريقها المعروف ، وهي تعلم أن نجاحها في أعمالها لديهم ، وبسطة ملكها فيهم واقتطاف ثمرات جنائهم ، إنما كان بذاك الطريق الممهود ، كآنى أراها اليوم اكتنفت حقائقهم ، وسبرت خلائهم ، ووصلت إلى مكنونات صدورهم ، تجاوزت من ظواهرهم إلى ضمائرهم ، وأدلت بخرائهم إلى قلوبهم ، فأحست سكوتاً ، فحسبته ييساً ، من شدة الجبن وسرت بدقتها في أوعية دماهم ، فشعرت منها بفتور ظنته وقوفاً من شدة الضعف فكان من حسبائها أنهم في نهاية العجز عن أعمالهم ، والقيام بشئونهم ؛ أو أنست منهم الركون إلى المراتب التي نقلت عن معانيها الأصلية ، وجردت عن مدلولاتها : كناظر . ووزير . ورال . وأمير . وهي أشبه بقباب عالية . إلا أنها خاوية خالية . فكان من زعمها أن أمراء الشرق شغلهم بهرجة هذه الصور الظاهرية . حتى أنستهم منافهم الحقيقية . وضرورات حياتهم الجنسية أو المالية . وقنعوا بما يشيده الهم . وزينه الخيال . هكذا ظنت كما تدل عليه أعمالها . ولم يكن ذلك معهوداً منها .

دخلت دولة الإنجليز بلاد الهنديين ومدت عينها إلى ما تتمتعهم الله به من أراضيهم . وطمحت إلى اختطافها من أيدي المسلمين . إلا أنها ذهبت مذهب اللين واللف . وخفض جناح الدل . والظهور في ألبسة الخضوع والخشية . وصارت على هذا السير أزماناً تقطع مسافات كثيرة في مدة طويلة .

نعم كانت تتدرج في نقض أساس السلطنة التيمورية حجراً حجراً . وتتملك أراضيها قطعة بعد قطعة . لكن بدون تعرض للسلطنة الظاهرية ولا مس لنفوذها . كانت تغرى الولاة من النوايين والرجوات . بالخروج على السلطان التيمورى . ثم

تنوب عنه بالمساكر الانجليزية والصينية للتغلب على الخارجين تحت اسم الملك .
ولا تمس رسومه الملوكة بل تلقب نفسها خادمة مأمورة . هكذا كان سيرها . وهو
المألوف من عوائدها .

أما في مصر فقد أظهرت مقاصدها لأول خطوة ، باكورة أعمالها بعد دخول
تلك البلاد غل أبدى الحكومة ، ومعارضتها في جميع أعمالها وصدها عن تعاطي
شؤونها ، وربما كان بخيل للناظر في حركات تلك الدولة أيام كانت تهيب أسباب
الفتنة السابقة ومساعدتها لتقوية ثورة السودان . أنها تسلك سبيلها في الهند ، ولكن
يرى منها السلطان العثماني عن الدخالة في إصلاح بلاده المصرية والسودانية . مع ماله
فيها من الحقوق الشرعية والقانونية ، منعاً صريحاً وفي معارضة ولاية مصر وحكامها
في كليات الأمور وجزئياتها أنها انحرفت عن مشربها وأخذت مذهباً غير مذهبها .

كليفور لويد مستشار الداخلية في مصر وهو بحكم وظيفته من الطبقة
الوسطى في مأموري الحكومة يتحكم على جميع الوزراء المصريين ، ويعارضهم في
تصرفهم ويضع للبلاذ شرائع وقوانين من تلقاء نفسه ، ويخالف توفيق باشا في أوامره
(إلا أنه لا يحسب عاصياً حتى ألجأوا نوبار باشا رئيس النظار (١) إلى تقديم استعفائه
بعد العجز عن مقاومته ، وضاق صدر توفيق باشا من صلابته في آرائه ، ولم تر الحكومة
الانجليزية عزله وإبداله بغيره ، وزعمت أنها لو عزلته لأهانت تاج بريطانيا العظمى
ثم عاجلت هذا الارتباك بتوجيه أوامرها إلى كليفور لويد بأن يقف عند حدود وظيفته
ولا يتجاوز دائرة أعماله ، التي تسمح له بها طبيعة الوظيفة وخصائصها المحدودة ،
وكان للظنون مجال الحسن الظن بدولة بريطانيا ، غير أن جريدة التايمس كشفت
القناع ، ولم تبال بما يחדش خواطر الأمراء الشرقيين ازدواء وامتهاناً ، ومزقت
الستار الذي أقامته حكومتها حجاباً لمقصدها في إلزام كليفور لويد بما ألزمته فقالت :
إن وزارة نوبار باشا مؤلفة من دى (صور وتمائيل) نظمت في أسلاك أطرافها بيد

الحكومة الإنجليزية تحركها كيفما شئت . فعلى كليفور لويد أن يدير الشؤون المصرية بواسطة هذه الألاعيب . تريد أن الحل والعقد في جميع الأحوال إنما هو للوزارة الإنجليزية لكن وراء الحجاب . ثم اعترضت هذه الجريدة على إقامة هذا الحجاب فقالت : إنه وإن كان مفيداً إلا أنه يضر بمصالح إنجلترا ومصر معاً (وكان على الحكومة الإنجليزية أن تبهر بولاية الأحكام في مصر كما صرحت بذلك مراراً) .

أسرعت دولة إنجلترا في سيرها إلى ما تروم في الأقطار المصرية ، بل تهورت على خلاف عادتها وقد يكون مع المستعجل الزلل . لا نظن من الحكمة ما أئته من الأعمال في مصر وربما وجب عليها تدارك ما فرط منها . إن محمد أحمد شمش أمره وعظم خطره وهو من ورثها لا عائق له في سيره . والقوى تجتمع إليه يوماً بعد يوم . وبعد ما تراه في غير هذا الحل من أخباره جاءت أواخر الأخبار بأن المواصلات انقطعت بين القاهرة وبين بربر بالمرّة . وأن جماهير الثائرين يزيد عددهم حول مدينة بربر وقتاً بعد وقت لقصد محاصرتها . ويغلب على ظن الكافة أنهم لا بد أن يغيروا على المدينة بعد قليل ويلتحمون مع حاميتها بموقعة يكون فيها الفصل . وأن مدير بربر أعياه الالحاح على الحكومة لتنجده بعساكر إنجليزية ليفرجوا عن المدينة وينقذوا حاميتها وإلا هلكوا .

فأركبته إنجلترا من طريق التصرف في الإدارات المصرية يخلف ظن المصريين فيها . ويقطع أملهم من وفاء وعودها . ويوجد عليها نفوس الأمراء منهم . ويوغر صدورهم . ويحقق لدى العلماء أن من قصدها التصرف في ولاية بلادهم كما يتصرف الملاك فيلتجئون بحكم الضرورة إلى تلبية محمد أحمد في دعوته أو مساعدته على بعض أعماله . أو تحاذلهم بين يديه وفتح الأبواب له ولا نظن أن إنجلترا تخفى عليها أن علماء مصر ، هم أساتذة لعلماء المسلمين شرقاً وغرباً ، وأن الجامع الأزهر معهد العلوم الشرعية تسير إليه الركاب من جميع الأقطار . ويقصده المسلمون من كل ناحية

لدراسة الدين وروايته . فلو حزبهم الأمر وأعوزهم الصبر وراو ولاية الدين في قبضة من ليس منهم فجرد إشارة خفيفة وإيماء إلى موافقة محمد أحمد سرّاً كان أو جهراً كاف لإيقاد نار الفتنة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية ، وتسابق القلوب إلى الاعتقاد بالمدعى والتفانى تحت رايته . وليس في استطاعة دولة إنجلترا أن تتصرف في أهواء القلوب ولا حركات الأفكار . وأن أسلحتها الجديدة لا تبدد حجاب الخواطر . وشتان بين هذه الفتنة وبين التي يسمونها فتنة عراية . نسأل الله العافية وحسن المصافحة .



المجرائد الانجليزية والعروة الوثقى

لو نادبنا النافلين أن اتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم أو أمانهم أو أوهامهم . أن التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانجليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم . وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم . ولما عساه يخطر ببالهم . لقال الناس إننا نبالح في الإنذار . ونفرق في التحذير . ولو بينا لهم أن الانجليز يؤخذون الأبناء بذنوب الآباء . والأحفاد بجرائم الأجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن أسلافهم . وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف . لعدوا هذا البيان منا شطاً في المقال . وميلا عن الاعتدال . ولو روينا لهم أن في قلوب الانجليز حقداً وضغينة على كل إيراني سواء كان من الأفراد أو الوجوه . ويسئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند . ويمقتونهم مقتاً شديداً . لأن نادرشاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحاً على عهد السلطنة التيمورية . واستولى على خزائن الأموال في دلهي . وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانجليز على تلك المملكة . بما ينيف عن قرن . ويعضون الأنامل من النغيظ . ويحرقون الأرم من الأسف على ما أخذه نادر من أموال دلهي . وحرمانهم من تلك الأموال . ويحملوا هذا الوزر على عاتق كل إيراني . لحسبوا ذلك منا تعالياً ولو قصصنا عليهم ما يعامل به الانجليز رعاياهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً . وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر أندومان أن يمتدح بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن . لأنكروا علينا ما نقول لبعدهم عن تلك الأقطار . وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد إقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانجليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام سلطتهم . فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص ، ولكن نعرض عليهم

نموجاً من المعاملة لعله يكون للمتبعين مرآة تحكى ما غيب عنهم من لوازم السلطة الإنجليزية .

عزمتنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنسية ، فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشرها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها ، فلما وقف على الخبر محرروا الجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة ، واحتدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الإنجليز ، ونفوذها في البلاد الشرقية ، ولجوا في إغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية ، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها ، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسى ، مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لإثارة الخواطر ولا لإيقاد الفتن ، وإنما أنشئت للدفاع عن حقوق الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم . ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال ، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل . كما يظهر لكل من اطلع عليها ، فليعتبر المتبرون بهذا الإجحاف . والاعتداء والقصاص ، قبل الجنابة ومن كان سمندرى الطبع فليهنأ له العيش في ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من الذهب ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية ، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى ، إذا دعا الحال ، فإن أنصار الحق كثيرون .

عجز ومراوغة

طنطنت الجرائد الإنجليزية ورجال السياسة في بريطانيا بنجاح الجنرال جوردون في مأموريته بعدما وصل خرطوم بأيام ثم انعكس الأمر عليها وأظهرت الجزع مما حل به من الخيبة في أعماله والإشفاق والارتجاف مما يتوقع نزوله من الخطر وأجمعت على أن ما يصيب جوردون من قتل أو أسر يكون وصمة في شرف إنجلترا إلى الأبد وعاراً عليها لا يمحي ولا مداركة لهذا الخطب العظيم إلا بإرسال المساكر الإنجليزية إلى خرطوم ، إلا أنه في هذه الأيام بعد العجز عن إرسال المساكر لم يعدم وزراء إنجلترا أو رجال حكومتها عذراً للتملص من هذا العار الذي يلحق بهم فقال المسيو جلدستون وزير الحرية الإنجليزية أن الجنرال جوردون لم يؤمر بالإقامة في خرطوم إلى أجل غير محدود حتى يحتاج نجدة عسكرية تخلصه مما عساه يقع فيه ، بل كان فيما أمر به أن يخرج من المدينة عندما يرى لزوماً لذلك . على أن الجنرال لم يطلب إعانة عسكرية فالوزارة الإنجليزية لا تتحمل تبعة ما نزل بجوردون إلا بعد أن تقف على أفكاره ومطامح أنظاره . ولا وقوف لها إلى الآن على شيء منها . والأوامر التي أصدرتها إليه في الأيام الأخيرة لم يرد لها خبر عن وصولها .

ومن كلام وزير الحرية أن الحكومة الإنجليزية تدبرت من أيام في إرسال فرقة عسكرية إلى بربر وبعد إيمان النظر في لزوم ذلك رأت عدم الإرسال أولى . وأنهى كلامه بقوله أن حكومته لم تأخذ على نفسها إعادة السلطة المصرية في السودان ، ولا تقرير أي حكومة فيها وإنها تلقى اليوم على نفسها كل تبعة توجه إليها في شئون السودان ، وأما سواكن فسيقام فيها حامية قليلة العدد إلى أن يبرم اتفاق (بينهم وبين مصر) وكلام هؤلاء الوزراء قد لا يخلو من غرابة فإن منشورات جوردون التي نشرها بعد دخوله خرطوم على قبائل العربان ورسائله إل المهدي لم تنكرها الحكومة

الإنجليزية بل دافعت عنها ودفعت الاعتراضات التي وجهت إليها، وكان فيها أنه وال على السودان (بل سلطان) من قبل دولته والحكومة المصرية وأنه بما له من حق الولاية يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان ، ويبيع بيع الرقيق ، ويدعو العرب إلى الطاعة ، فتلك المنشورات صريحة في أن بعثته كانت لإقرار حكومة في السودان ، والمدافعة عن بعض الولايات فيه ، وأنه فيما يعمل مؤتمر لحكومته ، وإلا كان كاذباً والحكومة دافعت عن كذبه رجاء أن ينجح فيه ، فلما أخفق لم تجد بداً من البراءة منه .

وقالت جريدة التان الفرنسية أن وزير الحرية الإنجليزية يدعى في مجلس الموم أن الجنرال جوردون لم يطلب نجدة عسكرية إلى خرطوم ، مع أن الأخبار التي وردت إلى جريدة التانيس من مصدر يكاد يكون رسمياً ونشرناها من قبل تكذب ما قاله الوزير . وتؤكد أن والى خرطوم (الجنرال) كان منتظراً ورود العساكر الإنجليزية إليه وقتاً بعد وقت وتحققت حاجته لذلك عند الكافة من أهالى لندن ، حتى كان تدبر الحكومة في إرسال فرقة إلى بربر ، مبنياً على هذا لتفتح طريق مصر العليا ، لكن أقعدها تصور ما تكابده الجنود من المشاق والمتاعب ، بل ما يحل بها من التلف ، وقد عرضت جريدة (البال مال جازيت) بالطمع على حكومة إنجلترا ولوحت بلومها على ما أظهرته من العجز والمراوغة حيث قالت : فليعلم الجنرال جوردون أن الحكومة الإنجليزية بعد اضرابها عن إرسال العساكر إلى بربر يستحيل عليها أن ترسل عساكر إلى خرطوم وقالت أن السيور بوير قنصل الإنجليز في خرطوم كان ينتظر المدد العسكري يوماً بعد يوم وفي ظنه أن حكومته تسعفه بذلك لكنه يجب عليه الآن أن يعلم أنها تركته وأصحابه ووكلتهم إلى أنفسهم فعليه أن يتدبر في أمره بنفسه موقناً أن الحكومة الإنجليزية تفضل إخلاء السودان وتعريض حامية المدن ومن فيها من رجالها لدى أشياخ محمد أحمد تفتك بهم على إعداد أى وسيلة لإيقادهم ، واتبعت قولها هذا بهكم على الوزارة فقالت : من زعم أن إرسال جوردون إلى السودان لم يأت بفائدة فقد أخطأ خطأ عظيماً ، فإن أعظم فائدة ترتبت عليه بقاء الوزارة الإنجليزية وصيانتها من السقوط فإن حياتها كانت موقوفة على سفره من

لندن ولولاه ما خلصت من الخطر الذى كان محققاً بها ولما بقيت فى قيد الحياة إلى الآن . وأنعم بها من فائدة جليلة لمصر وانجلترا فكفى الأمتين سعادة أن تهتد شقاشق الوزراء فوق المنابر .

هكذا تمتع المستر جلاستون وزملاؤه فى الكلام على المسألة السودانية وسلكوا طريق المواربة وتبرأوا من تبعاتها بعدما ساقوا إليها الجيوش والقواد بقصد إخماد الثورة وتقرير الراحة وهو قرار سياسى تبع الانهزام العسكرية يكشف لنا عن قوة محمد أحمد ومنعته ويأس الدولة البريطانية عن ملافاة أمره وأن نيتها الاقتصار على التحصن فيما دون حدود مصر الطبيعية بل على الحلول فى مصر السفلى حتى تحفظ القنال ، وتتصرف فى أراضيها الحصبة ، وتقف على أبواب التجارة ، ترقب حركات المارة ، وتشيع الذاهبين والآيبين ما بين الشرق والغرب ، وتتنعج بالتحكم فى بعض الضعفاء من المصريين ، وإنا لا نعلم ماذا تكون العاقبة إذا أصبح السودان بأسره فى حوزة محمد أحمد واعتصم فى قاعدة تلك الأقطار الشاسعة ، ولا عاصم له إلا بالإيغال فى سيره وبث دعوته بين جميع القبائل العربية ، بما يستطيع من الحيل أو القوة . أفلا ينتهى بعد هذا إلى سوق جيوشه الكثيفة إلى حدود مصر العليا ، ربما ، بل يغلب على الظن أنه يفعل ذلك ، فإن لم يفعل فهى شعلة الثورة تسرى بطبعها وتضطره إلى اقتفاء أثرها .

جاءت الأخبار من أيام أن الثائرين قطعوا خطوط التلغراف بين أسوان وكورسكو وأين كورسكو من أسوان . هى على مقربة منها والمسافة بينهما كما بين قنا وأسوان . وفى أخبار أخرى أن للهيجان والتحرش للخروج أثراً ظاهراً فى أطراف مصر العليا فإذا قدر الله وصارت حدود مصر العليا معاراً للحركات الحربية وهو مما لا تبعده الحوادث فهل يبقى المصريون وقبائل العربان فى الفيوم والبحيرة والشرقية وجميع أنحاء القطر المصرى على سكوتهم بعدما رأوا من ضعف الإنجليز وعجزهم ما رأوا وبعد ما يشهدون سبيلاً قويا مأؤه من مأثم ينصب إليهم وبعد ما خرجت صدورهم وضاقوا ذرعاً من تصرف الإنجليز فى حكومتهم ، يغلب على الظن

أن ما لهم من سرعة الاعتقاد بالظافر خصوصاً إن كان قائماً بدعوة دينية وما ضاقت به صدورهم من الاستبداد الإنجليزي وما ذاقوه من آلام الفقر والفاقة والذل والهوان من نحو سنتين وما بتوقعونه من رزايا دينهم ودينام في المستقبل إذا رسخت قدم الإنجليز في مصر كل هذا يبعثهم على تقبل دعوة الداعي بقبول حسن وانحيازهم إليه .

إذا جاء هذا الوقت وهو ليس ببعيد فربما نجد إنجلترا في مصر أفغاناً أخرى ونخشي من ظهور عجزها فتوارى خلف بعض من الحيل والتمللات وتستدعي من المسلمين من يكون قوى الشكيمة شديد البأس ، لتقرير السلم وتمكين الراحة ، وتعود إلى جزائرها راضية من السلامة بالإياب ، ولعل ذلك غير بعيد على العقل ، وإلى الله المآب .

انجلترا والبحرين

وردت الأخبار أن الأميرال هفيت وصل إلى مصوع حاملاً هدايا ثمينة إلى ملك الحبشة وكنا في العدد السابق بينا ماذا يريد الأميرال من مواصلة الملك يوحنا ، وأن الدولة الإنجليزية بعدما فشلت عساكرها في سواحل البحر الأحمر وعجزت عن تجهيز جنود جديدة تسوقها إلى أواسط السودان التجأت للاستنجاد بملك الحبشة واستمداد مساعدته على مسلمي السودان ، وكان حسن ظننا بدولة متمدنة كدولة بريطانيا يمنعنا من التصديق بعزمها على إثارة حرب خشنه ، لكن من الأسف أن الإفادات التي وردت هذا الأسبوع تؤكد أن انجلترا عازمة على النكاية بالمسلمين في السودان ، من حيث هم مسلمون لا لإطفاء ثورة ، ولا لترويح مدنية ، وفي الظن أن هذا هو الذي بسط يدها بالهدايا الثمينة تتحف بها ملك الحبش ، وإلا فخلائقها من حيث هي دولة تجارية لا تسمح لها بهذا السخاء ، وتنهاها عن البذل إلا أن ينقد لها الربح أضغافاً مضاعفة ، أى ربح لها أعظم من توددها إلى دولة خشنه ترى بها طائفة من المسلمين بغية الفتك والنكاية حتى تخيف بذلك بعض من تخشى بأسهم من أبناء ملتهم ، على إنا لا نزال في ريب من نجاح مسعاها ولو أنها نجحت في إقناع ملك الحبشة بالهجوم في حرب مع السودانيين فما عساها تسمى هذه الحرب ، لا نرتاب في أنها ليست لكسر شوكة التوحش ووضع قواعد المدنية ، فإن أحد المتحاربين لا يمتاز عن الآخر في أخلاقه وعوائده وأفكاره ، بل ربما كان السودانيون بما استفادوه من الحكومة المصرية مدة سنين أقرب إلى المدنية من الحبشيين ، ولا يمكن أن تكون حرباً للفتح وتوسيع الملك فإن الحبشة لا مطمع لها في توسيع ممالكها إلى الجهات الغربية من السودان ولم يعهد لها ذلك في التاريخ ، وغاية ما كانت تبتغيه

أن تكون حدودها الطبيعية محفوظة من تعدى جيرانها عليها ، فلا اسم لهذه
إلا الحرب الدينية تذكر الملل بما كاد يحى أثره من المحاربات الصليبية ، وتوقد
في الأفئدة نار التعصب الدينى ، فلو فتحت دولة انجلترا باب هذه الفتنة أفلا تشرق
قلوب المصريين بهذه النار ، وهل ترجو هذه الدولة من بعد ذلك أن يستقر لها قدم
بينهم ، وهل تأمن أن يثور سكان جزيرة العرب تحت هذا الغلم الذى يظل ملايين
كثيرة تعلم انجلترا عددها وتحس بحاجتها إلى مسالمتها ، نظن أن حكومة بريطانيا
تسمى باختباطها هذا إلى ما لا يحيد لها عنه ، ونجتهد فى تقريب البعيد
وما كان أغناها عن هذا كله .

رأى المستر بلونت فى المسألة المصرية (انجليزى مر بنصف المصريين)

إن مستر بلونت الذى اشتهر بحجة السلمين والمدافعة عن المصريين ، لما رأى ما وصلت إليه المسألة المصرية من الارتباك واشتداد الخطب فيها على حكومة انجلترا وصعوبة تدارك الخلل الذى عرض لها تدبر فى حل للمسألة ونشره فى التايمس فأحببنا نشره فى جريدتنا مجلداً وهو :

على الحكومة الإنجليزية أن تتفق مع سائر الدول على جعل البلاد المصرية مستقلة فى إدارتها (يريد بذلك أن يكون حكامها منها لا من دولة أجنبية) ويكون الكافل لهذا الاستقلال جميع الدول بدون امتياز قوانين التصفية ، واختصاصات الأجانب يجب تعديلها . كل مسألة يقع فيها اختلاف فلا يكون أنهاؤها إلا باتفاق الدول الأوربية ، تحكم فيها بما تشاء لا ينبغى أن يكون فى الجندية ضباط من الأجانب وقلال السويس يلزم أن يعتبر طريقاً عاماً يشترك فيه جميع الأمم ويكون تحت رعاية الدول جميعاً . يجب أن تكون إدارة البلاد بيد حكومة بقيمها الأهالى بانتخابهم .

بريطانيا تمسح ظهر توفيق باشا ...

قالوا إن زنجياً أسود ، هائل المنظر ، غليظ الشفتين مقلوب الشفرين جاحظ العينين أحمر الحدقتين بشع الوجه ، أفضس الأنف ، منكر الصورة وكان يحمل ولداً في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد ، والولد كلما نظر إليه يفرع ويبكي وينتحب ويصيح ويعول وكلما اشتد به الفزع مسح الزنجي ظهره وقال له : لا تخف يا ولدي فأني معك وأنيسك وحافظك من كل شر ، وبعد تكرير هذه الملاحظات من الزنجي للصبي قال الصبي : ياسيدي إنما خوفي وفرعى منك لا من وحشة الظلام !!!

هذا شأن حكومة إنجلترا مع المصريين . كلما اشتدت الخطوب وعظمت المصائب وزاد الخلل في البلاد المصرية ، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وإنما هي نمومة الثعبان) وأقبلت على الأهالي تمنيتهم بعودها المروقة ، وتقول لهم : لا تحزنوا فأني معكم وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهالي يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك ، وراحتنا واطمئناننا بتثحيك عنا وتركنا وشأننا .

أضحوكة

قال مستشار خارجية أنجلترا لبعض سائليه في مجلس البرلمان أن الجنرال جوردون عندما أجاب محمد أحمد على بلاغه الأخير لم يخاطبه بلقب سلطان كوردفان ، بل عنوان الجواب بلفظ شيخ ، وبناء على هذا فقد صار لقب سلطان كوردفان الذي منحه له الجنرال جوردون لاغياً ، يعنى أن محمد أحمد خلع من سلطنة كوردفان عندما طمع نظره إلى خرطوم وطلب من الجنرال أن يدخل في دين الإسلام ، لكن محمد أحمد لم يتمتع بتلك السلطنة اللفظية لأنه لم يقبلها عند عرضها عليه فلا يحزن من هذا الخلع الجديد ، أليس بمجيب أن يسمع من أفواه رجال سياسة بريطانيا مثل هذه المهملات ، بمد ما قيل فيهم أنهم من أدهى رجال العالم ، ولعل الأضحك من أساليب السياسة عندهم .



المسألة المصرية والانجليزية

إن للحكومة الإنجليزية شأنًا في المسألة المصرية يخال للنظر فيه أنها في تردد بين إحجام وإقدام وأن مقارعة الآراء واختلاف الأهواء ، يزداد بين سكان بريطانيا ، كلما ازدادت الخطوب شدة في مصر ، نعم إن أرباب الرأي في الأمة الإنجليزية فريقان فريق منهم يدفع حكومته إلى الإعلان بسيادتها على الديار المصرية واستلام إدارتها ، وبعبارة أخرى إلى ضمها لأملأها ويحملها بذلك على غمط حقوق الدولة العثمانية وأهالي القطر المصري والاستهانة بحقوق الدول جميعاً ، وهذا فريق الجمعيات والشركات السالية ويذهب بعضهم بعض الوزراء وينصر آراءهم عدة من الجرائد أشهرها جريدة التايمس واشتدادهم في صخبهم ونعيرهم نبه الأفكار وأقلق الخواطر في الأمة الفرنسية فانطلق لسان جرائدها بالوعيد والتهديد وصرحت الجرائد الوزارية منها وجرائد الأحزاب الجمهورية وهي ذات السلطة في البلاد الفرنسية بأن حكومة فرنسا وإن كانت غضت طرفها عن أعمال إنجلترا في القطر المصري من يوم حملتها عليه إلى الآن ولكنها لا تهمل شيئاً من مصالحها وحقوقها وجميع الدول الأوروبية تعزها وليس لإنجلترا في مصر ما يمتاز به عن بقية الدول ، ومن الجهل أن يظن سياسى في المسألة المصرية أنها مصرية أو إنجليزية أو فرنسية فإنما هي مسألة أوروبية وقد اقتربت الساعة التي تجهر فيها الدول بالمداغة عن حقوقها في الأقطار المصرية ، أن للدول حقاً في التدخل لحل هذه المشاكل بعدما عجزت إنجلترا عن القيام بما تعهدت به من اقرار الراحة في مصر فإن الفوضى في هذه الأيام أشد منها في زمن الحركة المعروفة بالعسكرية وفتنة السودان تلاطمت أموابها على

حدود مصر والهواء الأصفر (الكوليرا) أن تكون له رجعة إلى تلك البلاد السيئة الحظ وما هذا كله إلا من آثار الحلول الإنجليزية في وادى النيل . أما إن أرادت دولة إنجلترا أن ترسم بسيادتها أو ترفع أعلام حمايتها على القطر المصرى فما للدول من حق التداخل يصير فرضاً لازماً وضربة لازب لا يحصى عنها . إلا أن كل هذه التهويلات لم تعدل بذلك الفريق الإنجليزي عن مقصده ولم تتحول به عن مشربه فلا تزال جرائدهم تنعق بطلب الحماية على مصر وهم في عى عن العوائق والموانع التى تصد حكومتهم عن الانصياع إليهم .

أما الفريق الآخر من الأمة الإنجليزية ومنهم وزير داخلية إنجلترا ومستتر جلاستون فيما يقال فيظهرون التعفف والنزاهة بل يصرحون في خطبهم بأن حكومة بريطانيا لا تستطيع احتمال إدارة البلاد المصرية وليس في إمكانها ضمها إلى أملاكها ولو همت بذلك لرأت من الدول أشد الممانعة وربما رجعت بالخيبة : على أنها تكون قد سنت سنة سيئة في نقض العهود ، وإخلاف الوعود ، وفتحت للدول هذا الباب ، باب الشر والعدوان . هذا ما ينطقون به على منابرهم ويزعمونه نبأ عما في خواطرهم ، ولكن هؤلاء المتعففون لهم في كل وقت عمل لتمكين أقدامهم في مصر ، ولا يخالفون الفريق الأول إلا في شقاشق الألسن ، هؤلاء هم الذين حولوا الإدارات المصرية ودوائر حكومتها العليا إلى السيرية ، واستلموا زمام العسكرية والمالية وإدارة الداخلية والمحاكم القضائية وتصرفوا في أعمالهم تصرف الملاك ، فاستبدوا على المتوظفين من المصريين ، وغلوا أيديهم عن تعاطى أشغال وظائفهم ، حتى آل بهم الأمر إلى ما صرحت به الجرائد الإنجليزية من أنهم أشباح ورسوم تلوح بين جدران الدواوين غدوة وعشيا ، هؤلاء هم الذين يحاول نوابهم ومأمورهم في القطر المصرى أن يلزموا أهاليه بتحرير محضر يتمسون فيه بحماية إنجلترا وسيادتها عليهم وإن لم تنجح الحيلة ، هؤلاء هم الذين هموا الآن بتغيير نظام المالية المصرية ورغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر بلندن لتغيير

قانون التصفية ويريدون أن يجعلوا ذلك ذريعة للاتفاق مع الدول على أن تكون الديون المصرية بأسرها تحت ضمانتهم لتقوم لهم الحجة في الاستيلاء على مصر بعد زمن قصير أو طويل أو ليمهدوا به طريقاً لمن يخلفهم في الوزارات الإنجليزية ينتهى بالسير فيه إلى تلك الناية بعينها وما طلبوا المايجور بارين وكيلهم السياسى فى القطر المصرى إلا ليحضر هذا المؤتمر .

هذا ما يهينه الإنجليز لأنفسهم ولكن ماذا تعده الحوادث لهم ، كتبوا على أنفسهم تخفيف مصائب الحكومة المصرية فى السودان ، وعقدوا لقوادهم الألوية ، وأعدوا لهم العدد ، وكتبوا الكتائب ، فسفكت دماؤهم : بعد ما ضل سعيهم ، ظنوا أن بعض رزايمهم فى سواحل البحر الأحمر فرصة للاستيلاء على السودان الشرقية ، فبعد الجهد ومعاونة الكفاح من عراة العرب تمكنوا من الرجوع بالحيلة . فتعوا بالاعتصام فى حصون القاهرة وما يليها فأزعجهم دوى السيل التدفع عليهم من الجهة الجنوبية ، وإغارة ثائرة السودان على شندى وافتتاحها ، واشتداد الحملة منهم على بربر وخرطوم ، وزادهم خوفاً ورهبة انتقاص كثير من القبائل على مقربة من وادى حلفا وأبى حمد وأوشكت طائشة الفتنة أن تأخذ بقلوب الأهالى فيما تحت أسوان ، وأفرعهم ما أحسوه من أهالى القاهرة ومصر السفلى من تحول القلوب وضيق الأنفس ، حتى اضطروا لزيادة الحرس فيها ، مع أن زيادة المعهود فى المصريين أنهم أهل السلم والراحة . قصدوا بكل هذا حماية طريق الهند خوفاً على الهند فبعد ما ورد إلينا من أصدقائنا فى لاهور أن لدعوة محمد أحمد فى قلوب الهنديين منزلة وأنه لو لم يكن مهدياً فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى أن يكون فى هذا الاعتقاد جمع لكلمتهم على التخلص من رق الإنجليز ، جاءت البرقيات شاهدة على صدق ما كتب إلينا ، فى الأخبار البرقية أن رجال الشرطة فى سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته ، وسملا هى فى آخر الممالك الهندية الإنجليزية من جهة الشمال الشرقى على القرب من لاهور . وهذا ما كنا نخشاه ونهنا عنه مراراً . وربما تكون هذه الصدمات الشديدة التى صدعت أنجلترا

بعد استفحال أمر محمد أحمد كافية في أذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الحركة التي سموها عرابية .

رام الانجليز بكل هذه الاحتياطات المقيدة أن يقرروا الراحة في مصر فإذا الأموال تنهب ، والحقوق تضيع ، والادارات في فساد والتجارة في كساد ، والزراعة في بوار والظلم في اشتداد والأمن مسلوب حتى الأرواح والأعراض كل هذا باعتراف جرائدهم ووزرائهم وشهادة الجرائد المصرية الوطنية وإجماع السياسيين في أوروبا على أن الشقاء الذي ألم بأهل مصر بعد تداخل الانجليز ، ناشئاً عن هذا التداخل ، لم يرزأوا به في زمن من الأزمان من عهد محمد علي إلى الآن . فأنعم بهذه الوسائل التي أعدها الانجليز لتقرير الراحة في مصر وأجل بالوسائل التي استعملوها لحماية الهند !!!

هذه بدايات القلاقل وبوادر المخاطر التي نشأت من شدة احتراس الانجليز وحرصهم على وقاية أملاكهم أو توسيعها يظهر من جمجمتهم إذا صاح بهم داعي الحرب وحيرتهم من أين يجندون الجنود هل من الهند أو انجلترا ومن موازينهم العسكرية أن ليس لهم قوة برية لحفظ الممالك الواسعة فكيف يستطيعون التصرف في مصر لو سادوا عليها وهي كما قال وزير داخليتهم تحسب مملكة أوروبية لا تسود فيها الأوهام ولا تدوم فيها سلطة الحيل إن لم يكن من المصريين فمن الأوروبيين وأى قوة تصون لهم الهند من فتنة إذا امتد زمن الاضطراب في مصر وقد جاءنا من أخبار الهند أن عموم المسلمين في هياج ويخشى أن بتور فيهم ثائرة عند ما يتقدم محمد أحمد خطوة أخرى .

هذه العواقب السيئة وما يتوقع من مثلها أو أسوأ منها لدولة انجلترا إنما هي حلقات في سلسلة أغلاطها من استيلائها على قبرص فإنها اختلست تلك الجزيرة لمراقبة طريق الهند فنافستها فرنسا واستولت على تونس فتخوفت على قنال السويس أن يساق إليه جيش برى من أفريقيا الغربية فسمت في الايقاع بين الجند والحاكم في مصر وتذرعت بذلك للغارة عليها فزل بها في تلك ما تزل .

وبعث ذلك دولة فرنسا على ما بلغنا من مصدر يوثق به إلى السعى في طريق
يوصلها إلى مناكبة الانجليز في مصر على الحدود الغربية وربما جرت هذه المنافسات
إلى فتح المسألة الشرقية وليس بقليل ما يصيب انجلترا من مضار هذه المسألة فأى ثمرة
جنتها انجلترا مما غرسته في هذه السنين الأخيرة ، لا هى صانت باب الهند من الخطر
كما تروم ولا هى سكنت قلوب الهندين ، وإنما طرقت أبواباً كانت مغلقة ويوشك
أن تفتح ، ولئن فتحت فإنها تحدث زلزالاً في أركان العالم بأسره هذا شأن الانجليز
وما يفعلون .

ويوجد أناس لهم مداخل في قلب الأحوال المصرية ولهم مذاهب مختلفة
في ترويح مقاصدهم لدى المصريين يمنونهم بالخلاص من أيدي الانجليز إذا آل إليهم
السلطان في مصر ، بل يؤكدون لهم أنه لو ثبتت أقدامهم في الديار المصرية لأحبطوا
مساعي انجلترا في عموم البلاد الشرقية ، وسعوا في تقليص ظلها من المشرق بأسره ،
أخذاً بثأرهم منها فهؤلاء سنأتى على أحوالهم ، ونبين طرق سيرهم في أعمالهم ،
حتى يكون ذوو الآمال فيهم على بصيرة من أمرهم .

هول الأمر على جوردون

أخبر مراسل التايمس في خرطوم أن تلك المدينة أصبحت ممسكراً لأعوان الثورة ومضاربهم محيطة بها من جميع الجوانب والمقذوفات من نيران أسلحتهم تنقض على دار الحكومة بلا انقطاع والمؤونة في نقصان والخطر يشتد يوماً بعد يوم وبعد إفراغ الوسع في اختراق صفوف الثائرين بالمرაკب تسير إلى بربر لفتح طريق الخابرة مع حاميتها حبط العمل وخاب السمع فإن قوة العربان على شواطئ النيل تصل على المراكب بأسلحتها القاتلة وتفتك بمن فيها ، واتبع هذا الكلام بقوله أن الجنرال جوردون عقد العزيمة على أن ينجو بنفسه من طريق أفريقيا الوسطى حيث تحقق أن حكومته غير مهتمة بإنقاذه ، ويرى أنه لا سبيل إلى الاتفاق مع القبائل التي أخذت عليه طريق بربر إلا بمساعدة زبير باشا (اليوم يضطر لمساعدة زبير باشا) وهو من أعدائه ولا يرى الزبير إلا مسلماً لو سمحت ذمته بإفقاذ حياة جوردون فلا تسمح أن يكون السودان ولاية إنجليزية وفي جريدة (الأكسترا بلات) أن الحكومة الإنجليزية ورد إليها كتاب من جوردون .

صفار ه : ليس في طاقة أحد من البشر أن ينجينا من الخطر لأننا محاطون من جميع الأطراف بالقبائل النائرة فلم يبق لنا سوى التضرع إلى الله بتبديد شملهم فإن لم تسمعنا العناية الإلهية بإجابة دعوتنا فلا ريب أن تلك القبائل تهب وتفتك بجميع سكان خرطوم قبل وصول نجدة إنجليزية إلينا . (وليته سأل الله تعالى حل المسألة السودانية وفوض إليه الأمر فيها وأراح نفسه من السفر إلى خرطوم) وجاءت الأخبار الأخيرة بأن مدينة شندي وهي على النيل في منتصف الطريق بين بربر وخرطوم وقعت في أيدي رجال محمد أحمد ، هذا بعد أن طلب الجنرال جوردون من حكومته أن ترسل

فريقاً من الجيوش لتخليص حامية تلك المدينة وموظفي إدارتها ؟ ورأت الحكومة من الصواب أن لا ترسل فلما ضاق الأمر على الحامية ويئسوا من القدرة على الدفاع ركن فريق منهم يبلغ ثلاثمائة شخص إلى الفرار واندفعوا على صفوف محاصريهم لعلهم يجدون من بينها سبيلاً فلم يستطيعوا ونزل بهم من أمر الله مالا يحيد عنه . بعث الجنرال جوردون برقية إلى القاهرة يشكو فيها عدم وصول الأخبار إليه من السير بارين (وكيل انجلترا السيامى فى مصر) قالت التيمس ولعل البرقيات التى بعث بها بارين إليه تناولها الثأرون ومن كلام هذه الجريدة أن الحكومة الإنجليزية أرسلت الجنرال إلى السودان وفوضت إليه الأمر فيما يفعله ليصيب بتدبيره غاية حسنة وزى أن هذه الحكومة غلت يديها بترك الجنرال وشأنه مما يلحق بها عاراً عظيماً .

اشتدت حملة القبائل على بربر وخارت عزائم حاميتها وسكانها وأخذ اليأس بقلوبهم . ووردت برقية من مدير بربر إلى الوزارة المصرية يشكو بها تلك الحالة ويقول أنه لا يمضى بضعة أيام حتى يفتحها الثأرون ويحل بها من أيديهم ما حل بمدينة شندى . وبعد هذا جاءت برقية من القاهرة مفادها أن نوبار باشا يخشى أن يمتد لسان الفتنة إلى أسوان فى وقت قريب وإنا نشاركه فى هذا الخوف ونزيد عليه الإشفاق من التهاب النيران فى القاهرة ، وأطراف القطر المصرى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

محاولة في مصر

كل يوم يظهر من إنجلترا شأن جديد في معاملة الشرقيين والطرق التي تأخذهم بها لقضاء أوطارها من بلادهم ، وتلاعبيهم وتداعبيهم وتجامليهم وتلاطفهم ، وتعدمهم وتمنيهم وتحيفهم وتؤمنهم ، حتى تشبته عليهم مسالك الفكر . وتلتبس مسارح النظر ، ثم تحملهم بعد الدهشة على قبول سلطتها والرضا بولايتها ، بل على طلب ذلك منها ، والتماسه من كرمها ، وهي في كل أعمالها تهزأ بهم وتحسبهم في عداد الصبيان القاصرين ، أو من قبيل البهائم التي لا تعقل . سلكت مسلكها هذا على بعض من أوروبا وانفردت في الأقطار الهندية النائية ، وليس لدولة من الدول إحاطة بما تجريه في حكومتها لتلك البلاد ، ثم تطرفت في هذا المشرب فعمدت إلى استعماله في مصر تحت أنظار أوروبا وقصدت أن تدعو المصريين للاقرار بحمايتها ، ورفع التماسهم إليها لعل كرمها يسمح بمنحهم شرف سيادتها عليهم ، لكن الحيلة لم تذهب على المصريين ولم تختلس عقولهم تلك الشعوزات ، فقد جاء في خبر مؤكد أن مأموري الحكومة الإنجليزية في مصر حاولوا تكليف الأهالي بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية دولة إنجلترا ليكون التماس الأهالي حجة لديها عند الدول تقيم بها عذراً في إخلاف وعودها ، حتى إذا حاسبوها على تصرفها في أرض مصر وضمتها إلى أملاكها تدعى أنها مضطرة فيما تصنع والأهالي هم الذين رغبوا إليها ذلك

— ٢٤٨ —

وهى لا تأبى قبول رغبتهم رحمة بهم ورأفة ، هكذا تحاول أن تفعل
 فى مصر وهى متاخمة لأوروبا وفيها من الأوروبيين المختلفى الأجناس ما يزيد على
 مائة ألف ، ولا تخشى لأمة ولا تخاف عاقبة ، وإن ظننا بالمصريين على
 اختلاف طبقاتهم إنهم لن يفعلوا ذلك ما دامت أرواحهم فى أبدانهم .



رأى الجرائد الفرنسية في الانجليز

ارتفع الستار وانتهك الحجاب عن ضعف الحكومة الإنجليزية ووهن عزميتها في المسألة المصرية ، ولم تبق فيه ريبة لمرتاب بين الدول الأوروبية وانطلقت عليها الألسن وملت عليها سيوف الملام ، من ذلك ما هزأت به جريدة (الريوبليك فرانسيز) وسخرت فيه بدولة انجلترا عند كلامها على فصل نشر في جريدة (البال مال جازيت) ، قالت : إن ما تهددنا به الجرائد الإنجليزية لا تأخذنا منه رهبة ولا ترعدنا منه خيفة ، بعد أن رأى الفرنسيون عجز حكومة بريطانيا عن حماية جورودون وعلّموا أن عدداً من عرب السودان اخترق صفوف الجيوش الإنجليزية المنظمة وما كان لهم سلاح إلا العصي والخناجر ، وأن فرنسا لا تزال تطلب من انجلترا أن تميد إليها ما فقدته من حظ السلطة في شواطئ النيل ، وماظهر من عجز انجلترا وضعفها القاضى بالحيرة والعجب لا يخفف سوء تأثيره إلا بمساعدة فرنسا . قعد كليفور لويد من المصريين مصاعد الأنفاس وخنقهم بخناق من الجور وصار فيهم خلفاً لمرابي (كذا) ونعم الخلف وإلى القوة الفرنسية فك هذا الخناق الضيق الذى كاد يقطع أنفاس المصريين ، أما أوروبا فتستريح خواطرها ويسكن اضطرابها بعد ما ألقها ضعف الإنجليز الذى لا دواء له ومطامعهم التى لا حد لها ... اه . فهل انكشف للشرقين ما وضح لدى الأوروبيين أو لا يزالون عنه غافلين .

خدعة جديدة

أقبل الإنجليز أيام الحركة السابقة على بعض المصريين وزخرفوا لهم الأمانى وزينوا لهم المواعيد ، حتى استعملوهم لتذليل المصاعب بين أيديهم ، لدخول مصر والاستقرار فيها بمساكرهم ، وتم لهم ما أرادوا ثم قلبوا لهم ظهر المجن تحت أستار الحجج والتعللات ، وقبضوا على زمام الحكومة المصرية يصرفونها كيف يشاءون : ولما أرادت الدولة العثمانية بما لها من الحق القانونى على تلك البلاد أن تتولى حل المسألة التى كان يعبر عنها بالعسكرية ، وأن ترسل بعض جيوشها لاقرار الراحة فى بلادها طبقاً لرغبة رعاياها ، مانعها الانجليز وكفوا يدها عن العمل وسبقوها إليه بدون حق شرعى ولا أصل سياسى ولا رغبة عامة من أهالى القطر المصرى ، واليوم عند اشتداد الخطب على الجنرال جوردون الانجليزى وعجز حكومته عن إنقاذه وتوقيف حركة محمد أحمد ألبائتهم الضرورة إلى الرجوع لما نبهنا عليه مراراً من أن هذه الفتن لا يطفئ شعلتها رذاذ السياسة الانجليزية ، وتمنوا لو تتدخل الدولة العثمانية ببعض عساكرها فى السودان لتتخذ الجنرال جوردون وتأخذ بناصية محمد أحمد وتبدد شمل أحزابه ، هكذا رأى الجنرال فى هذه الأيام أن أنجع الوسائل لحل المشكل تحسين جيش عثمانى وسوقه إلى تلك الأقطار فكتب إلى صديقه صامويل بيكر يرغب إليه أن يتقدم لأرباب الثروة فى انجلترا وأمريكا ويحملهم على بذل مائتى ألف جنيه ليعرضوها على السلطان العثمانى حتى ينفقها على ألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر التركية ، ويسيرها إلى نواحى بربر وشندى ، ويكون بهذا إنهاء المسألة السودانية وهدم سلطة محمد أحمد ، وقال أنه مما يعود نفعه على السلطان أيضاً .

يريد الجنرال أن يخدع العثمانيين بتمثيل منافعهم ، كما خدع أمثاله بعض

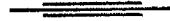
المصريين وحاشاهم أن ينخدعوا لمثل هذه التخييلات الوهمية ، ومن العار عليهم أن يقبلوا ما يتكففه الجنرال جوردون من صدقات أهل الثروة في بلاده للنفقة على عساكرهم ، وأشد العار أن يذهبوا بجيوشهم لتدوين بلادهم وإخضاعها لسلطة الانجليز والعساكر الانجليزية حالة (١) بحصون مصر ، نعم لو أذعن الانجليز بما للدولة العثمانية من الحق وتركوا لها بلادها وفوضوا إليها إعادة الراحة فيها وإهماد فتنة السودان ، فلا نخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض إليها بل هو ما تتمناه وتسمى إليه ، ولعل الحوادث تلجئ دولة بريطانيا إلى مثل ما لجأ إليه جوردون فتسلم الأمر للملكه (٢) ، وما ذلك على الله بعزيز .

(١) مرا بطة في مرا كز مصر الاستراتيجية .

(٢) يظهر الأنفاني نواياه هنا بجلاء ... فهو يطلب الخلاص من بريطانيا واحتلالها لمصر ... ويعرض مصر الدولة العثمانية لتحل محل بريطانيا !! ... مرة أخرى هكذا كانت الدول تلعب بمصر ...

دسياسة أخرى

هيا الانجليز فتنة فكانت ، وأعاروا على مصر بحجة إهمادها وأوثقوا الدول على أن تكون إقامتهم في الديار المصرية إلى أن تستقر الراحة فيها ثم يخرجون ، لكنهم بعد ما حلوها لا يزالون يسمعون من يوم وطئوها إلى اليوم في إيقاظ الفن ويجهدون لإقلاق الخواطر ، ليقدموا ما يكون من هذا عذراً لدى الدول في تطويل مدة إقامتهم بالقطر المصري لعلمهم يجدون من تقلبات السياسة الأوربية فرصة للحلول الأبدى . ومن ذلك ما سولوا للأروام أن يحتفلوا بعيد استقلالهم على نمط لم يسبق له نظير في الأقطار المصرية من قبل ، وزينوا لهم ما فعلوا بما يقدرون عليه من طرق الخفية حتى انخدع الأروام لوساوسهم مع أنهم أحق الناس برعاية الأدب وما كان مثل ذلك من مأمورى الانجليز في مصر إلا ليقبلوا أفكار المصريين ويحركوا الضغائن في نفوسهم ويدكروهم بما كان بينهم وبين اليونانيين أيام إبراهيم باشا فيوقفوا بذلك الفتنة بين سكان القاهرة وبعض المدن المصرية وبين من يساكنهم من الملل الأجنبية ، ويميدوا تاريخ بعض الحوادث المشؤومة التي كادت تمحى دواعيها بعد ما حدث من نحو سنتين ثم يجعلوا ما يحدث من اختلال علة لدوام الاحتلال أو التسوية في الجلاء .



الوسطية الجديدة

إلتوى سير السياسة الانجليزية في المسألة المصرية ، وقزلت (١) الوزارة الجلا دستونية في المضي إلى نهايتها فسقطت مراراً ونهضت مراراً ، وآل بها الأمر بعد هذا إلى عجز عن أداء ما تعهدت به للدول وللدولة العثمانية من إصلاح الأحوال المصرية ، وفزع شديد من عقبي هذه الفتن التي تداعت لها أركان النظام المصرى . فلجأت إلى الدول الأوروبية تستعين بها على تخفيف الوزر ، والتمست منها عقد مؤتمر في لندن وتعللت في دعوتها إلى الاشتراك معها في الأمر بفراغ الخزانة المصرية لكثرة النفقات والنقص في الإيراد فلا يمكن بقانون التصفية الذي وضع باتفاق من الدول العظام إلا أنها شرطت على الدول أن تكون المداولة في المؤتمر منحصرة في المسائل المالية ولا يجوز لهم أن يتمدوها إلى ذكر شيء آخر في الأحوال المصرية الحاضرة أو الماضية ، أما الدول فقد قبلت الدخول في المؤتمر على شرط مبهم وهو أن نوابهم يبحثون فيما يبحث فيه المؤتمر إلا دولة ألمانيا فإنها لم تجب إلى الآن جواباً رسمياً ويغلب على الظن في الدوائر السياسية إنها تتبع في جوابها دولة فرنسا واتفقت على ذلك أغلب الجرائد الألمانية وزادت دولة فرنسا في جوابها إن طبيعة المسائل التي يجري فيها البحث ربما لا تقف بالباحثين عند حد النظر في المالية ، بل تنجر بهم إلى ذكر كثير من المشاكل المصرية الحاضرة .

أما هذا فلم يكن خافياً على انجلترا فإن النظر في المالية مع الاضطراب الواقع في الديار المصرية وتزعزع أركان السلم فيها لا تخلو تيجته من أحد أمرين : إما تقدير الإيراد والمصرف بمبالغ محددة ونخصيص شيء معين من الإيراد لوفاء فائدة الدين مع تخفيض الفائدة مثلاً ثم يوضع قانون تمضى عليه الدول كما فعل قانون التصفية

(١) قزلت بمعنى سارت كما يعنى الأعرج ... أى تدهورت سياستها ...

وهذا مما لا يتصوره العقل فإن عساكر الحلول الانجليزية لم تزل في أرض مصر ومصاريفها على الخزينة المصرية ولم يعلم أجل إقامتها ولا مبلغ عددها والفتن قائمة في الجهات السودانية والحكومة المصرية مكلفة بتوقيفها عند حد لا يخل براحة البلاد ولهذا العمل مصاريف ونفقات لا يمكن تحديدها ولا تقديرها ، فكيف يمكن الوصول إلى تعيين النفقات وإحصائها على وجه منضبط والاضطراب الداخلى والاختلال المتفشى في الإدارات ودوائر الحكومة العليا والدنيا الذى حدث بتخلل الانجليز فيها وقف حركة الأعمال النافعة من زراعة وتجارة وصناعة فكيف يمكن ضبط الإيراد على نمط يعرف ويؤلف فلم يكن غرض انجلترا من الدعوة إلى المؤتمر أن يصل إلى مثل هذه الناية التى لا أهمية لها مع بعدها .

* * *

الأمر الثانى أن ينساق البحث فى المسائل المالية والنظر فى الإيراد والمصرف إلى ما يلزم لاستقرار الراحة فى مصر من العساكر وتطلبه من النفقات وما يستدعيه إطفاء فتنة السودان وما تحتاج إليه المحاكم الجديدة وغير ذلك مما تعرضه إنجلترا وتبين للدول أن مالية مصر ليس فى طاقتها أن تفى بجميع هذه النفقات الواسعة ولو كلفت بأداء بعضها فضلا عن كلها لحق الضرر بأرباب الديون فأحسن وسيلة للتخفيف عن المالية المصرية مع حفظ الحقوق لأربابها أن تكون الديون المصرية تحت ضمانة إنجلترا وهى تؤدى فوائدها فى أزمانها . تطلب من الدول بعد هذا أن تفوض إليها التصرف فى الأقطار المصرية ، وتأخذ التبعة على نفسها فى بذل الأموال وقتل الأرواح وهذا الذى يمكن أن تفعله إنجلترا بعد عجزها وربما مست حقوق الدولة العثمانية فى مطالبتها هذه إلا أن التلغرافات نقلت إلينا ما يتحدث به فى الدوائر السياسية بالاستانة وهو أن الدولة العثمانية ستشترط لقبول انتظامها فى المؤتمر شروطاً صعبة يعز على إنجلترا قبولها لينكشف الستار عن مقاصدها فى مصر ، ومن جملة تلك الشروط أن تستبدل العساكر الانجليزية المحتلة فى مصر بعساكر عثمانية لأن نفقات الجيوش العثمانية أقل من نفقات الجيوش الإنجليزية وهذا هو ما يؤمل فى الدولة العثمانية فى هذه الأوقات وأنها فرصة لوفات قتل أن يأتى مثلها للدولة العثمانية بسلطتها على قلوب

المسلمين شرقاً وغرباً قوة ترتمد منها فرائص الانجليز فأمل أوليائها اليوم أن تستعمل تلك القوة الفائقة وتجعل لها أثراً في استرداد حقوقها ، وعندنا أن رجال الدولة العثمانية لا يغفلون عن هذا . أما الحكومة الفرنسية فقد عقدت عزمها على مطالبة إنجلترا بإعادة نفوذ الفرنسيين في مصر كما كان قبل المراقبة والجرائد الفرنسية علي اتفاق في تبين خلل السياسة الانجليزية وبيان سوء مقاصد الانجليز والالحاح على حكومتهم ألا تعترف بأدنى امتياز بسبب ما فعلته في واقعة التل الكبير وهذا ما ترتجف منه الجرائد الانجليزية عموماً وتخشى عاقبته ونظنها أسوأ عاقبة عليهم .

هذا ما يتعلق بورطتهم الجديدة التي يظنون فيها خلاصهم وبقى عليهم مالا نظن ولا يظنون لهم منه نجاة . دخل الثائرون مدينة بربر كما أنبأت به أواخر الأخبار ولعبت عواصف العتنة بأطراف مصر العليا وأكدت أخبار البرقيات أنها لم تقف عند حدها ، بل حركت السواكن في مصر السفلى ووراء ذلك من الويل ما ووراء فأين الخلاص لدولة إنجلترا . نعم لمت بارقة حق في عقول بعض ذوفي الرأي من رجالها فطلبوا أن تكون المساكر التي تبعث إلى مصر مؤلفة من عثمانية وانجليزية وهو نوع تقرب لما قلناه مراراً من أن هذه الفتن لا يدفع غائلها إلا المسلمون ولكن عليهم أن يخلصوا آراءهم من الشائبة الانجليزية وإلا فلا نجاح ، والله يفعل ما يشاء .

العروة الوثقى توزع مجاناً !!!

=====

تأتى فى فصولها على أهم ماله أثر فى أحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً
فلا تلام إذا أطنبت فى مسألة شرعية عامة ولا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من
أمريكا وجابونيا .

نهنا فى أول عدد صدر منها على أن القائم بها رجال من أهل النيرة فى الشرق
هموا بأعمال تفيد أوطانهم وملتهم مع رعاية جانب العدل والسير على وفق الحكمة ،
ومن ظن أن توزيعها مجاناً يقتضى أن تكون منسوبة لدولة من الدول أو شخص
من ذوى المطامع فى إمارة أو ملك فإتما نشأ ظنه هذا من اليأس المستحكم فى نفسه
والقنوط من نهوض همم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا ، ولا يقنط من روح الله
إلا القوم الكافرون .

هذه جريدة لا سعة فيها للتنايد والتقاذف ، ولا يذكر فيها اسم شخص أو لقبه
إلا إذا كان له قول أو عمل يفيد البحث فيه فائدة عامة .

=====

رياض باشا والياسة الانجليزية

نقل إلينا وذكرت الجرائد خبر مجلس انعقد في سراى توفيق باشا بالقاهرة حضره وزراء الحكومة المصرية ودعى إليه شريف باشا ورياض وسلطان باشا وعمر باشا ولطفى باشا وخيرى باشا وثابت باشا . وأغلب الجرائد الفرنسية المهمة اتبعت رواية الخبر بالثناء على رياض باشا وأتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته . ومما ذكرت من صفاته أنه أقوم أمير في الديار المصرية وأشد هم حرصاً على الاستقامة وأنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التي ألت بتصر وما تؤول إليه . وكان يرى من بداية تلك الحوادث أن سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس وأننا نذكر الخبر أولاً ثم نعقبه بما تدعو خدمة الحق لذكره .

بعد انعقاد المجلس قام نوبار باشا وافتتح الكلام بخطاب وجهه إلى الحاضرين فقال : ماذا ترون من التدبير إذا فرضنا أن مدينة خرطوم وبربر ودقلا دخلت في حوزة محمد أحمد وأشياعه ، وأى طريقة يمكن الأخذ بها لحفظ الأمانة وتقرير الراحة في مصر العليا (الصعيد) فأعجب الحاضرون بالسؤال وظهرت على وجوههم علائم الاستغراب لفاجأته لهم بما لم يكونوا يتوقعونه ثم أجابوه بصوت واحد أن لا سبيل إلى تأمين البلاد من خطر الفتنة إلا باستعمال القوة ، فقال نوبار باشا إنا نروم منكم التصريح بنوع القوة التي يجب استخدامها (أى قوة إنجليزية أو مصرية) فأجابه رياض باشا أن تعيين القوة من خصائصكم وليس من شأننا أن نتكلم فيه : فأبدع في الجواب بعض الحاضرين (لا نعرفه وربما يكون من محبي أوطانهم) وأحسن في التشبيه حيث قال الذى نعرفه أن العجة لا تكون بدون بيض (العجة طعام يصنع

من البيض مع بعض النبات يعرف إسمه عند المصريين وأغلب العرب ، فعادة هذا الطعام إنما هي البيض) فأراد العضو المحترم أنه لو أريد استخدام قوة فلا بد أن يكون جوهرها عساكر انجليزية ولا بأس بإضافة بعض من الجنود المصرية لتكون ترساً يدفع به في وجوه المحاربين وتنصب إليه قوتهم فإن حصل العجز ودعت الضرورة للفرار أمكن للجيش الانجليزية أن تعود سالمة أو إذا أضيف مصريين فلا بد أن يكونوا حمالين وخداماً أو حرساً وحفظة لمن يكون معهم من ساداتهم (هذا ما أراد جناب العضو من تشبيهه البليغ) بعد هذا قال رياض باشا أنكم تسألوننا تعيين القوة ولكني أسألكم ما هي القوة الموجودة عندهم وبأى حق يؤدي لكم ٤٨ ألف جنيه في كل شهر ، أنتم حكومة أم لا . أما شريف باشا فقال أنه بذل جهده مدة طويلة في أرضاء الحكومة الانجليزية بأن ترسل جيشاً انجليزياً إلى السودان (وهذا مما يقضى بالمعجب) ولكنه علم أن نوبار باشا أراد أن ينهى المسألة بإخلاء الأقطار السودانية فقال نوبار باشا أن المباحثة خرجت عن موضوعها وتحولت عن وجهها ولكني أذكر الأعضاء المجتمعين بأنهم مطالبوا إلا لإبداء آرائهم فيما يجب العمل به ، فأجابه رياض باشا أن لكم مجلس شورى فكان أحق أن تذاكروه وأنا للآن لا نعرف سبباً لاستدعائنا مع وجود ذلك المجلس ، فحاول نوبار باشا دفع ذلك بقوله أن مجلس الشورى ليس من خصائصه النظر في مثل هذه المسائل . فقال رياض باشا أنه لا يرجي إصلاح ما دام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً وأنه لا ثقة له بأصل من أصول ذلك النظام وليس في الإمكان إجراء ولا واحد منها وأن الأغلط التي كانت منشأ للضعف والاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنجليز وإن ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنجليزية ، فعلى انجلترا أن تعالج هذا الداء وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مراراً وبلغته للورد دوفرين وشريف باشا وكنت أود أن أرى اللورد دوفرين مرة أخرى لأذكره بما جرى من الحديث بيننا وأعرض عليه مصره المنتظمة ، إلا أن شريف باشا أتى بما لم يكن

يرجى منه حيث دافع عن نظام دوفرين بقوله أن الإصلاح يحصل تدريجياً ، كأنه يريد بما يقول أن ما حوته شريعة اللورد دوفرين يصلح أن يكون شريعة يعود من العمل بها على أهالي القطر المصرى شىء من الفائدة وما كنا نظن أن مثل شريف باشا يرى مثل هذا رأى بعد وصول الأمر إلى ما وصل إليه . بعد هذا قال رياض باشا إنى لا أفهم لفظ بروتكتورا^(١) (حماية) ولا أعلم ماذا يراد منه ولكنى لا أرى وسطاً بين أمرين أما ضم البلاد إلى الحكومة الإنجليزية فتستلم إنجلترا إدارة أمورهما وتتولى شئونهما كلية كانت أو جزئية ، وهذا هو الذى أفهمه من تلك العبارات ، وأما ترك البلاد لأهلها فيأخذ بزمام السلطة فيها رجال من أهاليها وإليهم الحل والعقد في إدارتها فانتحلوا مذهباً من المذهبين فإن القول بحل وسط بينهما ضرب من الجنون اهـ .

وليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا فمهدنا به رجل ذو حياة وطنية وإحساس بما يلزم لحفظ حياته هذه ، وهى أشرف أنواع الحياة ، فإن تكلم فإنما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر تثيره قوة حيوية وكان أملنا أن يوجد من طرازه كثير فى الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نزلهم هذه الحوادث المريعة ومثلت لهم مستقبل بلادهم فى حاضرها ولقد أدى الرجل حقاً واجباً عليه والقائم باداء الفريضة قد يشكر إذا أهلها المكفون بها حتى صارت عندهم من نوافل الأعمال أو فى منابذ الكاره ، ولكن يأخذنا العجب من بقية أعضاء هذا المجلس الموقر كيف محجوا أو تلكأوا أو سكنوا وكيف وسعهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما فى ضمائرهم . إنا لا نعلم أحداً منهم تجنس بالجنسية الإنجليزية وحاشا جميعهم من ذلك ، ولا يختلج فى صدورنا أن مصرياً أو تركياً أو شرقياً أياً كان يميل ميلاً صادقاً إلى تسلط الأمم الأجنبية على بلاده أو يخلص فى خدمة الإنجليز ومجاراة رغائبهم إخلاصاً صحيحاً خصوصاً أولئك الأمراء المصرح بأسمائهم ، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الأسف فى ماحل بيلاده

وقائياً من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه ومضمجلاً من الكدر على ما عقبه حاول القوة الأجنبية من انقباض الأنفس وانقطاع الآمال وعموم الاختلال وشمول الفقر والفاقة وبطلان حركة الأعمال ، بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق أذانه أخبار التصرف الإنجليزى في إدارات حكومته وكف أيدى الموظفين من أبناء ملته من أداء ما يجب عليهم لبلادهم وبسطة أيدى أولئك الأجانب في الإنفاق من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنيه بدون حق شرعى ولا مصلحة وطنية أو عندما يرى غنياً أعدم وعزيراً ذل وكسياً عرى وجباً أشرف على الهلاك من ضغط المظالم ، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من أنوان الكموده وفي أعضائه من أنواع الرعدة وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الموم وخواطر الغموم لما استطاع القلم تعبيراً ولو قفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير . هذا هو الذى لا يبرأ منه أحد منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان . كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة إنما كان بوصف قيامهم على أعمال البلاد وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبى فلا داعى تبعته إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة ، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم إلى أحط المنازل ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه . فما الذى أمسك بالسنتهم عن الكلام !! هل الخوف ، فمن أى شىء يخافون وما الذى يخشونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقاً وثبتوا عليه ؟ ماذا يصنع بهم الإنجليز إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في إتقاذها ، هل علموا من عدل الإنجليز أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة . إن كان هذا فما يبتغون من الحياة . هل ظنوا أن الإنجليز إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وإن كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا أن يوصلوا ضرراً إلى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها . إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار

فكره ، فماذا كان يضر الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه . قد علم العقلاء من كل أمة أن أسباب هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة واتحاد الرأي على مصادمتها وما نراه اليوم من سعادة الأمم العظيمة إنما كان منشؤه ملات الشقاء التي أنستهم الضغائن والأحقاد وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية وأخذ كل بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع وأساس الملة أن ينقلع وما سمعنا من أمة اتفقت فخابت ولا ملة افرقت فنجحت .

ألا يعلم أمراؤنا أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنجلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وأن جميع الأسماع في الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين وهي أنا قادرون على إصلاح شئوننا ولا نريد قوة أجنبية تحل في ديارنا . امتدت أعناق السياسيين في أوروبا وانحنى إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم والتوت أعصابهم والمصريون يشحون بها عليهم . ماذا ينتظر الأمراء المصريين في قول الحق أن الأمم لا تطلب منهم إشهار السلاح ولا بذل الأرواح ولكن تطلب منهم قولاً صريحاً لا يجلب إليهم ضرراً ولا يقرب منهم خطراً لا حول ولا قوة إلا بالله .

السودات

قمنا في العدد الماضي أن مدينة بربر في حالة يخشى عليها من السقوط في أيدي الثائرين وجاءت أخبار هذا الأسبوع أن حاكم المدينة ، بعد إلحاح طويل على الحكومة المصرية في إرسال نجدة عسكرية إليه ، لم يحز طلبه قبولا فإن الوزارة الإنجليزية لم تر ذلك صواباً وبناء على ما رآته الحكومة الإنجليزية صدرت الأوامر إلى الحاكم (حسن باشا خليفة) أن يحلّي المدينة بما يمكنه من السرعة ، فشرع في إخلائها متقهراً بالحامية جهة الشمال إلى كوروسكو وبعث بفرقة من عساكره عددها مائة وخمسون جندياً لتسبقه إلى حيث ينتهي في رجعته وبعد أيام يرسل ما بقي منها طبق الأوامر التي وردت إليه وفي الظن أن إخلاء المدينة لا يتم بدون كفاح وقتال وسفك دماء ومع هذا كله فنأمل الحاكم أن يتم له إنقاذ الحامية جميعها وإرسالها إلى كوروسكو قبل وصول رسل محمد أحمد لتحقيق أن أربع فرق من العساكر الاحتياطية (باشبوق) مع خمسمائة عسكري مصري (كلهم من حامية بربر) إنحازوا إلى أشياع محمد أحمد ويخشى أن الثائرين بعد استيلائهم على بربر يحاصرون جملة مدن في وقت قريب .

قالت جريدة التايمس الإنجليزية : ثارت جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر ولا يمكن أن يوجد رسل يجراؤون على السير إلى خرطوم لتوصيل المراسلات وإن عرض عليهم من النقود أعلى ما يمكن من المبالغ ، وقالت تلك الجريدة أن الأخبار الأخيرة الواردة من مصر تؤكد لنا أن قلوب الأهالي (المصريين) طافحة من النفيظ

والخفق على الإنجليز وأنه لا يوجد في مصر من يحب أن يرى إنجليزياً يخطر في بلاده (هذا الذي قلناه مراراً فالحمد لله أقره الخصم وارتفع النزاع) ثم اتبعت كلامها هذا بأنه لا يوجد في مصر الآن شيء يصح أن يخبر عنه سوى (اختلال واضطراب) فما عليه مصر اليوم يمكن أن يعبر عنه بهاتين اللفظتين وأن المخبرات مع خرطوم أصبحت من قبيل المستحيلات ، ثم قالت نعم إن الحكومة الانجليزية صرحت بأنه لا يمكنها إرسال عساكر إلى السودان قبل مضي أربعة أشهر ، ولكن عليها أن تنظر في واسطة أخرى لازالة ما جلبته على مصر من الفوضى .

أنجح الوسائط ترك البلاد لأهلها وتفويض الأمر فيها لصاحب الحق القانوني على تلك البلاد ومن له المنزلة العليا في قلوب جميع الأهالي ، فتسكن له القلوب وتحمده نيران الفتن ، ولعل التامس بعد أيام قلائل ترجع إلى موافقتنا على تأكيد بنفص المصريين للإنجليز وقد تنكره علينا من خمسة وعشرين يوماً وتبالغ في ميل الأهالي لسيادة انجلترا عليهم .

* ذكرت الجرائد أن جاسوساً وقف علي عزيمة عثمان دجعة في جبهة سواكن فجاء وأخبر بأنه مستعد أن يزحف بألني مقاتل إلى هندوب لقطع الطريق وأنه بعد ذلك لا يقف دون المهجوم على حدود سواكن بشدة عنيفة .

* جاء في جريدة الثان أن دخول الثائرين في مدينة بربر وإن لم يتحقق الآن بطريقة رسمية إلا أن ما أخبر به وكيل انجلترا السياسي في تلك المدينة يقطع كل ريب ويزيل كل شك في أن الخطر نازل بها لا محالة فإن قسماً من حاميتها فر لطلب النجاة والباقي انضموا إلى صفوف الثائرين جبهة وأنا نرى حلول أشياخ محمد أحمد بمدينة بربر يهيء لهم أن يطشوا قلب مصر العليا وليتهم يكتفون بهذا ولكن ستطمح أنظارهم إلى مصر السفلى . وأن ضباط الحامية المصرية في أسوان وردت إليهم مكاتيب من أحد زعماء الثورة بناء على أمر محمد أحمد ينذرهم فيها بسوء العاقبة ويتوعدهم بالقتل والنذبح

إن لم يتركوا المدينة قبل عشرة أيام ، ثم قالت تلك الجريدة إذا اجتمعت قوة محمد أحمد عند الشلال الأول فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة !!!

هذا الذى كنا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشرنا إليه مراراً ، جلته الحوادث ونطقت به الجرائد الفرنسية والانجليزية ولم يبق إلا إلتفات تلك الجرائد إلى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذى كاد يكون عضالاً وتنبه حكوماتها للنظر فى ذلك بمين الدقة والتبصر وترشدها إلى أن العلاج الذى ليس وراءه علاج إنما هو تسليم الأمر لدوى الحق فيه والعارفين بطرق تصريفه من المسلمين ، وستراها بعد أيام تتبع هذا السبيل المستقيم .



فرصة سانحة

دخل الإنجليز مصر فزعموا أن ما كان موجوداً من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جنداً جديداً فى عدد قليل واستلم الرئاسة عليه ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه يحسن النظام وسرعة النجاح وطننت بالإطراء عليه جرأئهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد ، فهموا بذلك مراراً مع العزم على عدم استبداله بآخر من أبناء الوطن وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن همهم ، كتموا أمرهم زمناً ثم عادوا للإشارة إليه تعللاً بما ينسبونه إلى بعض العساكر وهو من دسائسهم وآخر الأمر خفت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لا بد فيه من مشورة الدول .

فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية وتحويله ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا فى لأمتهم الرسالة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية .

إن الإنجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق فى المالية المصرية ذريعة للاقتلاب العظيم الذى حصل فى مصر وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذلك الاقتلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شئ من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق

الدائنين واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدها لتخفيف الفائدة مع محو حاميته الوطنية . أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التي لا يأمن طروقها حكومة من الحكومات . إن في تلك القسوة الأولى والرحمة الثانية لسراً عظيماً .

للإنجليز في مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم في الهند وفي خلد هم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعونهم فيما يريدون ببلادهم ، فضيقوا على المالية في تلك الأوقات وأجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف في القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحووا إليه وكان هذا التدبير سبباً في الانقلاب الذي تبعته هذه الحوادث الهائلة وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة في مصر طفقوا يسعون بما جبوا عليه من الموهبة في المضي إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم وأمورهم في تلك البلاد زمناً طويلاً ، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصاً من الوعد الذي وعدوها به مع رقب حوادث السياسة في أوروبا لعل حادثة منها تساعد على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية .

ولما كان من المحتوم في آرائهم بقاء عساكرهم في الديار المصرية فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصري حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة ، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوروبيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنجليز وهي التي سلكوها في البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة . دمر الإنجليز (دخلوا بلا استئذان) على الهندين في أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا

من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطنة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا إلى المال والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين بيد الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب . بدأوا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على منالبه إلا بالجنود الإنجليزية فأقبل الإنجليز على أولئك السذج يضمنون لكل ، صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز ويكون بعض الجنود من الهندين وبعضها من البريطانيين وماعلى الحاكم إلا أن يؤدي نفقتهم ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقاتلهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض وصار الإنجليز بذلك أولياء المتباغضين وسما كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين .

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنجليز خزائهم وتساهاوا مع أولئك الحكام في القرض وأظهروا غاية السباحة ، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به اليسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء وبعد مضي زمان كانوا يومئذ إلى طلب ديونهم

بغاية الرفق ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء وإنما نحن خادمون لكم . فيضعون أيديهم على غصروا (١) الأراضي وفيحاربونها وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة وحصوناً منيعة كما يفعلون ذلك في تكن (أما كن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية ، وفي خلال هذا يفتحون للأمرء أبواباً من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين .

وبعد هذا فلهم شئون لا يهتمونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلبت الأيدي فلا يستطيع أحداً حراكاً . ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشد لجذ عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ثم خلفوه على ملكه وكانوا يعملون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب لابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفي الكل هم الرابحون . هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا . ما فاجأوا أحداً بحرب وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ولا بما تطرف به أجفانهم .

(١) معناها أخصب الأراضي .

أولئك الإنجليز باقعة^(١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد المساكين المصرية وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً إنجليزياً يكون خادماً له وحافظاً للملكة فإن لم يقبل داروا بحملتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهبوا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة الغرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الإنجليز على الجند الوطنى وقدحهم في سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسميهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة

أما المؤتمر فالداعى إليه أن العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقاب الخالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبي بل من أراد عدواناً فلا بد أن يحفه بمواكب من الأدلة وحفال (جمع) من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو في هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة .

يريد الإنجليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم ويأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول الإقامة في وادى النيل إلى أمد ، فيكون تفويض الدول حجة لهم في التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظللاً بلاد أوروبا فإذا حدث حادث حرب في الدول الأوروبية وما هو بعيد الوقوع تربعوا في تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرائهم على أراضها وألقوا عصاهم . هذا سر شفقة الإنجليز على المصريين وهو سر رغبتهم في وقوف المؤتمر عند شئون المالية .

هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفر لتنتقض على المصريين ، هل تمس

(١) باقعة بمعنى داهية من الدوامى .

بجفيفها جانب ألمانيا ، كلا . فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهي في الشغل بما هو أهم منها وليست دولة أستراليا بأقرب المصائب المصرية من ألمانيا على أن كلا من الدولتين ليس في استطاعتها تأييد فكرها بالعمل ، لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها فإن مواقع الدولتين لا تساعداهما على الأضرار بدولة الانجليز أما إيطاليا فهي ساكنة الجأش بما تؤمل نواله في أفريقيا بمساعدة إنجلترا ، نعم لهذا السيل الجارف تدفق على بيت محمد على باشا فيخشي على أركان ذلك البيت ولم يتدارك أمره !!!

أما الدولة العثمانية فلو حولنا النظر عن حقوقها الثابتة في الأراضي المصرية من وجوه كثيرة فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأراضي هي الركن الأعظم للسلطة العثمانية في سوريا وقسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرى وفي الحجاز واليمن . فن الفروض على العثمانيين أن يبذلوا وسعهم لصيانة مصر دفاعاً عن حقوقهم المقررة وحفظاً لشوكتهم في معظم ممالكهم ولا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا في المسألة المصرية لا في جزئ منها ولا كلى فإن مصر عقدة تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية ، فإذا انحلت ، فقد انحلت « والعايا بالله » سائر العقد .

ليس لعثماني أن يتوسد وسادة السيادة البساركية الناعمة فإن الحاجات الطبيعية والدواعي الجوهرية هي الحاكمة على الأمم ولا اعتبار في السياسة بالأطوار المعارضة ربما يهيم بسمارك أن يشتري بمصلحة العثمانيين وداد الانجليز لتأييد سياسته وترك فرنسا منفردة بلا حليف وله أن يلقى بمصلحة العثمانيين في أيدي الروس إذا مست الحاجة ليدفع عن نفسه شراً يتوقعه ، وليس لبسارك أدنى غاية في الاتصال بالعثمانيين إلا بهذا المقدار يفدى بهم منفعة من منفعه ومن نظر إلى أحوال الأمم بما تقتضيه طبائعها ، حكم بذلك حكماً قاطعاً .

نعم من الدول دولة فرنسا كانت لها مزايا في أرض مصر أشرفت على

الزوال وليس بالسهل علينا ضياعها ولها أملاك واسعة فيما وراء البحر الأحمر ولا تنصان سلطتها على تلك الأملاك إذا نشبت أظافر الإنجليز في أحشاء مصر بأى اسم كان وتحت أى عنوان ، فأصول السياسة الفرنسية لا تسمح للفرنسيين بالتساهل في المسائل المصرية . ردولة الروس تسابق دولة إنجلترا في النصر والغيب بشرق آسيا وتنافس الألمان في القوة بأوروبا ولها مع ألمانيا مزاحمت خفية ثابتة في عناصر الأمتين لا يزيلها هذا التآلف الظاهري ، فقد يكون من أحكام سياستها الانضمام إلى دولة فرنسا لمضايقه إنجلترا في البلاد المصرية ، بل النظر في طبيعة حال الأمتين يقضى بلزوم اتحادها في المشاكل الأوروبية أيضاً وربما تكون هذه المسألة بداية الارتباط بين هاتين الدولتين .

ولعل هذه الفرصة لاتنفوت العثمانيين ولا تحجبهم الحوادث الماضية عن إدراك هاته النكتة وهى أن الروسيين هم أشد الناس حاجة إلى الاتحاد مع الدولة العثمانية في هذه الأوقات لما فتح لهم من أبواب للنعم في آسيا و يرون الألفة مع العثمانيين أعظم عضد لهم في نيل مطامعهم بتلك الأقطار ، بما للسلطان من المنزلة العليا في قلوب مسلميها ولا تأخذ العثمانيين رجفة من أبعاد الإنجليز وأبراقهم فليس لهم سلاح يشهرونه على الدولة العثمانية سوى التهيب . ومن المحال أن يفتاحوها بحرب وإلا تقلصت سلطتهم عن البلاد الشرقية بأسرها فإذا ثبتت الدولة في مطالبتها واشتدت في إرجاع حقوقها لجأ الإنجليز للخضوع والاستكانة إليها وهذا من البديهيات الجلية عند كل من وقف على أحوال الإنجليز في الهند وعلى مكانة السلطان العثماني في قلوب الهنديين عموماً والحكم لله يفعل ما يشاء .

== (العروة الوثقى) ==

لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً
ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ويتفق
معهم في مصالح بلادهم ويشار إليهم في النافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا
ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير
الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والإفساد في بلادهم
وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب
وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب
إن شاء الله .

اسماعيل باشا

لهج كثير من الجرائد الأوروبية في هذه الأيام بذكر اسماعيل باشا خديوى مصر السابق ومنها جريدة (البال مال جازيت) قالت : إما أن تستولى إنجلترا على مصر أو تسلم الإدارة فيها لاسماعيل باشا ، ونقل أحد محررى هذه الجريدة عن مدام توفيكوف وهى صديقة شهيرة لمستر جلادستون أنها قالت له أن أحسن وسيلة لتقرير الراحة فى مصر وجعل مصر للمصريين هو إعادة اسماعيل باشا إليها وذكرت إحدى جرائد ألمانيا أن كلامها يكاد يكون رسمياً .

أما نحن فسنبين رأينا فى هذه المسألة ونبدى فكرنا فيما يتعلق منها بالسلطان العثمانى والطريقة التى ينبغى أن يسلك فيها وما يرتبط منها بمصلحة المصريين وما يجب على إنجلترا أن تأخذ به لو كانت كما تزعم تريد التخلص من ورطة المسألة المصرية ولا نظنها صادقة .



== نجد ==

كتب إلينا أحد أهالي نجد رسالة طويلة يحكى بها ما فعله قنصل الانجليز
مستر (كورنل بيل) الذى كان قنصلاً لدولته فى خليج فارس ومقره بيندرا بو شهر
وما توسل به للمداخلة فى بلاد نجد فى سنة ١٢٨٠ أيام كان أمير نجد الأمير فيصل ،
وقصد برواية هذه الحادثة تنبيه إخوانه المصريين لشدة المشابهة بين تلك الوسائل
التي تشبث بها القنصل للتدخل فى سواحل البلاد النجدية وبين ما آتخذ الانجليز
وسيلة للهجوم على أرض مصر ، إلا أننا لا نذكرها الآن لقدم عهدا وسنفرد لها
ولأمثالها كتاباً مخصوصاً نفصل فيه ما فعل الانجليز فى البلاد التي حاولوا الاستيلاء
عليها ولم يستطيعوا مع استمرارهم فى طلب ما يمكنهم من مقاصدهم ونطبع هذا
الكتاب ونوزعه مجاناً !!

== الصحف الهندية ==

جاءت إلينا الجرائد الهندية فسرنا اعتدال سيرها في خدمة أوطانها وزادنا سروراً عنايتها بترجمة مقالاتنا المتعلقة بأحوال الشرقيين عموماً والسليين خصوصاً ونقلها من اللسان العربي إلى اللسان الهندي فله شكرها على ما صنعت ونخص من بينها جريدة (أخبار دار السلطنة) التي تطبع في كلكتة وجريدة (مشير قيصر) التي تطبع في لكهنؤ وهذا كان أملنا في أرباب تلك الجرائد وليس بنفرب على غيرهم الدينية والوطنية .

هذا ما كان من مسلمى الهند وهم في قبضة الانجليز من مدة تريد على قرن وإننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا عن بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبة . مع أنهم أحق الناس بالأقدام على أمور عظام في هذه الأوقات فإن الآمال في خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة فكيف يصل يمعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم إذ أهم ما فيها الدفاع عنهم .



صفحة خاسرة

كتب إلينا صديق فاضل من أخلص المؤمنين بالقطر المصرى قال :

إن مأمورى الانجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحليل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الانجليزية إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بنيات الانجليز ومقاصدهم وعلّموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضرر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط الانجليز فى ديارهم وقاوموا مطالبهم بمزائم ثابتة وقلوب غير واجفة وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الانجليز رغبتهم وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم، بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره فإن وجد بينهم شخص يتخذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى إفناء ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به ، وما أخبر به الصادق أن كليفور لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط المهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده ، لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يسلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم ، فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبي ، فكيف لو كان الأجنبي لا يقاس بظلمه

ظلم ، ثم قال صديقنا الفاضل زاد الويل أضماً على الأهالي بالمجالس المحلية فإن الانجليز لم يراعوا في تشكيلها مصلحة الرعية وإنما وضعوا في جوهرها ما يضيق عليها سبل المعاملة إخماداً لنفوسها لينالوا حظهم من الزيادة عليها ولم يعلموا أن بحس الحقوق من أشد موجبات العقوق وفي الأمثال العربية (زر كلبك للطاق يأكلك) أى ضيق عليه . أما الفلاحون فأحوالهم سيئة ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجداد ، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم ، والأجانب قائلون على اقتضاء ديونهم منهم والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس . ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدالين في فناء ديوان الحاقانية على خراب بيوت الفلاحين ، هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها ، وهذا ينق عليه بمبيع بعضها ، والآخر بالحجر على أملاكه والحكومة لا تنفي في طلب ضرائبها قبل أو ان المحصولات ، أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصاً من تمديدات الأجانب على سكانها ، فالننازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتنزيم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبي في شيء وإن كان هو الممتدى ، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له أنه يحاكم في محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأساً واكتفى في فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد . هذا بعض آثار العدالة الانجليزية ، وجاء في خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الانجليزى في إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين . أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد انقض بئاؤه واقتلع أساسه واخترن الانجليز انقاضه في خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص وجاهرُوا

بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكد روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفريقية
فإن جميعها يشتكي الملل والسامة من رواية أخبار السوء كل يوم . إلا أن من غريب
الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية نشرت ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم
واحداً وأربعين رجلاً ، فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلاً على بلوغ الاختلال
إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين
باليسر وهو على كل شيء قدير .



== أخبار سياسية ==

* قبلت الحكومة الفرنسية أن تدخل في المؤتمر لكن على شرط أن لا تذهب إليه مغلوله اليدين غضيضة الطرفين وأن لا بد قبل ذهابها إليه من مخاطبة بينها وبين إنجلترا فيما يلزم أن يكون موضوع البحث في ذلك المؤتمر . وقد أجمع السياسيون في فرنسا على ضرورة امتداد البحث إلى ما وراء المالية من إدارة البلاد المصرية وإقرار الراحة فيها .

* الجرائد الانجليزية تظهر خوفها من تشديد فرنسا وتستنجد أوروبا وترى أن تدخل الدول جميعها في مصر وإقامة مراقبة دولية لحكومتها لا تمتاز فيها دولة عن دولة خير من مداخله فرنسا وحدها مع إنجلترا وإن عارضت ذلك جريدة التايمس وحدها . وفي بعض الجرائد الروسية أن إنجلترا لا يمكنها أن تضع حمايتها على مصر لظهور عجزها عن إدارة البلاد بعد احتلالها سنتين وهي مطلقة التصرف لا مزاحم لها ، وبعد العجز لجأت إلى دول أوروبا . أما دولة فرنسا فلا يهمها إعادة المراقبة المشتركة بين الدولتين ولكن يهمها أن لا تختص إنجلترا بالامتياز في مصر .

* ذكرت كثير من الجرائد الألمانية نقلا عن مصدر يوثق به أن الباب العالي لم يقبل الاشتراك في المؤتمر إلا على شرط أن تكون المداولة فيه غير واقفة عند حد المالية بل من اللازم أن يكون موضوع نظره لأئحة جرانفيل المرسلة إلى الدول في يناير سنة ١٨٨٣ (عندما كان دوفرين في القاهرة) وعلى هذا فالدولة العثمانية تطلب النظر في المسألة المصرية بجميع فروعها لاتصال بعض أجزائها ببعض ، وفي جريدة

الثان أن الباب العالي بعد مخاطبة الدول والاتفاق معها خصوصاً دولة فرنسا أرسل تلغرافاً إلى موزوروس باشا السفير العثماني في لندن بأنه مستعد لقبول المؤتمر على شرط أن يكون بحثه في الشؤون المالية والسياسية والإدارية .

في جريدة (جازيت ناسيونال) الألمانية أن سير فرنسا في المسألة المصرية موافق لسير جميع الدول لا سيما ألمانيا وقالت أن إنجلترا أصبحت منفردة وهذا مما لا يسر ألمانيا .

استفيد من خطاب المستر جلدستون في مجلس البرلمان أن لنواب الدول عند اجتماعهم أن يبحثوا فيما سوى المسألة المالية إن أرادت الدول ذلك وإن كان هذا يناقض ما صرح به جرانفيل في جلسة أخرى ولما سئل جرانفيل عن هذا التناقض أعرض عن الجواب وقال إن الحكومة مستعدة لإيقاظ جوردون (هذا مما يضحك) .

أخبار السودان تشعر بالشدة فقد أخبر الحاكم في دنقلا أن رسلا بعثوا إلى إلى الخرطوم فعادوا ولم يتمكنوا من الوصول وقالوا أن الثائرين محدقون بجوردون من جميع الجهات . في برقية من القاهرة أن الثائرين مجتمعون في عيون أبي سعيد على القرب من أسوان وأن زعماء جيش محمد أحمد طلبوا من حامية دنقلا أن تسلم بعد ثلاثة أيام وإلا فتكوا بهم .

جرت مشاجرة بين بعض المساكر الإنجليزية وبين العربان النازلين على شواطئ بحيرة مريوط وقتل فيها عدة أشخاص .

الأخبار متواترة بأن عثمان دجة يحاول الهجوم على سواكن وينازل بعض

— ٢٨١ —

القبائل التي لم تدعن لدعوة محمد أحمد علي القرب من طمانيب .

* المستر جلاستون وعد بأن يرسل جيشاً إلى السودان لكن لا بد من
مراعاة الفصول والأهوية ثم أظهر تجافيه عن حرب السودانين الذين يدافعون عن
حريتهم وبلادهم .

المسألة المصرية دولية

إنا أنذرنا الإنجليز خطراً قريباً على الهند ونهنا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم ربما يحمل تركان سرخس على الإقضاء بهم وأشرنا إلى ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الإنجليز، واليوم وقع ما توقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخذت بمحدودها حكومة الأفغان وارتعدت فرائص الإنجليز وغشيم الفزع والقلق واعولت جرائدهم نحيباً ورددت نشيجاً وأحست بقرب الأجل ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بترسبرج الشبيهة بالرسمة من أن سرخس اسم يشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وإنما دخل في حوزة الروس أولاً فإن الإنجليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة (نهر تجند) عرضها عشرة أذرع بالتقريب، على أن سرخس التي حكم مهندسو حرب الإنجليز أنها باب الهند من طرف الشمال وأنه ممر فاتحيه من زمان قديم ومن طريقها طرق الهند اسكندر الأكبر ونادر شاه الإيراني وأن وصول الروس إليها مما يخرق سياج الهند إنما هي سرخس القديمة. ومما زاد الإنجليز فزعاً واضطراباً أن التركان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندكوف حاكم ما وراء بحر الخزر من الولايات الروسية ووصل الوفد إلى عشقا باد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس إليها .

وقع الإنجليز الآن بين شرين عظيمين خطر عاجل وحتم آجل، أما الثاني فهو أن الروسية إما أن تتحد مع الأفغانين وتحالفهم على مطاردة الإنجليز وهو الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الإنجليزية

وليس بخاف ما يضره كل أفغانى لكل إنجليزى من الحقد والضغينة والأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم فكيف إن وجدوا مساعداً قوياً . وأما أن تميل حكومة الأفغان إلى الانجليز وهو من فرض الحال فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الأفغان مثل حميدى وفيروز كوهى وبين قبائل التركان المتأخمين لهم ويعقبها حرب بين الروس والإنجليز لأن كلا من الدولتين مضطر للدفاع عن حليفه بل للروس حق المناضلة عن رعاياها التركان ، فإذا زحف الروس إلى الأراضى الأفغانية تقطعت جبال حيل الانجليز وامتنعت عليهم وسائل الدفاع وهذا آخر حياتهم فى الهند .

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهندين بخبر استيلاء الروس على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة يلتمسون فى أضواءها طريقاً للخلاص من الضيق والظنك الذى شملهم ، وسبيلاً للنجاة من الويل الذى جلبته عليهم مظالم الانجليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عندما وصل إليه الهندين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الإيرانى على هراة بل انتقاض الهند على الانجليز فى هذه الأيام أقرب فإن خواطر المسلمين من سكانه فى هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السودانى بل بما يمكن فى أهوائهم من الميل إلى تصديقه وإن لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدابير دولة بريطانيا .

تريد دولة انجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام فى هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد أحمد وتورط الانجليز فى مقاومته إلى مسامع الهندين ولكن سيحمل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الخليج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بأذانهم .

هذا تأييد إلهى للدولة العثمانية فعليها أن تنهض بمزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها فى الملوك وعلى السلطان العثمانى أن يتذكر أنه خلف لأولئك

الأسلاف العظام الذين ما أضعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً ويقتضى من الانجليز حقه ويسترد مصر من أيديهم ويطهرها من جرائم الفساد ولا يقنع بما دون الحق ولا يدع لهم فيها شيئاً إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول ولا تفوت العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذى سقط فيه الانجليز كما فات الإيرانيين الانتفاع بثورة الهند فى الأيام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم وإلا لكانوا أوقفوا بالانجليز ونالوا الغاية من ضرهم .

على العثمانيين أن يتلافوا الأمر قبل أن يشب الانجليز حرباً صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية ، ليس للدولة العثمانية أن تهاون فى مطالبها أو تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة ولا أن تخشى فى ذلك تهويل الانجليز وجلبتهم فإن كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الانجليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة . بل الذى يفهم من جملة مقالاتهم أنه لا توجد دولة من الدول ترضى بأن يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانجليز على مصر أو وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس . وإليك طرفاً من آراء الجرائد وما تنقله عن السياسيين .

قال مراسل التامس فى باريس أن فرنسا لم تقبل ولن تقبل أن يكون بحث المؤتمر منحصرأ فى المسائل المالية ولقد أصابت فرنسا فى عدولها عن طلب المراقبة المشتركة بينها وبين انجلترا ورغبتها فى مراقبة يشترك فيها جميع الدول فإن فى ذلك فوائد عظيمة لها ولنيرها ولا أظن أن حكومة انجلترا وافقت على ما ترغب فرنسا كما لا أظن أن فرنسا تتساهل فيما تريد وعلى هذا فأما أن ينمقد المؤتمر ولا تكون مداولاته مقصورة على مشاكل المالية وأما لا يلتئم أصلاً . ولا أمل لانجلترا إلا فى التستر تحت حيلتها وهى أن ترغب إلى الدول عقد مؤتمرين متعاقبين أولهما للمالية وبعده ينمقد الثانى للنظر فيما لم ينظر فيه الأول ، وقال مراسل الديلى تلغراف فى وينا أن خطاب المستر جلاستون الذى ألقاه فى مجلس النواب حرك دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا للاتفاق فى المسألة المصرية ، فصرحت جميعها بأن مصالحها فى مصر تقتضى

عليها بالعمل في حل هذه المسألة وليس من سياسة واحدة منها أن تنتظر زمناً طويلاً بعد ما مضى من الحوادث مع ما يتوقع نزوله بمصر من النكبات واستقر رأى الدول الثلاث على الداخلة في وقتها المناسب وقد انحلت ثقتها في مسلك الوزارة الإنجليزية .

وورد من فينا إلى جريدة التان الفرنسية الشبيبة بالرسمة من مكاتبها برقية قال فيها أنه اجتمع على رجال عظام في تلك المدينة واستطلع أفكارهم في المسألة المصرية فإذا هم متباينون في رأى فمن ظن بعضهم أن الواجب على دولة النمسا أن تأخذ جانباً عن هذه المسألة وتوسع المجال لدولة إيطاليا فإنها إن فعلت ذلك أرست إيطاليا بدون أن يلحق ضرر بمصلحتها ووافقت رغائب ألمانيا ومن رأى بعضهم أن حكومتهم لا يسوغ لها التخلي عن رعاية مصالحها في مصر مرضاة لإيطاليا ، بل لا يمكنها هذا وقد أخطأ من يظن أن ليس للنمسا منافع في البلاد المصرية . ثم قال الكاتب تلاقت مع رجل سياسى له شهرة بحرية الفكر وإصابة رأى فمن كلامه أن دولة ألمانيا ربما تجعل المسألة المصرية وسيلة لمرضاة الإيطاليين بأن تعد لهم فيها مقاماً رفيعاً لأن ألمانيا ليس لها قوة بحرية ولا يهتمها ما يجرى في البحر الأبيض إلا بطريق العرض . أما النمسا فإن لها في ذلك البحر مركزاً مهماً فخالها من هذه الجهة يخالف حال ألمانيا ، على أن حركات السياسة البرية لا بد أن تقذف بها إلى ذاك البحر وهو مما يزيد حراً على تعزيز جانبها فيه وليست المسألة المصرية إلا مسألة البحر الأبيض فمن له فيه شأن يراعيه فله الشأن في المسألة المصرية وعلى حسب درجة الأول تكون درجة الثانى ثم أطال الكلام في بيان المنافسة السياسية بين دولة النمسا وإيطاليا وما يطمح إليه نظر كل منهما ، غير أن هذا ليس مما يمنع الدولتين عن الاتفاق في معارضة الإنجليز وخفض منزلتهم في مصر والبحر الأبيض . أما جرائد فرنسا ورجال سياستها فعلى رأى واحد في وجوب تحويل المسألة المصرية عن وجه كونها إنجليزية إلى وجه كونها دولية أوروبية وارتاحت لهذا نفوس الدول ومالت إليه أفكارهم نسأل الله حسن العاقبة وإليه المصير .

—(العروة الوثقى)—

مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرلها !!

انعقد مجلس الوزراء المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها فى تلك الديار . فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر ، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنياً (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز فى مصر !!) أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختياري فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم ولا يحتلج فى صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل . هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ولها سعى ، بل كل السعى لخبية آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . تلتبس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التى فغرت أفواها لالتهمهم . ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب . هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم

أن حركات الآمرين في القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخاطبها شيء من الاختيار ،
والمدبر لرحى القهر عليهم هم عمال الإنجليز .

ولأزيد أن نقول للإنجليز أنهم ظلموا في الحكم ، فإن الجريدة لم يوجد فيها
إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساوئهم وبيان
الزايات التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم ، لأنهم - الإنجليز - الذين أحسوا
بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى
ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب
حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه
وسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ، فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون
من رأيك وجوب الجهاد فينا فإذا أجابه : إننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس
اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دىنى ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل بين
فيها رأيه فى الآية أو الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته
ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع لطبع
وينشر ، بعثت به الحكومة إلى جزيرة أندومان نقياً مؤبداً ولورأيت تلك الجزيرة
لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين ، فدولة الإنجليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على
خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهيجس فى حديث نفوسهم لا ريب أنها تعد وجود لفظ
الإسلام فى جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت أو تسمى
فى تثبيتته بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق هذا الاسم من أى جنس كان .
فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن هم الرجال لا تقعدوها
أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة
الإنجليزية الظالمة ذلك بمزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى .

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانهُ لمناضلة الولى الحميم
ويقابل ثناءه بالذم ومدحه بالقبح وإحسانه بالإساءة ويواجه نصيحته بالظنة ولا نظن
أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو ، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة ،
فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه وكانت له مثابة
إلى الحق وركون إلى الصواب .

لا يحزن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة
المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية
لا دخل لها فى هذا المنع . فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرها بمنع جريدة لاشئ
فيها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل
عارف بأحوالها .

نصرف الانجليز في الهند

لا أريد بما أكتب في هذا المقال القصير تنفير قلوب المصريين من سلطة الانجليز فإن لى يقيناً بأن المصريين الذين أنبتهم أرض مصر لا يذعنون لولاية الانجليز عليهم بل يعارضونها بأرواحهم وأموالهم ولهم من الغيرة الدينية والوطنية ما يحملهم على ذلك وإن رأوا من عدلها مالا يصل اليه إنصاف أنوشروان ويفضلون ولاية مواطنيهم وإن مسهم منها أنكى ما يكون من الحيف اللهم إلا قليل ممن فسدت أخلاقهم وانتكست طباعهم وقليل ما هم، وإنما القصد كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الانسان .

إذا أشرف السائر على أى بقعة من البقاع الهندية الواسعة شخص بصره ودهش له بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع وما منحتها من الخصب الطبيعي حتى أن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأفنان ، تظل الواحدة منها امتداداً واسعاً من الأرض وكأن أديم الأرض بما استوى عليه من أنواع النباتات قد بسط عليه بساط من السندس الأخضر فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضى فى خفض من العيش وسعة من الرزق بل يظنهم أسعد من عمر الغبراء ، ولكنه إذا تجاوز السهول والأودية إلى المدن والقرى ضاق صدره وتقطر قلبه من مناظر سكانها . يرى آلافا مؤلفة يعبرون فى الشوارع والأزقة جيئة وذهاباً حفاة عراة بادية سوء آتهم ، كاسفة أحوالهم ، لا يجدون رمقة من العيش . يلتمس الواحد منهم عملاً من الأعمال الشاقة يقضى فيه نهاره وبعض ليله ليصيب من الأجر

عليه ثلاث فرنكات في الشهر بل فرنكين ونصفاً ولا يتيسر له . ويرى هذه الحال عامة حتى في المدن التي بسواحل البحر على كثرة الأشغال التجارية فيها . ويشدد به العجب عند المقابلة بين خصب التربة وجودة النبات وسوء حالة القاعين عليها ، ويحكم حكماً لا ريبه فيه بأن إدارة الحكومة الانجليزية (حامية النوع الإنساني) هي التي حرمت أولئك الساكنين من التمتع بما آتاهم الله من فضله . إذا سأل سائل عن حال كثير من أولئك المعدمين الذين لا يملكون تقيراً ولا قطميراً فربما يقف على أنهم كانوا من أرباب الثروة الواسعة والمقدرة السامية وكانوا يسكنون القصور العالية ثم أصبحوا يأوون إلى خصاص بل أقفاص . إذا انتقل الفكر للبحث عن السبب أوصله النظر إلى أسباب كثيرة يرجع جميعها لتصرف الحكومة الإنجليزية وأشدها ظهوراً وفرة الأناوات (خراج الأراضي) وثقل الضرائب على كواهل الأهالي فإن الحكومة قد فرضت على العاملين في زراعتهم ولم تجعل الأداء على حسب ما تجود به الأرض كل عام بقدره ولكنها خرصت (حرزت) ما تأتي به كل أرض على درجتها من الخصب وقدرت مبلغاً معيناً تحببه من العامل في الأرض سواء سلم زرعه من الآفات أو اجتاحتها الجوائح وقد يستغرق مطلوب الحكومة جميع المحصول بل يزيد عنه وأدائه حتم لا تردد فيه على أي حال ، هذا فضلاً عن الرسوم المختلفة التي لا حد لها ولا نهاية وتعرف عندهم (بالتكس) أي الرسوم الغير الثابتة أو الغير المحدودة وربما أتينا على بيانها مع بيان سائر الأعمال بالتفصيل فيما بعد .

في هذا المقام تذكرت شيئاً قد يخطر بالبال ، رب غنى في مصر يملك مزارع واسعة وإقطاعات كثيرة (أبعاديات وجفالك) فيركن إلى ما تفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده فيستوى عنده أجناس الحاكمين ولايبالي بولاية الإنجليز على بلاده حيث سلم له قوته ، وهنا أشير إلى طرف مما يعامل به الإنجليز أمثاله في الهند لتكون له عبرة .

أراد الإنجليز أن لا يكون لغيرهم يد على ملك واسع فيما تحت سلطتهم
ففرضوا على أرباب الاقطاعات رسوماً زائدة يؤدونها عن أراضيهم في أوقات محدودة
ثم وضعوا في قانون الزراعة أنه لا يجوز للمالك أن يقيم الدعوى على مزارعيه إذا تأخروا
عن تأدية ما شرط عليهم إلا بعد مضي ثلاث سنوات من وقوع موضوع الدعوى وإذا
خان المزارعون أو أهملوا في أعمالهم أو استأثروا بمحصولات الزراعة فلا يمكن لصاحب
الملك أن يخاصمهم في مجالس القضاء إلا بعد مضي تلك المدة ، إلا أنه يؤدي ما عليه
للحكومة في أوقاته رغم أنفه وإن لم يؤد إليه العاملون له شيئاً . وفي قانون المرافعات
عندهم أنه إذا مضي على موضوع الدعوى ثلاث سنوات لم تحصل في أثباتها إقامة
الدعوى فلا تسمع . فهذا يحمل العاملين في الزراعة على الاضرار بأرباب الأملاك
ولا سبيل لهؤلاء إلى استخلاص حقوقهم من أولئك والحكومة لا تترك من فريضتها
شيئاً ولا تتساهل في طلب أدائها بوجه فيضطر الملاك للتنازل عن أراضيهم للحكومة
الإنجليزية (العادلة) هذه أعمال من تأخذة ريبة في خبرها فليسأل الهنديين عنها .
وأن الجرائد الإنجليزية في الهند تنادى على حكومتها الهندية دائماً بوجوب التخفيف
في الوطأة والرفق في السطوة وتنذرنا بأن الأعمال الادارية والمالية لو دامت على نمطها
هذا لا يمضى قليل من السنين حتى يشتد الضيق والضحك في عموم الأقطار الهندية
ويضطر الأهالي لاصلاء فتنة عمومية لا طاقة لدولة بريطانيا بإطفائها ولكن لا يسمع
الصم الدعاء .

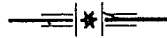
نصيحة في الأدب

﴿إِذَا صَادَفْتَ ظَالِمًا أَوْ قَابَلْتَ فَاجِرًا فَلَا تَقُلْ لَهُ أَنْتَ ظَالِمٌ أَوْ فَاجِرٌ !﴾

وردت إلينا من حضرة الفاضل مولوى عبدالغفور شهباز بمدينة كلكتا وهذا نصها :

ليس الأدب كما يظن بعض الناس مجموع قصص تتلى للفكاهة أو أساطير تنقل في المسامرات أو منظوم من القريض يمتاز بحسن الاستعارة ورقة التشبيه مع مراعاة المحسنات اللفظية والمعنوية من التورية والجناسات ونحوها من فنون البديع أو منشآت ورسائل تتضمن إطراء في المدح أو مغالاة في القدح فإن جميع هذا بمجرد لا يتصل بمعنى من معاني الأدب وإنما الأدب في كل أمة هو الفن الذي يقصد به تهذيب عادتها وتلطيف إحساسها وتنهيا إلى خيرها لتجتلبه وإلى ما يخشى من الشر فتجتنبه ، فالأدباء في الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم بل هم أجنحتها نظير بهم إلى ذروة فلاحها فإنهم بما يعلمون من طرق التفهيم يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن أدراكها ويسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه ويعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة فتستفيد منه العامة ولا تنكره الخاصة . فيأخذون على الظالم ظلمه ويعظونه بسوء عواقب الظلم وينكرون على الفاجر فجوره ويحذرونه مغبة الفجور حتى يردوا كلا عن غيه بما يروضون من طبعه بدون أن يقولوا له أنك ظالم أو فاجر!! وإذا رأوا في أمتهم عوائد يابأها سليم الذوق أو وجدوا منها أخلاقا وأعمالا لا تنطبق على شريعة الفضل وقوانين الشرع عمدوا إلى تغيير الموائد وتطهير الأعراق وأخذوا في ذلك سبلا متنوعة في إنشائهم تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة

وبهاء الفضيلة وما آل إليه أمر المتدنين بالأولى وما ارتقى إليه حال المتحلين بالثانية ،
وتارة بقريض الشعر يخيّلون فيه ما يحرك الهمم ويبعث الأفكار وينبه خواطر الكمال
وإحساسات الشرف الصحيح ، لا ما يوقظ الشهوة ويقوى الغرور ويخرج الأنفس
عن أطوارها . والأخذ به من وجهه والدخول إليه من بابه هو الذى سعدت به الهند
الأولى إلى أوج المجد وبلغ به العرب أقصى غايات الرفعة وهو الذى وصل بالأمم
الأوروبية إلى ما وصلوا إليه مما لا يخفى على كل ذى بصيرة ، وإنا نتأسف على ما نراه
من أدباء المسلمين وشعرائهم فإنهم يقصرون منشآتهم وأشعارهم على ما يكون عد
الصفات ، إما مذمومة أو محمودة ونسبتها إلى شخص يريد ذمه أو مدحه ، ويحصرون
رواياتهم فى حكايات مضحكة وقصص هزلية وبعض توارىخ ماضية بدون أن يلاحظوا
تأثير ما يكتبون وما ينقلون فى أفكار الأمة وأطوارها . ورجاؤنا فيهم أن يسلكوا
مسالك أدباء الأمم المتقدمة أو المعاصرة لهم حتى يكون للأمة الإسلامية نصيب
من فوائد ذكائهم وفطنتهم وسعة بيانهم وطلاقة ألسنتهم وأن يأخذوا فى منشآتهم
وأشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخاملة ويحركون القلوب الجامدة ويحيون مكارم
القيم ويوردون الأمة مورد سابقها من الأمم وإنا نرى بداية هذا المنهج الجديد
فى بلادنا ونسأل الله حسن ختامه .



أخبار سياسية

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأنه ورد للحكومة الإنجليزية أخبار عن الجنرال جوردون ، إلا أنه كتمها عن المجلس ولم يطلعها عليها ومع هذا فإنها مهملة من التاريخ ، ولم يعهد أن مأموراً سياسياً لدولة عظيمة يخبر وزراء دولته بلا تاريخ ولعل ما ألفه الوزراء البريطانيون من التويه على الشرقيين أصبح فيهم عادة تجري بينهم حتى على أبناء جنسهم وفي مجالسهم العالية .

وردت أخبار إلى (الدبلي نيوز) مفادها أن جميع القرى في شمال بربر إلى مهاوى جاهرت بالثورة وانقطع الطريق إلى بربر . وفي خبر آخر أن من الظنون ميل مدير دنقلا إلى منابذة الحكومة ، فقد كان يطلب من أيام مدداً يستعين به على إخلاء المدينة وإتقاذ حاميتها ، واليوم يأبى الخروج منها بل يطلب أن تبعث إليه نجدة يفتح بها البلاد السودانية فتحاً جديداً ، ثم استبد ، بما لم يكن من حدود وظيفته ، فأرسل بعض ضباط الباشيزوق^(١) إلى وادي حلفا ليأتيه ببعض الذخائر والآلات الحربية ونال رسله ألف بندقية وأربعمائة ألف فشك ونهبوا مخازن الحكومة وأحضروا معهم عدداً من المدافع إلى دنقلا . وربما يعاب على المدير إتيان مثل هذا العمل ويعد من باب الخيانة لحكومته المصرية ولكن ماذا يصنع بعد ما علم أن الحكومة المصرية خرجت عن كونها حكومة وطنية بتصرف الإنجليز فيها وإن حكامها أصبحوا لا يملكون من الأمر شيئاً فإن صدق هذا المأمور في خدمته فلا تكون فائدة الصدق لإثبات قدم

(١) الباشيزوق ، بمعنى الاحتياطي .

الإنجليز في بلاده وتأيد ملكتهم عليها فيكون في الحقيقة خيانة لوطنه وبخساً لحقوقه ،
فله العذر إذا انحاز إلى الفئة الثائرة ما دام الإنجليز حكاماً في مصر .

* يقال أن محمد أحمد سار من الأبيض لفتح دكاشيا أو خرطوم ويغلب على الظن
أن مسيره لفتح خرطوم فإن حل بها ما حل ببربر وشندى مع هيجان القبائل
في الجهات الشمالية ترقبنا عاقبة هائلة أنذرنا بها وحذرنا منها مراراً عديدة .

* من رأى أحد المراسلين لجريدة (الدلي تلغراف) أن الجنرال جوردون سيقم
في خرطوم إلى فيضان النيل ، فإن لم تأت نجدة يقوى بها على الفوز بنجاح مأموريته ،
لزمه أن يصعد على النيل الأبيض إلى خط الاستواء وأنه يمكنه بعد ذلك أن يعمل أعمالاً
عظيمة في الأمم الأفريقية القاطنة فيما وراء خط الاستواء . ثم عقب كلامه بأمانى وأوهام
لا تنقص عن أمانى جوردون عند ما سار من القاهرة إلى خرطوم .

* في برقية من أسوان إلى (الدلي نيوز) أن ابن أخى حسن باشا خليفة ومعه
شخص آخر فر من بربر وكانا منطلقين إلى جهة الشمال فاعتقلهما عرب روباتاب
بالقرب من أبى حمد .

* يقال أن الحكومة المصرية (أو الإنجليزية) تجتهد بوسمها للمحافة
مع قبائل العرب في جنوب مصر ليكونوا لها عوناً على مدافعة سيل الفتنة إذا ارتفعت
غواربها على حدود مصر الطبيعية . ولا نظن أن سميها ينجح لدى العرب فإن ذمتهم
ودينهم لا تسمح لهم بمساعدة الإنجليز في تملك بلاد المسلمين .

* أبى اللورد جرانفيل أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير
بارين فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد جرانفيل سيطلب من الخديوى
أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا .

هذا كله والإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في الإدارات والتحكم في أولياء الأمور . هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من جرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديوى باستيزار فلان ، فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة .

* في خبر أن الأميرال هفيت وصل إلى أدوفا (من البلاد الحبشية) وأسلفنا أنه كان في نيته إغراء ملك الحبشة بإيقاد حرب صليبية يهلك بها أمم العالم فداء لشهوات الإنجليز إلا أنه جاءت الأخبار بعد هذا أن الأميرال لم يصادف سعة من صدور الحبشيين وأن الملك يوحنا وقف على خديعة دولة إنجلترا ولم يظهر عناية بما أتى إليه الأميرال ولم يبعث للملاقاته أحداً بل أظهر الحبشيون غاية الخشونة في معاملة الوفد الإنجليزي حتى أنهم امتنعوا عن بيع المأكولات لهم وقد ذكرت بعض الجرائد صورة المعاهدة التي يراد عقدها مع ملك الحبشة ولا يهمنا الآن ذكرها .

* هجم جماعة من الثائرين على سواكن في التاسع عشر من هذا الشهر وزحفوا إلى المدينة حتى صاروا على خمسين متراً من أسوارها ثم أطلقوا عليها النيران مدة ساعتين حتى أثر الرصاص في كثير من البيوت ولم يتحرك جيش الحماية أدنى حركة لمداغة هذا الهجوم العنيف . ويظهر من هذا أن انتصار الجنرال جراهام في سواحل البحر الأحمر لم يكن له أثر وإنما هو قول يذكر ورواية تؤثر وأن غزواته لم تزد الثائرين إلا إقداماً .

* * *

* كتب مراسل الثان في القاهرة أن لا صحة لما أشاعته الجرائد من القبض على مسيو أوكلى النائب الإيرلندي الذي حملته همته على السفر إلى الأبيض .

في الثواني الهلكنة !

هذا ما سأقت إليه الحوادث المصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لا سنة معها ، وحركة لا فتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة ، وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع وزراء الخارجية من سواها ، يتهايمسون ويتغامزون ، ويسرون خلاف ما يعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملت كل بصره للآخر لعله يلح من كان وجهه ما ينبئ عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت إليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتحليل المطامع ، في صور أبدها عن الحقيقة ، أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويحسمون الموهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الأمانى باهرة الأنوار بزهور الآمال ، وما نبت بهارها إلا على حبائل من المكر ، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر . هذا يسهل صعباً . والآخر يوعر سهلاً ، وكل يتبع لحاظ رصيقه إذا أحس منه لمحا لقصده أبرز له ألواناً من الفوائد الموهومة ليستلفتة عن مرامه ، وإذا شعر منه بفكر يوصله إلى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ويقطع سبيل فكره . منهم من يكسب الأصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره ، ومن الناس أقوام آخرون على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريمة وتتلقفهم أخرى ، وهم عنها غافلون . زلزلت بهم الأرض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بأرزائها ، وتوات

عليهم المزيجات ، وناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكرة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء وأولئك إنما هو أحزمهم رأياً وأثبتهم عزيمة وأشدهم بشئونه بصيرة .

يقول الإنجليز إنا عدونا على الهند من زمان طويل فاعتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأين ديارنا من هذا الملك العظيم في شرق آسيا . المسافات طويلة والشقة بعيدة فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطن لأقدامنا لنحتفظ بأملنا كنا فلنا حق في اغتصاب جل العالم لأجل الهند ، خصوصاً القطر المصري ، فإن به السبيل التي لا يمانلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى وكنا في تطلع إليها من زمن قديم وكثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل إليها فرثت في أبادينا بقوة حكام تلك البلاد حتى هيات لنا حوادث السنين الأخيرة ما أحلنا دارهم وأقرنا في قرارهم . إنا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيتته على كرسى الخديوية المصرية ، إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتحة ، فلنا حق التملك في تلك الأقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وإزالة الاختلال وكأنا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه ، لكن الغرض الحقيقي إنما هو تأمين طريق الهند قسناً لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل . فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا أن نتركه بعد الوصول . وحيث أننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن إخلائها لزمنا ضمانه الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد ولا نحب أن تكون مذاكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانا لا نرجو من مفاوضاتها فائدة . أما سائر الشئون فعليها تديرها وإلينا مصيرها . هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها إلى برلين ويرجون أن تكون مواصلها ومعاقدتها في تلك المدينة عاصمة الألمان .

أما البرنس سمارك وهو مدير السياسة في أوروبا ويده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكي عدواً وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ولا منافسة له مع الإنجليز تبعته على معاكستهم ، بل له إليهم حاجة في ضمهم

إليه وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها وقد تكون له من صلة الإنجليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا من الحلفاء ينالها يوم الحاجة إليها وما هو عنه يبعد فإذا يضره إذا أدخر عوناً وأساء عدواً والنفقة على خزينة غيره . نعم ربما يظن أن بسمارك يمنع عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض ويصعب عليه أن يصيب سياسته الجمع بين مراعاة إنجلترا لنيل مصافاتها وبين التمسك بمهوده مع ذوى حلفه ، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضيق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرثوذكس والإيماء إلى الأراضي البلقانية وسالونيك ويجلوها لأنظار معاهديه فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين ، ويقلم أظفار روسيا من أوروبا الشرقية ويضع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً وفي كل ذلك الربح له ، والحساسة على غيره ، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الإنجليز ومكائد بسمارك . لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يحسب أثرها بمدخلة الإنجليز وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومدغشقر . لهذا تبذل الجهد لإجلاء العساكر الإنجليزية عن مصر وتخفيض سلطة الإنجليز فيها ويوجد لها عون من دولة روسيا ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوى العزيمة من رجالهم وميل أفتدسهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من أيدي الإنجليز سعياً في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الإنجليز ومطاردتهم من بلادها فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الأوقات لتستنفذ ممالكها من طمع الطامعين وتعيد ولايتها على الأقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين ، وأن جميع المسلمين ينتظرون منها الحدق في هذه المسألة ولهم فيها الأمل القوى والثقة الكاملة ، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون أن ينالوا بها حظهم من النعمة ، وليس على الدولة من بأس إذا طالبت الإنجليز برد حقوقها كافة ، فإنهم

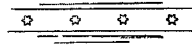
بالنسبة إليها أضعف من أن يجاهروها بالعدوان ، وإنا نكرر ما قلناه سابقاً من أن الإنجليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حرباً خصوصاً في هذه الأوقات التي أصبحت فيها دولة روسيا متاخمة لمملكة الأفغان فإن أول أشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية وهذا جلي عند كل انجليزى أن التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسألة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا أن يركنوا إلى من ليس من أبناء جلدتهم فإن الثغرة التي تحمل على الحمية تكاد أن تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم . فعلى العقلاء من أهالى مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخلص بلادهم مستعينين بأفكار الدول التي تقضى عليها مصالحها بالسعى في إبقائها وإعادة شأنها الأول وتحقيق ما يقال من أن مصر للمصريين .

وبالجملة فالأطماع فغرت أفواهاها ، والأفكار في اضطراب شديد ، وظنون الناس شتى ، فمن قائل أن المؤتمر لا ينبغي لتعسر الإتفاق بين فرنسا وإنجلترا على القواعد الأساسية للمداولة فيه ، ومن قائل أنه ينبغي على أن يضع مصر تحت حماية عموم الدول ويقرر إنشاء مراقبة دولية مع بقاء العساكر الإنجليزية مدة سنتين ، وعلى أى حال فالرزية إنما تصيب الغافل ، والسوء إنما يحيق بالمتساهل ، والجبان محروم من حقوقه والعامل بيد غيره خاسر ، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشجاعة والإقدام ، ويرفعوا علم الهمة أبقاء لحياتهم ، وصوناً لشرفهم ، والأمر له يفعل ما يشاء .

منشور انجليزى قديم

نشرت حكومة انجلترا فى الهند منشوراً منذ مائة وثمانين سنة
وهذا ترجمته :

إذا وجدت فى دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انجليزى (أى لا تليق
أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف) وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين
الباقيين على دين زرادشت (المجوس) ، فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها ، أقيم فيها
وثنى (عابد صنم) فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدى عملها كلف بها مسلم ،
فليس للمسلمين فى الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسى والوثنى وهذا
هو عنوان محبة الانجليز وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم ، لا أكثر
الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار !!



ان في ذلك لعبرة لأولي الألبصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم أن تسود عليها وتستعبدتها وتذلها للعمل في منافعتها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار ، ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلا عن الإرادية . إن الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون ، تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحرمة ، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذل الأمة إلا بافنائها عن آخرها ، أو إفناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزماني (١) . هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الفارة على الأمة : نعم يسهل للقوة الأجنبية أن تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحي تجتمع عليه قلوبها ، وتدين له رقابها ، لنزلة له في أفئدة أبنائها ، ولمكان آباءه من الكرامة في نفوسهم ، فلا تحتاج القوة الفالبة إلا لإيقاع الرعب في قلبه ، فيجبن ويقبل ما تحكم به ، أو نصب حباله الحيل له فتخذه بالأمان والآمال ، فيذعن لما تقضى به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبناة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقواد الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلمونها بالتهديد والتخويف ، أو يملكونها بالخدمة وتزيين الأمان ، فينالون بغيثهم وبأخذون أراضى الأمم ، وهذا الطريق هو الذي سلكه الإنجليز مع السلطان التيمورى في الهند ، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيمورى ، وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة ، لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة .

(١) شخص أزمن أى آتى عليه الزمان .

هذه قبائل الأفغان عند ما انحلت ثقتها بأميرها ، وصار الأمر إلى الأمة قامت كل عشيرة ، بل كل فرد للدفاع عن نفسه ، بعد ما عسكت عساكر الإنجليز في قلاعهم وحصونهم ، واستولت على قاعدة ملكهم ، وفتكوا بالعساكر الإنجليزية وهزموا قواتها وأجلوها عن بلادهم ، وهى ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة ، المسلحة بأحدث الأسلحة ، واضطر الإنجليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لا ريب أنه يسهل على الانسان أن يأخذ شخصاً واحداً وأشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ، ويتيسر له أن يقف على طباعهم ، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ، ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها ، وعقولها مختلفة عليه نفوسها في وحشة منهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا إلا لأن قوة المغالبيين داخلة تحت الضغط ، وأما آحاد الأمم وقواها فلا تضبط ولا يمكن مقاومتها إذا تناضت وشحت بنفسها عن الذل لسواها .

إن الأمراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة إلا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة لاضمحلالنا وفنائنا ، لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ ، والانكباب على الشهوات ، مع سقوط الهمة ، وتغلب الجبن ، والحرص والطمع على طباعهم إنا لله وإنا إليه راجعون ،

هجوم على السودان عبر النيل !!

جاء من لندن لإحدى وكالات الأنباء ما ملخصه : لا يظن أحد من الناس هنا (في لندن) أن الجيوش التي عزمت حكومة إنجلترا على سوقها إلى السودان يقصد منها إقحام جوردون . فإن جوردون معزز برجال من الوطنيين (المصريين أو السودانيين) أولى عزم وقوة ، ولهم سطوة تدفع بأس الذين يبعون به البشر . وإذا مست الحاجة إلى تخليه عن عمله وتركه لمركزه فلا يعدمون وسيلة لخلاصه ، أما القصد الحقيقي من بعث الجنود إلى السودان فإنما هو افتتاحه تحت العلم الإنجليزي وهو وإن كان يحتاج إلى زمن طويل إلا أنه قليل الخطر ولا توجد في سبيله عقبات سياسية حيث تنازلت الحكومة المصرية عن سياستها في تلك الأقطار .

يسهل على العساكر الانجليزية أن تسير إلى خرطوم على طريق النيل وأن سلكت سبيلا من الأرض اليابسة فلا تبعد عن شواطئ النهر (لتسكون تحت حماية المراكب وترافقها في السير مراكب تعد لقطع النيل والصعود إلى الشلالات فإذا وصلت العساكر والأساطيل النيلية إلى خرطوم واستولت عليها اعتصمت فيها حكومة عسكرية تمد نفوذها إلى قلب السودان ويكون في هذا عوض للانجليز عما يخسرونه في مصر لو ألزمهم المؤتمر بالتنازل عن شيء مما يطمحون إليه فيها .

وقالت جريدة (الريبوبليك فرانسيز) إنا نذكر هذه الرسالة على أنها شبه حجة على مقاصد الانجليز وإلّا فإننا نعد ما تحتويه من قبيل الأوهام والخيالات .

أما نحن فنقول من أمعن النظر في أعمال الانجليز وتتبع سيرهم في افتتاح

الممالك الشرقية ، علم صحة ما روته وكالة الأنباء . فإنه منطبق على قواعد السياسة الانجليزية وآت على أساسها الذى بنوا عليه فتوحهم من أزمان طويلة وهو أسل تعارفه الانجليز حتى صار كخصية لازمة لطباعهم ، ترد إليه جميع أعمالهم من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وعليه كان بناء ملكهم فى الهند .

إن الإنجليز أول ما خطوا خطوة فى الهند وجدوا مملكة (أود) من الممالك الواسعة وأغلب أهاليها على مذهب الشيعة ولها نواب (حاكم) عظيم من أهل ذلك المذهب ، فرأوا أن يحملوه على الاستقلال وزينوا له الطمع فى لقب شاه لينفصل عن الملك التيمورى . وفى التنازع لنيل هذا الطمع يصيب كلا من الطامع وصاحب الملك سهم من الضعف والوهن فيتهيا كل منهما للوقوع فى مغالب الانجليز وقد حصل .

وأول ما حلوا مصر ولحوا شرارة فى السودان أدنوا منها وقودها لتكون ناراً مهلكة فبعد ما طردوا الجيوش المصرية إيداناً بالنضب عليهم جمعهم ليسوقوهم إلى السودان تحت قيادة أعداء لهم من الانجليز فذهبوا وهم موقنون أنهم يساقون إلى الموت لينذوقوا وبال الانتقام فقلوبهم منكسرة وعزائمهم واهنة وعقائدهم لا تسمح لهم بالانقياد لرؤسائهم الأجانب ، وأحس السودانيون وهم مسلمون أن قواد الفارة عليهم ليسوا على شا كلتهم ، فزادهم حمية وإقداماً ، فكان هذا وذاك سبباً فى استفحال أمر السودان بعدما هلكت رجال وأنفقت أموال وساءت أحوال من السودانيين والمصريين ، كل هذا ليتوسل به الإنجليز لفصل السودان عن مصر بعد خراب الدارين وكانهم عندما أرسلوا جوردون باشا وأذنوه أن يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان قصدوا أن يتمموا عملهم ولكن لم ينجحوا .

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان أمير أفغانستان وبين (رانجيب سنك) البنجابي تخوف الإنجليز من تسلط الأفغانيين على بنجاب فتدخلوا في الصلح وسحروا قلوب الأفغانيين بلين القول ولطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور وما يليها لرانجيب سنك وانعقد الصلح على هذا وأجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب ورجعوا إلى بلادهم . وبعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب وافتتحوها لأنفسهم واستولوا على مدينة بيشاور فقال بعض أمراء الأفغان إن ذاك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح وأن الإنجليز في تعيينهم للحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين .

ومن نحو سنة ونصف أوماً اللورد دوفرين في تقرير كتبه بالقاهرة ، إلى أنه لا حاجة بالحكومة المصرية إلى السودان بل لا فائدة لها فيه ، وفهم الغرض في ذلك الوقت من أصابه ، وغفل عنه قوم آخرون اغتراراً بظواهر العبارات ثم لم يلبث الإيماء أن صار تصريحاً رسمياً وإلزاماً للحكومة المصرية أن تتخلى عن السودان . فلم يكن التلميح والتصريح ثم الإلحاح والإلزام إلا ليهيئوا البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم في وقت من الأوقات لسبب من الأسباب التي لا يعجزون في اختراعها متى شاءوا !! هذا سير يعرفه من قرأ صفحة من تاريخ الإنجليز في الممالك الشرقية . تريد حكومة إنجلترا إذا عارضتها الدول في السيادة على مصر أن تنشئ لها سلطة في خرطوم تمتد حكمها إلى جميع أراضي السودان وعساكرها الآن حالة في سواكن وما أسرع أن تصل بين المدينتين بالسكة الحديد فتكون القوة الإنجليزية بعد هذا محيطه بمصر من جميع الجوانب . وقفت على بابها من طرف الشمال في قبرص وطوقت حدودها من الغرب إلى الشرق في السودان وتحكمت في منابع النيل وتصرفت في أعلاه وأخذت كل طريق يمكن منه الاستيلاء على الديار المصرية ، وهنالك يرصد الإنجليز حركات الدول في أوروبا . فكلما أضاعت لهم بارقة فرصة مشوا فيها ، وإذا

أظلمت عليهم قاموا فيتقدمون إلى مصر خطوة بعد خطوة ولا يباليون ، طال الزمان
أو قصر ، فإنهم يعرفونها لهم على أى حال ، ولكنهم يتقون معارضة الدول في هذه
الأوقات . هذه غايات سير الإنجليز في الحوادث المصرية وهي كما قالت (الريوبليك
فرانسيز) خيالات وأوهام إذا اشتدت الدولة العثمانية ورجال مصر في المطالبة بحقوقهم
الشرعية والمحافظة على شئونهم وأخذوا بالحزم وعقدوا العزم على مقاومة سعى الإنجليز
في أوطانهم وديارهم بعد ما ظهر لهم ماذا يقصدون بهم ، فإن تهاونت الدولة العثمانية
أو تنافل المصريون حسبها الإنجليز طريقاً مطروقة وسبيلاً مسلوكة وعدوا مطامحهم
حقائق ثابتة ومطالب مقررة لا نجاح سعيهم ، ولا صدق ظنهم .

السودان ومصر

نشرت جريدة البوسفور أجيسيان ، التي تطبع في القاهرة ، خبراً - مصدره توفيق باشا نفسه - وهو أن الجنرال جوردون أنذر حكومته الانجليزية بأنها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام!! وضمت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالمعجب) وغرابة الخبر إن كانت من جهة أنه تهديد بما لا يهيم الحكومة فنحن نعلم أن الانجليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم وإن كانوا يرشدون الناس إلى ترك الدين ويعيرون على المستمسكين به ، لكنهم أشد الناس تعصباً فيه فلا محل للغرابة ، وإن كانت من جهة أن جوردون ، وهو من أشد قومه تمسكاً بدينه ، كيف يجنح للإسلام فهو إنجليزى الطبيعة كما هو إنجليزى الجنس يتلون ظاهره بأى لون ويبرز في أى ثوب لإصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب إن قال وفعل!!

في خبر أن محمد أحمد طلب إلى أعوانه المحاصرين لخرطوم أن يأتوا إليه بجوردون حياً ولا يمسوه بسوء إذا وقع في أيديهم .

وفي برقية من أسيوط إلى جريدة التايمس أن مركباً من مراكب البريد وصلت إليها تحمل ثلاثة أشخاص مرسلين من طرف زبير باشا لاستكشاف حالة جوردون وتوجهت في الحال بمن فيها إلى أسوان . هكذا الدهر أبوالعجب ، من سنين

قليلة فتك جوردون بأولاد الزبير وذوى قرابته وأفسد عليه شئونه وأخرجه عن جميع أمواله واليوم رأينا كدر الضغينة في صفاء المحبة يبعث الزبير على الرأفة بجوردون وتوجيه الرسل للسؤال عن صحته والاستخبار عن سلامة حاله .

جاء الخبر أن أهالي جرجا (مدينة من مدن الصعيد مركز مديرية في جنوب أسيوط) في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة ، وورد إلى تلك المدينة رجل من أشياع محمد أحمد قادما من القاهرة ودعا الأهالي للأخذ بطريقته فإذا بينهم جم غفير يجيب داعيه وينذهب مذهبه وهو مما يدل على أن القائم السوداني مهم بنشر دعوته محتاط لنفسه حاذى في عمله ونه دعاة في أرجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فإن ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشدد الحطب ولربما صار له بعد ميل الأهالي إليه منعة يصعب على حكومة غير إسلامية أن تقارعها . أما ما ديل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها والمسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع لأن الأيام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين زمام الآخر في جميع الأحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها والمقاتل التي وقعت أيام الحرب الماضية إنما كان منشؤها إفساد المفسدين على أنه لم يمس فيها قبطن بسوء ، والأخبار الصحيحة تؤيد ما نقول . (١)

وأرسلت الحكومة المصرية الآلاى السابع من المشاء إلى أسوان مع جملة من المدافع الجبلية وعدد وافر من الجمال .

(١) شكراً لله فما من زعيم أو مصلح شهدته أرض الكنانة إلا وقد كانت رابطة محبة الأديان رائده ... فالتعصب سرطان يفتك بأبناء الوطن الواحد ويشل نشاط أبنائه ... فتفتتح نفور .. تتسلل منها نفوس عفنة تهدم في الظلام ما تبنيه الأمة في أجيال . وقد حذر الأفغانى مسلمى مصر ومسيحيها من شر هذه الفتنة وهو في باريس ، فنعم الرجال ونعم الأخلاق .

وفي برقية من سواكن إلى جريدة الديلي تلغراف أن مناوشات وقعت من أتباع محمد أحمد بالقرب من سواكن ، وفي جريدة التايمس أن الثائرين أطلقوا مدافعهم على تلك المدينة في الساعة الثانية صباحاً من الثامن والعشرين من شهر مايو ، إلا أنه لم يصب أحد من الحرس وتقهر المهاجمون بسرعة .

عثمان دجة - مع ألف من رجاله - نازلون على القرب من طانيب ومعظم قوته حالة بتلك البلدة ويقال أن بنفوس عساكره كدراً من قلة الازواد^(١) وهو من أخبار العدو يسمع وقد لا يصدق .

وإن الأميرال هفيت المبعوث من طرف إنجلترا لخديمة الملك يوحنا ملك الحبشة لم يحظ عند الملك بقبول .

أراد رجال الانجليز أن يخففوا على القلوب المنخلعة من أبناء أمتهم أهوال السودان وما يتوقعونه من مصائبه فأشاعوا ظهور شخص يدعى المهدوية في دارفور ويقول أن محمد أحمد ليس إلا تلميذاً له من قدماء تلامذته ، وكان الانجليز يستبشرون بتفريق كلمة السودانين كما يسرهم تخالف المسلمين أجمعين .

(١) يقصد عدم زيادة المرتبات .

فريية دنيئة على الاسلام !

في برقية وردت لجريدة الديلى تلغراف من القاهرة في ٢٧ مايو ١٨٨٤
أن زبير باشا طلب إلى سراى توفيق باشا ، بناء على إشارة الحكومة
الانجليزية ، والتمس منه المستر أجرتون أن يجد وسيلة لإرسال مندوب إلى جوردون
باشا يأمره بالعودة حالا . واتباعاً لأمر توفيق باشا بعث الزبير بأحد خدمه لأداء هذا
العمل وكانت فرصة انتهزتها حكومة فرنسا لاستدعاء قنصلها في خرطوم . وقد ضمن
الزبير وصول المندوب وعودته بالجواب في خمسين يوماً هـ . إن صح هذا دلنا
على أن جوردون ليس معزراً رجال أولى بأس وشدة كما جاء في البرقيات
وأن الانجليز عجزوا عن إنقاذه بقوة حرية وإن كانوا ربما يقصدون الحرب
لغاية أخرى .

ونقلت الجرائد الأوروبية ما يعجب من نسبته لزبير باشا . ذلك أنه أشخص
ثلاثة من أولاده إلى رؤساء الثائرين ومع كل واحد منهم كتاب إليهم وهذا مفاده
نذكره ترجمة من تلك الجرائد بلا تصرف في عباراته :

شكراً للخديوى وللدولة بريطانيا العظمى وللجنرال جوردون . كل
أملأكي التي انتزعت منا سترد إلينا . يا أحبابي ويا أهل وطني إني أبعث إليكم
أولادى الثلاثة مصحوبين بريقم إلى الجنرال جوردون فدعومهم يصلوا إليه وسهلوا
سبلهم وأقسم عليكم باسم النبي وأسماء أجدادى الذين أكرموا الأسراء أن ترافقوا

جوردون إلى كورسكو وأن تعاونوه حتى يملؤ متن النيل . كل معاملة تسيء الجنرال
فهى تكسر خاطرى إلى الأبد . وأنا وعيالى هنا رهن الى أن يعود الجنرال جوردون
فإن عاد صحيحاً سالماً فحمد يحفظكم أبد الآبدين اه !!

وأنا أتبرأ ما فى هذا الرقيم^(١) ونسبته لزيير باشا فإننا نعرف الرجل مسلماً فقيهاً
فى دينه عالماً بفروضه وهو من سلالة العباس عم النبي ﷺ وفى نفسه حزازات
مما نكاه به الجنرال جوردون عندما كان حكامدار السودان ، وليس من أحد يحفظ تاريخ
جوردون ويحصى سيئاته كزيير باشا ، علمنا ذلك منه وهو يتنفس الصعداء من ذكرى
مصائبه أيام كنا فى مصر ، فكيف يمتدح الانجليز ويشكرهم وكيف يقوم بعمل يعود
بالمنفعة عليهم اغتراراً بما وعدوه من رد أملاكه إليه وهو يعلم أن كل مايفيدهم لايزيد
قدمهم إلا رسوخاً فى أوطانه ومن لاحظ أسلوب الرقيم تبين له أنه ليس بأسلوب
عربى خصوصاً ما جاء فى خاتمته من الدعاء فإنه لم يعرف فى عبارات المسلمين ما يشابهه .
فحمد لا يحفظ أحداً بل الله على كل شىء حفيظ . فلا يبعد أن عدو الزيير أراد
أن يشوه سيرته فرماه بهذه النسبة أو أن يكون الرقيم من مخترعات بعض الجرائد
الأوروبية للتلميح !!

(١) الرقيم : الخطاب .

صراع بشأن تثبيت الاحتلال !!

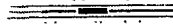
وجاء في برقية من برلين إلى جريدة (جازيت دو كولوني) ثبت أن من عزم دولتي فرنسا وإنجلترا أن تتفقا قبل انعقاد المؤتمر على موضوع البحث فيه كما اتفقت دولتا روسيا وإنجلترا على مدار النظر في مؤتمر برلين قبل انعقاده بواسطة اللورد سالسبورى والكونت شوفالوف . كل من الدولتين المتفاوضتين تمد نظرهما إلى ماعسى أن تؤول إليه مداولات المؤتمر وتحدهه وتقدره (ثم تدخل فيه على أن تكون الغاية ما قدرت) .

ربما حلت الدعوة إلى المؤتمر محل القبول عند بعض الدول إلا أن رضاء الباب العالى شرط في قبول حكمه والتسليم لقضائه ولو أن دولتي النمسا وألمانيا وأالدول جميعها قضت بأن يكون من قواعده الأساسية إجابة جميع الدول التى دعيت إليه مؤقتاً لم يكن قاضياً بوجوب الإذعان لما يبرمه وهذا هو شأن المؤتمر بالنسبة إلى الباب العالى على أى حال .

وقالت جريدة التايمس ، تيسر لوزارة إنجلترا أن تتغلب على مجلس النواب لكن ليس لها أن تعتمد على هذا الظفر الهين وعليها أن تستفيد في مدة البطالة لعيد العنصرة . فتنبجو بما تستفيدة من الخطر العظيم الذى ربما يحقق بها من المفاوضات الجارية بينها وبين وزارة فرنسا ، وتساهلت الوزارة في عقد عهدة تحالف مصالحنا مع شركة قناة السويس ثم نجحت في التلصص من قيودها ومنزعت المعاهدة وتركت مسيو ديلسبس على

— ٣١٤ —

أرض فقراء وليس بالسهل عليها أن تسلك اليوم ماسلكت في تلك الأوقات .
فلورفض البرلمان ما انتهت إليه المفاوضات في المسألة المصرية لما أمكن للوزارة
أن تبقى في مساندها . وإذا تعذر الوصول من هذه المفاوضات إلى غاية صالحة أمكن
الوزارة أن تتنحى عن العمل ، أما فرنسا وسائر الدول فليس لها أن تطالب مجلس
العموم في إنجلترا بمنحة شحت بها نفوس أهالي بريطانيا كافة ورفض السماح بها
عموم الآراء في بلاد الإنجليز (يريد بالمنحة ما تفضل به وزراء إنجلترا على الدول
من دعوتها للمباحثات في أحوال مصر) .



الثبات الثبات

حملت قوة الثأرين على مدينة بربر فافتحتها بعد ما فتكت بجميع حاميتها ولم يبق موضع للرب في استيلاء أعوان محمد أحمد على تلك المدينة وبعد تمكنهم فيها . زحف منهم ثلاثون ألفاً لمهاجمة دقلا ، وفي برقية من كورسكو إلى التاميس بتاريخ ١٣ يونيو أن محمد أحمد يزحف بنفسه مع خمسة وثلاثين ألفاً لفتح دقلا وله أمل في الفوز قبل أن يهل رمضان ، وقد بعث برقيم إلى مديرها وسماء أميراً عليها ومد سنة السلطنة فيها مع ما يليها .

وانقطع الطريق بين دقلا ووادي حلفا وامتنع سلوكها وأيست الحكومة المصرية من صيانة تلك المدينة فأصدرت أوامرها بتمهيد سبيل لرجوع حاميتها إلى مصر وشمرت حكومة انجلترا بتعاضد الفتنة فعملت على إرسال نجدة لإمداد حامية خرطوم كما أكدته جريدة (المورنينج بوست) الإنجليزية قنوطاً من نجاحها ، وعثمان دجمة يشتد عضده يوماً بعد يوم وله في كل ليلة هجمات على مدينة سواكن بل وعلى بعض المراكب في البحر .

أخبار ما نزل ببربر وما يتوقع نزوله بدقلا وغارة الثأرين على معسكرات الحكومة في وادي حلفا كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً في أسوان وهيجاناً في خواطر الكافة من أهل الصعيد وربما يخشى من وقوع مالا محمد عاقبته على الناكثين .

هذه مرايبك الإنجليز في مصر وهم في أوحالها لا يفترون عن السمي

إلى ما ثبت قدمهم فيها . وجاء في برقية إلى وكالة هافاس أن الجند المصرى دخل بأسره تحت إمرة الجنرال استفانوس (قائد جيش الاحتلال الإنجليزي) فصار الجنرال كأنه وزير الحربية وتحول الجند الوطنى إلى انجليزى وجيش الاحتلال إلى حامية مصرية ثم هم يسعون لالزام توفيق باشا بنصب ثلاثة مفتشين من الانجليز أحدهم فى القاهرة والثانى فى مصر السفلى (مفتش وجه بحرى) والثالث فى مصر العليا (مفتش وجه قبل) على أنهم لا يعزلون إلا بأمر من انجلترا فتتقلب الادارة انجليزية محضة لا يبقى فيها لحكام مصر إلا نهاية حال الدليل . الامتثال والطاعة : تصرفوا فى الأراضي المصرية العثمانية تصرف المالك فنحوا منها بقاعاً وفرضا على البحر للملك الحبشة ، وحالفوه على أن يسوق جيشاً ينازل المسلمين فى أراضيهم ، رجا تذليلهم وإخضاع أنفسهم وفى أثناء هرولتهم إلى مطامعهم يثيرون فى أعين الدول - اراً ، ويرفعون جلبه ، ويصيحون بأن لا غرض لنا إلا إقرار الراحة وإعادة النظام ، وقيمون الحجة على إخلاصهم برغبتهم إلى الدول فى مساعدتهم على حل بعض المشاكل المالية ، مع أنهم لا يرغبون عقد المؤتمر إلا لينالوا منه ما يزيد قدمهم رسوخاً فى مصر . وعلموا أن لفرنسا مصلحة فى مناوأتهم فطفقوا يهددونها بالتحالف مع ألمانيا أو التقرب إليها إن لم تتساهل معهم ليحملوها بالتهديد على الرضاء بإبقاء عساكرهم فى مصر إلى سنة ١٨٨٨ تحت اسم إقرار الراحة ، على شرط أن لا يكون بعد مدة إلا إجماع جميع الدول التى يكون لها نواب فى المؤتمر ، بحيث لو وافقهم إحداهن على إطالة المدة فيما بعد ، لسكنى فى تمديد الأجل أو إطلاقه وليس بخاف ما يقصدون من هذا الشرط . فإنهم يعلمون فى اختلاف مصالح الدول وتضارب السياسات ما لا يعمدون معه وسيلة لارضاء دولة واحدة فى زمن من الأزمان بالموافقة على مد الأمد ، ولا نحال دولة فرنسا يقف نظرها دون هذا الحجاب الرقيق وهو يشف عن ملم عظيم لا تسلم منه مملكة من ممالكها فى المشرق ، ولا نظنها تدعن لقبول هذا الشرط ، وإن قبلته دولة لا مصلحة لها فى مصر ولا يههما لا معاكسة فرنسا .

فكأنما سلك تصرف الإنجليز من خمس سنوات في سلسلة من الألاعيب
 نهايتها للتسلط على مصر في هذا المؤتمر بدعوى ، ثروة المالية المصرية ، وأن عجـزها
 من الحياة فيها وتوسلوا بذلك لانقلاب في هيئة الحكومة ثم الجاهوا عرابي للدخول
 في العصيان ليعتولوا به في الزحف لتأييد الحاكـم ثم وسعوا دائرة الخلل ليكون وسيلة
 إلى سلطة لا تحد يؤملون نيلها في هذا المؤتمر . زينوا للدولة العثمانية أن تصول على
 السودان مع وجود عساكرهم في مصر ، ثم تخرج وقد مهدت لهم مصر والسودان معاً .
 فلما لم تنخدع لهم وحق لها أن لا ترضى شدوا عليها بالتهديد قائلين أنهم لا يسمحون
 لعسكري نركى أن يذهب إلى السودان من بعد ولو لم تقبل الدولة العثمانية حضور
 نائب لها في المؤتمر على أنه منحصر في المالية فإنه سينتقد بدون رضاها . ولئن كان
 الإنجليز صادقين في طلبهم ، إقرار الراحة في مصر ، لوكلوه إلى عساكر العثمانيين وفوضوا
 الأمر لحازم حاذق من أمراء المصريين فإن ذلك إطفاء للفتن وتثبيتاً للسلم ولا خوف
 من الدولة على الإستقلال المصري فليس من شأنها أن تنقض عهد دولة واحدة في هذا
 الوقت فضلاً عن عهود الدول ولكن لا يهولن الدولة هذا التهديد فدعوة محمد أحمد
 بلغت في الهنـديين وتغلـغت ، وخبر قرب الروس منهم ملأ آذانهم ، والإنجليز
 يتوقعون الفتنة فيهم ساعة بعد ساعة ، والقوة الإنجليزية قاصرة عن مدافعة محمد أحمد ،
 فلو ثبتت الدولة العثمانية لخضع الإنجليز لقوة الحوادث رغماً عنهم ، فإنهم يفترون
 من أن يشاع عنهم أنهم مضادون للدولة العثمانية فالثبات الثبات والله المستعان .

برهمن لاهور

قد انكشفت (لفندت اللاهورى صاحب جريدة أخبار عام) أن ما أنذرنا به
 عند دخول الروسية في مرو من وشك دخولها في سرخس ليس من قبيل كان ويكون
 وسيكون ، فقد دخلت روسيا مدينة سرخس برضاء من التركان كما قدمنا
 في العدد الماضى فليس له أن يستبطن سيرة الهول الشمالى ليدكدك أسوار الحكومة
 التى يظهر المدافعة عنها (وهى الحكومة الإنجليزية) فمما قريب تظله هبوة الزحف
 فى أرض بنجاب تحت جدران داره وله بعد أن رأى ما رأى من صدق ما نقول
 أن يطمئن إلى ما ننبئ به فيما بعد فإننا نحكى عن طبائع الأمم وحقائق السياسة
 ومقتضياتها وليس يغنى ظننه من الحق شيئاً .

هَذَا

سررنا بملاقة أفاضل من أرباب الجرائد في مصر أتوا إلى أوروبا ليحضروا مؤتمر في لندن ويقفوا على دقائق المفاوضات التي تجرى فيه متعلقة بالسألة المصرية وينشروها مع ما تجود به قرائحهم من الرأى الصحيح في جرائدهم تنويراً للأفهام ، وتنبيهاً للأفكار ، فحمدنا سعيهم ، وشكرنا صنيعهم ، وأعظمنا هممتهم ، في خدمة البلاد المصرية ، قياماً بما فرضته عليهم الجامعة الشرقية ، وما أوجبتة ذمة الجوار ، وإن لم يكونوا ممن نبت في تراب مصر ، ولا جبل من طينتها ، ولكننا أسفنا غاية الأسف على احتمالهم لهذا العمل العظيم أفذاذاً بلا معززين لهم من أبناء الديار المصرية لا من المسلمين ، ولا من المسيحيين ، أولئك الذين حفت بهم المكارة ، وداهمتهم مغيرات الرزايا من كل جانب ، ولهم في البلاد نسب صريح ، وورثوا ما أقاموا فيه عن آبائهم وأجدادهم ، من أجيال طويلة ، وفيهم عارفون باللغات الأجنبية على اختلافها ، ومنهم من نال شرف المعرفة على نفقة بلاده ، وإنما كانت تعدد البلاد لثل هذه المهبات . ألا يوجد بينهم شاب يغلى دمه وتجيئ أشاؤه لما نزل بدياره ، وبني وطنه ، مما يتألم له العالم أجمع ، أو إن لم يكن هذا ففتى يعظم همه ، ويسمو عزمه ، فيطلب ذكراً ربيعاً ، وثناء باقياً ، فتنهض همته للشكاية من مصابه ومصاب إخوانه ، أو لارشادهم إلى ما به النجاة ، وما يتوسلون به إلى الخلاص ، ألا يوجد شيخ قضى وطره من الدنيا وفاضت عليه البلاد بخيرها يتذكر نعم الأوطان عليه ، فينبعث لأداء شكرها بما يستطيع من خدمتها ، ألا يوجد من هؤلاء وهؤلاء أغنياء لا يخافون إعداءاً فيتساحون في بذل شيء من فضل ما لهم ينفقونه على أنفسهم في طلب

الانصاف لدى الدول التي يهتمها النظر في شئونهم ، ألا يوجد فيهم من ورث عن آبائه ثروة واسمة وهو يبدها فيما لا يعود عليه بمجد ثابت ولا شرف دائم ، فيجعل الاتفاق على نفسه في السفر لهذه الغاية المحمودة داخلا في دائرة إسرافه .

يا عجباً ما هذا الخمول ، ولم هذا الانزواء للذهيل ، عما رزئت به أوطانهم ، كيف وأسنة الحوادث مصوبة إلى أفئدتهم ، وألسنتها تلغ في دماء قلوبهم ، العوز والحاجة ، كيف وإنا نعرف فيهم الأغنياء والموسرين ، ومن لا تنفد ثروتهم إلا بأيدي أعدائهم المتغلبين ، إذا استمروا في تماديهم هذا ، الشح والحرص ؟ كيف وفيهم الأسخياء ومن أشرفوا في البذل على الاسراف والتبذير ، فيما لا ينالون منه إلا مدحه في الوجه ، ورفعة لا وجود لها إلا في الوهم ، الخوف والجن ؟ كيف وقد بدا لهم أن الخطر في سكوتهم أشد من الخطر في عويلهم وصياحهم ، الراحة مفقودة ، والنظام مختل ، والحقوق ضائعة ، والفتن محدقة بهم . والأجانب ضربوا خناجرهم على حناجرهم ، فلو لم يتداركوا أنفسهم بالسعى في كشف هذه البلايا لأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم بل الخطر كل الخطر إنما هو في إهمال مصلحة الوطن ، وليس على ساع في خير وطنه وملته في خطر . إذا أتى البيوب من أبوابها ، وطلب الغاية بأسبابها ، فن أي شيء يخافون ، وأي سلطة يرهبون ، إن لم يكن لجراح الوطن أثر في أفئدتهم ، فأين الاحساس الطبيعي المودع في نفوس البشر ، الباعث على المباراة والمنافسة إنا لله وإنا إليه راجعون .



العدالة الانجليزية!

الركون إلى العدالة والسكون إلى الأمن والراحة من الأمور الطبيعية في الإنسان وهذه حقيقة أدركها الجنس الإنجليزي الشريف لهذا تراه محبوب الأقطار ويتقلب في الأمصار حاملاً على أحد عاتقيه علم العدالة وعلى العاتق الآخر لواء الأمن والراحة رجا، أن يملك أهواء العالم أجمعين وينال الكرامة في جميع أنحاء المسكونة .

إلا أنا نعجب غاية العجب لطفلة الناس من ألوان هذه الأعلام وفزعهم من الاستغلال بظلمها ومن تقياء يوماً فزع للاتباز عنه في آخر ولو لفحه لهيب جهنم ، هؤلاء الإيرلنديون من جنس الإنجليز وعلى دينهم وينطقون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سكان بريطانيا العظمى فرق إلا فيما لا يعد الاختلاف فيه خلافاً حقيقياً من عقائد المذهب الكاثوليكي والبروتستنتي ويصح أن يقال أنه خلاف في فروع الدين لا في أصوله .

وجزيرة إيرلندا تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا وسكانها يعدون عنصراً داخلاً في قوام الأمة وعليهم بسط جناح الرحمة الإنجليزية من أجيال طويلة حتى حسب الجميع أمة واحدة ، ومع ذلك ترى آلافاً مؤلفة من الإيرلنديين يهجرون أو طائهم ويهاجرون إلى أمريكا ويتخذونها سكناً لهم فراراً من عدالة الإنجليز ، وكل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم في أعمال يقصدون بها هدم السلطة الإنجليزية وإهلاك القاعين بها ، وفي كل يوم يحدون الأخاديد ويدفنون المواد المتهبة (الديناميت) في أماكن مختلفة من مراكز الحكومة وطرق مسير الكافة من الإنجليز تارة تحت قصر الملكة وأخرى في مقاعد الوزراء وطوراً تحت دار الندوة وآخر في جسور السكة الحديدية ليدمروا كل مكان بمن يقله ، وزاد ذلك حتى أفزع

الحكومة في هذه الأيام وما من مدة تمضى إلا ونسمع بمواقع بين عساكر المحافظة الإنجليزية في إيرلندا وبين الأهالي ، ومنها ما حدث في ثامن هذا الشهر (يونيو) من معركة بين العساكر والعامّة جرح فيها كثير .

هل جلاء الإيرلنديين وتهافتهم على الموت وسآمتهم من الحياة في معاندة السلطة الإنجليزية ناشئ عن نفرتهم من العدل وكراحتهم للراحة والميل إليهما طبيعى في فطرة البشر ، أظن لو كان عدلا حقيقياً يعرفه بنو الإنسان لما نبت عنه الطباع ، ولا آثرت الأنفس الموت على التمتع به ، ولا طلب الخلاص منه أقوام يتحدون مع أرباب السلطة في الجنس واللغة والدين ، ولا فضلوا على مهاجرة الأوطان واحتمال آلام الغربة ، ومشاق التطوح في أراضى لا يجدون فيها من العيس إلا لماجا (أدنى ما يؤكل) ولكنه عدل تفرد به الإنجليز من بين الحيوانات الناطقة من أحكامه أن توضع الجزية على كنائس الكاثوليك تؤديها إلى كنائس البروتستانت عن يدهى صاغرة ، واستمر ذلك إلى عهد قريب ، ومن مقتضياته أن يكون الإيرلندى خادماً بل عبداً رقاً لأمراء البريطانيين لا يتركون له من لوازم الحياة إلا ما يشتغل به لتنمية ثروتهم وتوفير لذتهم - إن كان هذا العدل لا يوافق أذواق التفقيين معهم في الصفات السابق ذكرها فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ولا صلة تجمعهم معهم لا في لغة ولا جنس ولا دين - هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له آثار في البلاد الهندية - دخلها الإنجليز وهي أغنى أرض في العالم ، وأخصب تربة في السكونة ، ، وسكانها أنعم الناس عيشاً ، وأوسعهم ثروة ، فإذا هي اليوم بسر العدالة كأنها صفاف وأمرات (أراضى لا نبات بها) أهاليها حفاة عراة أذلاء ، رضوا من المعيشة بالشظف ، ومن القوت بالelf ، وما يجدون ما به يقنعون ، تراهم بعد ما سلبوا أملاكهم ، وابتزوا ثروتهم ، واستأثروا بالإنجليز بجميع ما كان لهم يطلبون التعيش في المهن الدنيئة ولا يصلون إلى ما يطلبون ، يكون منهم الكاتب النشئ

البليغ الحاسب يقطع الأرض سعيًا من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية ليحصل خدمة ينال من أجرها ثلاثين فرنكا في الشهر ولا يسمعه الحظ بنوالها - ومن سنتين دخلوا مصر وهي أرض الراحة والسلام وأهلوها في رغد من العيش ، وآمن من الفوائل ، فإذا هي اليوم ببركة العدل الإنجليزي ، وحسن الإدارة البريطانية ، أرض الفتن ، ومجالات الحروب ، ومضارب الخلل والفساد ، قضت المدالة بحرمان آلاف من الوطنيين وطردتهم من وظائفهم في الحكومة ، وهم ذوو أهل وعيال لا عيش لهم إلا من رواتب الخدم الوطنية ، وحل محلهم في الوظائف أخلاط من الإنجليز وكسدت أسواق التجارة وغلت أبدى الزارعين عن العمل في الفلاحة يفقد الأمن وعموم الاضطراب وامتنعت الأرض عن الانبات بإهمال الأعمال العامة واستولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم وقصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم .

ومع كل هذا ترى الإنجليز لا تأخذهم ريبة في أنهم عادلون قوامون بالقسط ، وإن حلولهم في أي قطر وسلطتهم على أي شعب مقرونة بالسعادة والرفاهة والأمن والراحة ويمجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم ونفرة قلوبهم منهم ويقولون يا سبحان الله كيف يوجد بين جمعيات سرية أو جهرية تتخالف على بعضهم وتجتمع الألفة من العبودية لهم وكيف يختلج في خاطر مصري أن ينقم على الإنجليز .

ولما أحسوا بحركة الخواطر واشتعال الحمية في نفوس بعض المصريين وتوجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق وهي بلادنا لنا ، ونحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا ، ولا نريد أن نكون طعمة للإنجليز ، أرادوا أن يقيموا برهاناً على عدلهم ويوطنوا النفوس على الرضا بحكمهم ويمحوا كل ضغينة من قلوب المصريين بالقوة العسكرية ، كأنهم بإطلاق النيران وسل السيوف يودعون في القلوب محبة ، وفي النفوس رضى ، وهي طريقة جديدة في إزالة التنافر وإيجاد التآلف وربما كانت سنة قديمة عند الإنجليز .

وجاء في برقية من مراسل التايكس في القاهرة أن العساكر الانجليزية انتشرت في شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن ، والحامل على ذلك ما تأكد عند حفاظ الأمن من الانجليز أن في تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية أو أن فيها أشخاصاً مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان في حكومتها لأجنبي عنهم خصوصاً إن كان ظالماً فيهم ، أو أن في تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجل من الانجليز أن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة ، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الانجليز لا خير في ولايتهم ، ويرى شقاء بلاده في سوء إدارتهم ، فهاج غيظ مأموري الانجليز وبعثهم على الشدة في طلب الوقوف على مكامن أولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤاخذوا كل ذى سريرة بما اختلج في صدره من الانتقاد على أعمالهم ، ومن عزمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلا في كل شوارع المدينة وأزقتها من القلعة إلى أضيق حارة فيها ليحققوا ما ظنوه ويكشفوا ما توقعوه (وهم في عملهم هذا يراعون مصلحة المصريين ويأسفون على حالهم حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للانجليز بهذا الاحسان الذى تفضلوا به عليهم من مدة سنين ويأسفون) ويرون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات ، وربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون .

انجلترا وفرنسا

أصفت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية من يوم دعت إنجلترا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية . إلا أنها منعت دون حجاب الكتان وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة أو غنمة أو جمجمة وكل حس يصلها يثير رواكد الأوهام فتتهيج فيها غرائب الصور والأشكال والمذاعون من أرباب الجرائد في أوروبا وهم أشبه بالداعين إلى الألعاب والكموديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة ويتنافسون في التمثيل والتصوير للتغريز والتهويل حتى أبرزوا الأرض في صورة السماء والسماء في صورة الأرض خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وإنجلترا ، فكان يخيل لتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمرالكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً وأن فضاء البر أعرض للجيش التلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً وتجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يمينون مواقع المساكر وطرق المصاولة وجوع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً ويموج بعضها في بعض وكأنما كانت تخيلاتهم معرضاً لجيوش المالين وكان في كل فوج داعياً وفي كل قبيل منادياً يقول حقى هذا ، فهيمات تتعالى وزفرات تتصاعد وأرغاء وأزباد وتقطب في الوجوه وشزر في الناظر وفي كل ذلك هول يأخذ بالألباب .

والمارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها

كانوا يمتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر قدهوى بهامته إلى ركبته يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه وعجزه وأن حكومة إنجلترا ستمود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الأوغاد) وتقوت هذه الأوهام بما يطنطن أرباب الجرائد وولمت النفوس بالوقوف على الحقيقة وانبعثت برسل الأفكار تجوس خلال الشئون والأطوار ، لتصل إلى شيء من هذه الأسرار ، واجتمعت الأرواح في الآذان لعلها تسترق سمعاً عن تلك المدونات ، وكنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبئ عن الحقيقة أو يقربها من الفهم ، والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق وبعد طول الانتظار كشف الستار .

فإذا عائدة الانجليز جالسة في هيكل آمون ويدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعة) مهيئة أن تضعه على رأسها والملوك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها كأنما كانت هذه المفاوضات والخبرات إعداداً وتجهيزاً لإجلالها على كرسى ميناكس الأول ورسميس الأول لا حول ولا قوة إلا بالله .

قام رئيس الوزراء الفرنسى في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذى عقده مع حكومة إنجلترا ليرى النواب رأيهم وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لإقناعهم بقبول ما أجراه تطف في الكلام وأبدع وصوب وصعد وأتى على ترغيب يشوبه ترهيب ويأس يحوطه أمل وأدرج في طي خطابه أن فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء ، وبه نالت أشياء وأوماً إلى أن وزارته لو طلبت أزيد مما حصلت لأدى الأمر إلى ممانعة الحكومة الإنجليزية وأفضى الخلاف إلى انقلابها وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الإستيلاء على مصر . وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالأسماع حيث قال يلزم للسياسى قبل إبرام حكم أن يلاحظ جميع أطرافه

ولواحقه فهذه الكلمة الرقيقة جددت في السامعين آمالا وظنوا أن المراقبة الثنائية قد أعيدت أو تقرر اشتراك فرنسا مع إنجلترا في الاحتلال العسكري أو إبرام الحكم بخروج الإنجليز من مصر وبالجملة أنهم فازوا فوزاً عظيماً وبعد مقدمات طويلات (١) بين الاتفاق فإذا هو بعد إيمان النظر على هذا النحو ، أن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون وليس لنا أن نعارضهم فلا المراقبة الثنائية عادت ولا الإشتراك في التداخل العسكري أو النظر الإداري حصل ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت ولا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين بل كما كان يلجأ إليه الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثير من سياسيينهم . فانقبضت صدور النواب فلما رأى (٢) شدة تأثيرهم دفعة واحدة وأحس منهم القنوط حاول إحياء آمالهم بقبوله إنا سلكنا في إتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الإتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم — يوم بهذا أنه وأن ترك كل حق لفرنسا في مصر إلا أن الإنجليز أيضاً تساهلوا معه في أمور . . . هذه الساحة التي لم تكن منتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ما وراء الظاهر المعروف ومنه ما بعث مراسل جريدة (التاج بلات الألمانية) في فينا على قوله يظن ههنا (في فينا) أن الدول ستعارض هذا الإتفاق رغماً عن كل وهم اه . ولبس يبعد أن يكون نكير الإنجليز وهديدهم وإرهابهم للوزارة الفرنسية بالليل للألمان هو الذي دعاها لهذا التساهل الغريب ، بل حملها على ترك الحق بالكلية أو ربما ظن رئيس الوزراء أن إشتداده في اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغييراً في وزارة جلادستون فيقوم خلفها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا في ضياعها . فسارع إلى موافقتها على ما تشاء وطرح مصلحة فرنسا في مصر بين يديها لتكون المنة في استيلاء الإنجليز على مصر للفرنسيين . ولكننا نظن أن هذا

(١) هكذا ذكرها الأفغاني وقد راعينا بقدر الإمكان الإبقاء على روح الأفغاني في كتاباته !!

(٢) يقصد رئيس الوزراء الفرنسي .

النوع من المعاملة لا يفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر فإن التساهل وسوء السياسة الذي كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا في الهند عندما كان للأمتين منافسة فيه آلت إلى تغلب الإنجليز على جميع الممالك الهندية ورجع الفرنسيون بخفي حنين ولم يحث أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء . وقد يقال أن الحكومة الفرنسية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى . وبقى رجاؤنا في نواب الأمة الفرنسية فانهم وإن أظهروا ثقتهم بالوزارة بمجادلات طويلة إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكماً في المؤتمر إلا بمشورتهم « اللهم حقق الرجاء » وإننا في عجب من حرص مجلس البرلمان الإنجليزي حيث يعارض جلاستون في هذا الإتفاق مع أن أقرب نتائج الاستيلاء وقد طلب البرلمان من جلاستون مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها . أما حقوق العثمانيين والمصريين فلم نر لها بين المتفقين ذكراً اللهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها . عند ذلك نرى لها فصلاً بين هذه الأبواب .

الاتفاق

عهد بين وزارتي فرنسا وإنجلترا توطأنا عليه ليكون موضوع البحث في المؤتمر ، وأشرنا إلى أن غايته تنازل فرنسا عن جميع حقوقها في مصر ونقض يديها من كل مصلحة لها فيها والاعتراف لإنجلترا بالسيادة عليها وإن لم تذكر حروف السيادة وهذا ما يحتوى عليه من المواد .

الأولى : أن يستمر حلول الجيش الإنجليزي في الأراضي المصرية إلى أول يناير سنة ١٨٨٨ (ثلاث سنوات ونصف) ثم لا يخلوها إلا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الإخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول ، فإن حصل اختلاف ولو من دولة واحدة ترى ضرورة إطالة المدة كان الخيار لدولة إنجلترا في الجلاء أو البقاء .

دولة إنجلترا هي الدولة التي أطلقت مدافعها على مدينة الإسكندرية والمؤتمر منعقد^(١) في الاستانة من رجال الممالك العظيمة وفيهم نائب لفرنسا ولم تقرر المؤتمر ولم تراعى حرمة الدول ولم تتفق مع واحدة منها على العمل الذي باشرته ، فهل يعجزها في خلال هذه المدة الطويلة أن تستميل دولة من الدول إليها حتى إذا انعقد المؤتمر بعد ثلاث سنوات ونصف ذهبت إلى أن إخلاء القطر المصري من العساكر الإنجليزية يخشى منه على نظام البلاد ، أو سلم أوروبا فيكون حجة لإنجلترا في إطالة المدة وإن خالفها بقية الدول ومنطوق الشرط يؤيد حجتها - وكيف يمكن لبقية الدول إذا خالفت إحداها

(١) أعاد التاريخ نفسه بعد ٧٤ عاماً وأطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل جسيم قنابلهم على مصر لينالوا مأربهم ويحققوا غايتهم وقد نجحوا في قتل أبرياء وتحطيم مبان ولكنهم فشلوا في القضاء على معنويات الشعب وروحه في حياة حرة كريمة .

ان تلزم دولة بريطانيا بالخروج من ديار مصر بعد ما غلت أياديها بتقرير هذا الشرط وكتبت على نفسها أن الجلاء لا يكون حتماً إلا إذا اتفقت عليه جميع الدول !! السياسات في أوروبا سريعة الانقلاب والمنافسات لا تقف عند حد يحيط به النظر ومطامع كل من الدول لا تنتهى عند غاية فليس يبعد بل هو أقرب من كل قريب أن توجد دولة في دول أوروبا تشد عضد إنجلترا على دعوى أن إخلاءها لمصر يحدث هزة في سلام أوروبا وربما تكون تلك الدولة هي الدولة القوية التي يصعب على سائر الدول مخالفتها ولا تجدد فرنسا عند ذلك موثلاً تلجأ إليه سوى الرضاء والتسليم . إذا فرضنا عجز إنجلترا عن استهواء دولة أوروبية توافقها على المكارة في أحوال مصر وأن سياسة أوروبا وقفت على حالتها في وقتنا الحاضر وأن جميع الدول تحالفت على قول الحق فهل تعجز دولة بريطانيا وهي هي عن أن تثير شغباً في بعض الأرجاء المصرية بأن تغرى مالطياً بقبطى أو رومياً بفلاح أو حمار قنسيل قطرات من الدماء تخيل كل قطرة منها بحراً وتنادى أن للفتن ماثارات وللعصيان أمارات والنظام في خطر ولها حق المحافظة عليه إلى أن تنقلب أرض مصر جنة يكون فيها أمم العالم إخواناً على سرر متقابلين . ولو اعتبر السيو جول فرى بالمعاهدات التي عقدها إنجلترا مع السلطنة التيمورية وغيرها من ممالك الهند وكيف أقدمت تلك الدولة على نقضها ولم تبال فيه بعهد ولاذمة لظهر له أن نقض روسيا لعهداها مع بولونيا ليس شيئاً يذكر بالنسبة إلى حفظ إنجلترا لدمها مع تلك الممالك العظيمة . لو تأمل هذا الوزير في الأعمال الإنجليزية للام نفسه في الاحتجاج بشرف إنجلترا على خلو غرضها وإخلاصها فيما واثقته عليه . إن لم يكن في خاتمة الشرط سر فلم اهتمت بها الوزارة الإنجليزية وألحت على تثبيتها . إن لم يكن لها غرض في استعمالها وقتها ، فلم أصدرت أوامرها بمد سكة الحديد من سواكن إلى بربر على نفقة الحكومة البريطانية . إن كان لسيو جول فرى ثقة بمسيو جلاستون واعتماد على عفته وطهارة ذيله ، فمن يضمن له بقاء في رئاسة الوزارة إلى نهاية المدة حتى يوفى بعهده . فإذا استعفت وزارة جلاستون لعلة داخلية أو أزمة خارجية وخلفتها

وزارة تحت رئاسة اللورد تشرشل أو اللورد سالسبوري وهما من الطالين الاستيلاء على مصر أو إعلان السيادة الإنجليزية عليها فأى مانع يمنعهما من الاستفادة من هذه الخاتمة السيئة في مقصدها المعروف .

المادة الثانية ألغيت المراقبة الثنائية وسيعوض عنها بتوسيع السلطة لقومسيون الدين العموى فيمنح حق الاطلاع على مصاريف الحكومة والاعتراض على ما يزيد منها عن المقرر في الميزانية ويكون له ذلك ابتداء من سنة ١٨٨٥ وميزانية تلك السنة تحصرها حكومة إنجلترا وتعرضها على المؤتمر الدولى ليقرر ما تحويه على أن يكون قانوناً للنفقات لا يخالف إلا لضرورة تخرق النظام وفيما بعد سنة ١٨٨٥ يحول لصندوق الدين حق مساعدة الحكومة المصرية على تحضير ميزانيتها السنوية بمعنى أنه تعرض عليه قبل تقريرها ليبدى فيها رأيه . إلا أن ما يكون له من الرأى فى جميع الأحوال ليس إلا استشارياً محضاً لا ينقض ولا يبرم فإذا انجلت المساكر عن مصر يكون له حق المراقبة على تحصيل الايرادات جميعاً وضبطه على قواعد صحيحة وطرق منتظمة وبهذا يحور حقوق المراقبة الثنائية ما عدا الحضور فى مجلس الوزراء ورئيس القومسيون فى جميع الأحوال يكون أنجليزياً — إن كانت مراقبة قومسيون الدين على تحصيل الايرادات لا تكون إلا بعد انجلاء الجيش الأنجليزى . أفلا يكون هذا أملاً من الآمال ربما لا ينال وهو يكون فيه عرض حقيق عن المراقبة وهو من رسوم الخيال وبينه وبين الثبوت أمد غير قصير . إن رضيت الأمة الفرنسية بتقيص فائدة الدين لهذا الأمل الموهوم فقد خسرت كما قالت جريدة (لاجوستيس) خسارة محققة لوعده لا كافل لها بوفانه .

المادة الثالثة إجماء مصر والمكافلة لها « ما يعبر عنه بالحيداد » بأن نجعل حكمه فى أفريقيا على أصول حكومة بلجيكا فى أوروبا وتحرير القناة أى إباحتها مراً لجميع مراكب الدول من أى نوع كانت فإن كانت الدولتين متحاربتين ضرب لبقائها

فيه مدة لا يسوغ فيها إنزال عساكر أو ذخائر علي حافتيه ولا تباح المناوشة فيه ولا على القرب منه ولا فوق شيء من المياه المصرية وإن كانت الدولة العثمانية إحدى المتحاربتين إلا أن شيئاً من هذه القيود لا يحذر أخذ الاحتياط للدفاع عن مصر نفسها إذا دعت إليه أحوال وإذا ألحقت مراكب دولة من الدول ضرراً بالقناة ألزمت بتعويضه وعلى حكومة مصر أن تهيب ما يمكنها من تنفيذ الشروط على المراكب الحربية مدة الحرب ولا يجوز أن يبني على حافات القناة ولا على مقربة منه معازل وحصون وهذه الشروط جميعها تقرر ويجرى حكمها بعد جلاء العساكر الانجليزية عن وادي النيل - وفاتحة هذا الفصل تنطق بأن الانجليز إن قصر بهم السعي عن التملك في الأراضي المصرية فقد هبوا ككلايب لاختطافها من أيدي المسلمين والانتقال بها إلى قوم آخرين كما أشرنا إليه في موضع آخر . هذا الذي صرح به من تشكيل الحكومة في مصر على مثال حكومة بلجيكا هو الأمر العظيم الذي نوهه مسيو جول فرى وقال أنه من أجل أحكام السياسة وأسمائها . وصحيح العقل يرتاب في كونه حكماً سياسياً فضلاً عن كونه سامياً لما يلاحظ فيه من عواقب المكابدة والشحناء بين الأمم الأوروبية إلى أجيال بعد ما تقرر لديهم أن الشرق لا يليق به أن يستقل بحكم نفسه !! فان خدعه الظاهر فربما يرى فيه خيراً لفرنسا أو لأوروبا بمعنى أنه أفضل لها من التملك الانجليزي . أما المسلم فيراه نكايته للته والشرق يحده خراباً بللاده هذا الأود الذي ظهر في سياسة مسيو جول فرى لايقومه إلا حمية الدولة العثمانية واشتدادها في حفظ مكانتها السياسية وحرص مجلس النواب الفرنسي على حماية المصالح الفرنسية التي يسهل صونها بشيء من العزيمة وبصيص من البصيرة والله الأمر يفعل ما يشاء . (١)

(١) تأميم قتال السويس ، وسده بقتال الأعداء ، واستئناف الملاحة فيه بإدارة مصرية ، خير ما يمكن أن يعتز به الأفغانى ومحمد عبده ، لو بعثا من عليهما .

الباب العالى

روت جريدة الديلى نيوز خبراً يسر كل مسلم بهمه نجاح الدولة العثمانية ويرى عزته فى عزتها وذلك أن الباب العالى يأبى أن يرى جيشاً أنجليزياً يحتل مصر . ويرغب إذا اشتد العصيان أن يفوض الأمر إلى الخديوى الذى يتبع نصائح الدولة العلية صاحبة السلطة الشرعية عليه ، وكل شرط يرى إلى جعل مصر تحت حماية أجنبية فليس عند الباب العالى فى موضع القبول لأنه يكون تمهيداً لاضعاف سلطة السلطان على تلك البلاد ويمكن أن يقبل الاتفاق الفرنسى الأنجليزى فى غير هذين الأمرين (الاحتلال الأنجليزى والحماية الأجنبية) .

وورد فى رسالة من مراسل جريدة نوفل بريس لبر الفرنسية مناقشة جرت بينه وبين أحد السياسيين الروس نقلتها جريدة الثان جاء فيها أن دولة الروس ستقاوم دولة بريطانيا فى مطامعها وتؤيد الدولة العثمانية فى مطالبتها رعاية لمصالحها المرتبطة بمصالح العثمانيين فى المسألة المصرية وفى الاتفاق المتعقد بين دولتى فرنسا وإنجلترا .

الانجليز والاسلام

الحكومة الانجليزية عدوة المسلمين عداء شديدا لالتهامها الممالك الاسلامية ،
تفد المسير إلى آراها منها سالكة جادتها المهودة من الدين والوارية والخدمة والمخالطة ،
فان بلغ بها السعى حداً من الغرض فذلك ، وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لانتزاع
قطعة من أيدي المسلمين بأية وسيلة وتسليمها لقوم من سواهم أياً كانوا كأن لها لذة
في نكايه أهل الدين وكأنها تبتغي السعادة في تدليلهم ومحو ما يكون من ملكهم .
وكال بهجتها في أن تراهم أذلاء عبيدا لا يملكون من أمرهم شيئا وفي تصانيف
جلادستون وخطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس ومقالات أشباهه نبأ
بل أصدق الأنباء عما تكنه صدور الإنجليز من العداوة للمسلمين .

لهذه الحكومة طمع التمكن في أرض مصر ولها من كل جبل قبضة
وفي كل سبيل خطوة لتنال مطعمها . وهمتها اليوم في إرضاء بعض الدول على
استبدالها بالأمر في مصر بما تسول لسياسيتها من أوهام المنافع وخيالات الفوائد
وفي تثبيط بعضها بالمراوغات والتهديدات . فان بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير
ما تطلب وإلا عقدت عزمها على نقل الولاية في مصر من أيدي المصريين والعثمانيين
إلى أيدي أقوام آخرين . هذا ما تشير إليه جريدة الديلي نيوز الوزارية « الانجليزية »
عند كلامها عن قناة السويس حيث تقول : يمكن القطع بجياد القناسة على الأساس
الموضوع في برقية اللورد جرانفيل المرسلة إلى الدول في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ وليست
تلك الحيدة إلا حكما من أحكام النظام الذي وضعت الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة
تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها . ولكن لا يرى الإنجليز

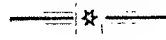
في حيدة القناة وحدها ضمنا صحيحا لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها ، ولا كفالة كافية لاستقلالها بل يمكن أن يذهب الرأي إلى ضرورة حيدة مصر نفسها بأن تحول حكومتها إلى حكومة سويسرية أو بلجيكية في أفريقيا وتوضع تحت حماية الدول عموماً فتؤمن الإغارة عليها من إحداها إذا آل الأمر إلى هذه الحالة « والعياذ بالله » فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة والقضاء والمالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم : كيف نظن هذا وقد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئى أو كلى في خدمة أوطانهم وأن من الضروري لحياتهم أن يكونوا آلة صماء في أيدي غيرهم من الأوروبيين . قد يعقب ذلك لو حصل تشكيل مئآت من المجالس في القطر المصرى كلها تشبه المحاكم المختلطة أما مجالس الفصل والقضاء ابتدائية واستئنافية ، فالأمر فيها بين ، وأما إدارة الداخلية والمالية وفروعها فلا تستقل بها دولة من الدول فان طبيعة الأمر تأباه فلا يتولى أعمالها إلا مجالس مؤلفة من أقوام مختلفة الأشكال واللغات متبائنى الحكومات . ولتفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون في كل مجلس واحد منهم إلى زمان محدود .

أولئك الأعضاء الأجانب وهم نواب دولهم لا يكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم من قبل . كل منهم يستدعى من أبناء جلدته من يستخدمه في وجه من وجوه الأعمال التي يولى النظر فيها وتقع بينهم المنافسات ثم تكون المحاباة كل يتناضى عما يأتيه الآخر ليتناضى الآخر عنه فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب ولا يعود فيها مقر لوطنى ، هذا إلى ما يتبعه من إقامة عسكر مختلط للمحافظة في المدن والأقاليم ، فلا يبقى للمصريين إلا خسائس الأعمال يفلحون الأرض ويعانون الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسفاء لنيرهم يودون ثمرات ما يكسبون إلى من لا يعرفون ويخرجون عن جميع ما كانوا نالوه في الأزمان الأخيرة من عهد محمد على

إلى الآن . ولا يمر زمن طويل إلا يصبحون كسكان الأمريكتين ينحسرون إلى بعض الأطراف القاصية عن العمران أو يندمجون مع الأجانب فلا يوقف لهم على أثر صحيح وتصير الأراضي المصرية مأهولة بأخلاط مختلفة كما في أراضى أمريكا الجنوبية والشمالية ويقوم لفيف أولئك الأغراب مقام أبناء الأرض الصادقين وهذا مما لا يسر عاقلا « وأن راق في نظر بعض المباركين » وأملنا في الدولة العثمانية أن تقوم على قدم ، ثبت عليها الأسلاف الأولون وتقدم بعزيمة ثابتة على المطالبة بحقوقها في مصر وإعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الانجليزي ثم تلقى بزمام الحكومة فيها إلى ذوى عزم من المصريين صيانة لحوزة الاسلام . وفي الظن أن دولة روسيا لا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين لتستميل إليها قلوبهم ولا تختلف عنها دولة فرنسا فان مصالح الدولتين في فتوحاتهما بالبلاد الشرقية تقضى على السياسيين فيهما « إن كانوا كما يقال سياسيين » بالاتحاد مع العثمانيين . (١)

(١) مرة أخرى هذا هو المأخذ الوحيد على الأفغانى فهو لا يزال يصر في صراعه الصحفي على طرد الإنجليز والأجانب واستبدالهما برمز الدولة العثمانية لأنها على حد قوله صاحبة الحق الشرعى مع المصريين في إدارة البلاد !!

الباب العالى والانجليز



يهتم المسلمون فى كل أرض بأمر ما يجرى فى مصر ، بل تذهب نفوسهم حشرات كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يحول فى نواحيها مقاتلاً أو حامياً وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الإسلام وباب الحرمين الشريفين فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه والمسلمون فى قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم فى سماء سلطتها الحسية والمعنوية يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الأراضى المصرية من تبوى الأعداء ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الأمم ، وتسان بها ولاية الإسلام من السقوط فى حائل هذه الدولة الداهية «دولة الإنجليز» التى أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابه على «النايلة» ، هذا فضلاً عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ملكتها على مصر فإن قضى فيها الأمر لغيرها «والعباذ بالله» أصبحت حقوق العثمانيين فى جميع ممالكهم معرضة للخطر ، فهذه دولة الإنجليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدئه ثم يذهب فى البدن فيفسده ويبلية بدون أن يشعر المصاب بالألم هكذا شأن الإنجليز فى لينهم وتلطفهم وحلاوة وعودهم وتملقهم وخضوعهم يسلبون المالك ملكه بل الحى حياته وهو مأخوذ بما يشعذون له ولا ريب فى أن الإهانة التى تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين فى الشرق والغرب فإن كل مسلم وله الحق بعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الأقطار . إن الهندين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون

بها ويحسبون أنفسهم في عداد الأمم التي لم تذهب سلطنتها ويعتقدون أن لهم سلطاناً قوياً في الدولة العثمانية بل يرون أن خلاصهم من قيد الرق الانجليزي لا بد أن يكون يوماً ما بسميها وقد أظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحتمهم معها باللحمة الملية بما لم يبق رية لمرتاب في شدة صلهم بها .

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الأزمان الأخيرة عندما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماة عمالهم من المصالح في مصر مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاء لخواطر المسلمين عموماً واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها وحماية عن ممالكها وأهم مملكة منها إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المتعقد بين فرنسا وإنجلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الاحتلال الانجليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانجليزي عن حرصهم وغاية ما فيه أنه يستتبع مدعاة الدول والدولة العثمانية مع الانجليزي وبرهن على أن بقاء العساكر الانجليزية في مصر ليس بضروي في حل المسألة . فإن كانت الدول لا ترى في العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل ، فالباب العالي مستعد لإرسال العساكر إليها على ما تقتضيه حقوقه فيها كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فإنه يمرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنسيين وإنجليز وإيطاليين وأسبانيين وإلى الدول تعيين الأجل في الوجهين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشاً لخواطر الانجليزي حيث قال إن الانجليزي قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وتثبيت سلطة الخديو إلا أنهم لم

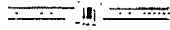
يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة .

وإنا نقول كما يهتف به كل مسلم أن من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانجليز عنها وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الاستانة وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لا تعقب مطراً ، ومن الحق أن نقول أن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلورى « بيت العظمة الانجليزية » بحجر واحد فإذا اشتدت الأزمة تيسر لهم السعى في الوثام بين الايرانيين والأفغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كلتين يستندان إلى أصل دينى قويم ، وعندها يعرف الانجليز مقام أنفسهم في الأقطار الهندية والممالك الشرقية . هل تسلط الانجليز في الأراضى الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التي كانت بين الأفغانيين واليرانيين ، ولو نظرنا إليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ولا ريبه عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانجليز في جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لاقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك ، وانسداد السالك بين الممالك العثمانية والانجليزية . فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان واليرانيين واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين ، هذه طريق محجرة وبندر عباس إلى بلوچستان مفتوحة للسالك مطروقة للسابل وهى الطريق التي سلكها أول جيش إسلامى بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . إن هذه لجولة لو كانت لأثارت في وجوه الانجليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم .

ومعلوم أن الحى لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفى لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين والبلوجيين ، تحرك خمسة آلاف عثمانى

— ٣٤٠ —

إلى أحيائهم . لست أبالي أن أقول الحق إذا حصل التساهل في أمر مصر وانفتح
باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة وعزت بعد هذا وسائل التلاقي
فلتأت الدولة العثمانية على ما في الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط
مستقيم .



أسف

غالت نائبة الدهر طراز العرب ، وزهرة الأدب ، صفينا أديب أفندي
اسحق . فضى نخبه في شرح الشبوية ، وعنفوان الفتوة ، وترك لنا قلوباً آسفة ،
وشؤوناً فائضة ، إنا لله وإنا لله إليه راجعون .

حرية الصحافة والاستعمار !

أسف يصهر الجسم ويذيب الفؤاد وحسرة تغلذ الأكباد على قبيل من أمة
أو شخص منها ذى همّة يستعين الله في عمل ينقذ أمته من ضعة أو يرجع إليها بمنفعة
ثم يوجد له في وجهة عمله من تلك الأمة من ينجم كقرن المعز ليفقأ عين العامل
الفاضله فيقطع عليه أسباب العمل ويعرقه عن القصد ليكسب مدحة باطلة أو منفعة
عاجلة وإنما مثل من يكون على هذه الصفة في الأمة كمرض السكتة في البدن أو الصدع
في الرأس أو الخبل في العقل أو الشجى في الحلق أو القذى في العين . هؤلاء هم
الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله والحق ويبغونها عوجاً .

لو كان في هؤلاء المعصال الطباع « الأعصل الموج في صلابة » بقية من
الانسانية أو أثر من العقل يدركون به ما ينشأ من أعمالهم الجزئية من المضار الكلية
ويشعرون بهذا الجرم العظيم الذى يدك الرواسى ويهد الشاخات ، لذاابوا خجلاً
واستتروا عن الناس بحجاب العدم وتمنعوا لو محيت أسماؤهم من لوح الوجود . ولكن
يظهر من جرأتهم على خطيئتهم أنهم ذهلوا عن أنفسهم فلا يعلمون ماذا يعملون ،
هذا العمل الصغير الذى يجلب على الأمة ثراً كبيراً أو يحرمها من خير عام ليس
في وسع حكيم من البشر أن يحدد درجته من الخسة والسفالة ولا في طوعه أن
يحيط بكنه الفساد الذى ضرب في طمع شخص يقدم على مثله ولا توجد كلمة
ولا جملة ولا كتاب يبيّن حاله سوى أن يقال خائن ملته ووطنه .

أولئك أشخاص كثيراً ما يوجدون في الأمم المعتلة يشبه أن يكون منهم صاحب جريدة «أوده أخبار» التي تطبع في «لكنهو» من بلاد الهند انفض رأسه ورفع عقيرته على جريدة «أميرتا بازار برتركا» التي تنشر في بلاد - بنجاله - كتبت هذه الجريدة «البنجالية» فصلا بينت فيه سوء معاملة الحكومة الإنجليزية الهندية وخشوتها على الهنديين وإهانتها لهم واجحافها بحقوقهم وحرمانها لهم من خدمة أوطانهم وأتقالتها عليهم بالضرائب الباهظة واستئثارها بجميع ما يكسبون من كدهم وتعبهم مع احتكارها جميع ينابيع الثروة مما أوجب شدة الضيق والظنك في عامة الأقطار الهندية وكان سبباً في انحراف قلوب الهنديين عن الحكومة ونفرتهم منها . ثم انبعث هذا بقولها فليس لحكومة الهند بعد ذلك كله أن ترجو مساعدة رعاياها لها عند وقوع حرب بينها وبين الروس ولا أن تؤمل في العساكر الهندية بذل أرواحهم في الدفاع عنها فإن الجند يشركون الأهالي فيما ألم بهم ويألمون كما يألمون ، وليس من الحق للحكومة بريطانيا مع سلوكها هذا أن تلوم الهنديين إذا آثروا عليها دولة الروس واختاروها حاكمة لهم ، هذا مجمل ما قالت وأقل ما كان يترتب على هذا الكلام وأمثاله من الفوائد هو تنبه الحكومة الإنجليزية لما خرجت به قلوب الأهالي وأخرجت صدورهم فتعبدل مشربها وتقوم منهجها مع الهنديين وترفع عن كواهلهم بعض الضرائب الثقيلة وتمنح الوطنين بعض الوظائف في الدوائر الملكية أو العسكرية وتكف عن إهانتهم وتذليلهم ليكون لها عدة إذا دهمتها أم صبور «الداهية أو الحرب الشديدة» من جهة الشمال .

وكان على الهنديين خصوصاً أرباب المعارف منهم أن يؤيدوا القائل في قوله أو يحمدا له سعيه أو يتركونه وشأنه لعل يستتبع ذلك خيراً كثيراً أو قليلاً لأوطانهم وأبناء أمتهم ، ولكن وآسفاً يدل هذا يلتوى صاحب جريدة (أوده أخبار) ويبحور عن جادة الصواب في نقريع الجريدة البنجالية وتعنيفها ثم يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تحو حرية الجرائد من بلاد بنجاله ، وهذه الجريدة وأن وصفها مقوم

— ٣٤٣ —

الجرائد في الهند (مدير المطبوعات) بأنها متملقة معمعة للحكومة ، إلا أنه ما كان
يخطر ببالنا أن تنحط وتسفل إلا هذا الدرك ولا أن ترتكب في تملقها هذه الجريمة
العظمى وهي طلب محو الحرية في البنجاله وصد أبناء وطنها عن التنبيه على بعض
حقوقهم وشكاية شيء من أرزائهم لا حول ولا قوة إلا بالله .

=====

تركيا

ليس في التملات أعجب مما يتعلل به الإنجليز ولا في المحاورات أغرب مما يستدلون به . لا مقدمات بينة ولا حجج قيمة وأقوى ما يكون من أدلتهم أولى به أن يكون في معرض الهزل من أن يكون في جانب الجد . ولكن أغرب من جرأتهم على الجهر بمداعبة الأمم بما هو أشبه بالترهات أصغاء الآذان لما يقولون وانصراف الأذهان عن بيان المهجو فيما يوردون وإظهار الوهن فيما به يتعللون ليهتك الستار عن أغراضهم وتظهر خفيات مقاصدهم وترتفع الريبة عن مخدعون بملاعباتهم .

إن الإنجليز ساقوا جيشاً إلى مصر وبوأوه أرضها مدة لا تزيد على سنتين فكان حلول جيشهم سبباً في انحلال النظام واختلال الأحكام وعموم الفساد في أرجاء البلاد حتى صار الناهبون وقطاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا وكتائب تزحف للغارة على القرى والبلدان ضاحية بلا استتار وسرى الاختلال في عموم الأعمال الإدارية والقضائية ففقدت الأمنية على الحقوق كافة وسقطت البلاد بسبب ذلك إلى درك من الضيق والعسر لم يكن يخطر على بال — وما كان شيء من تلك الفظائع ولا واحد من هذه المفاصد ولا قليل من هاته الشدائد موجوداً أيام الحركة التي سموها فتنة عسكرية واخترعوا منها دليلاً على الفوضى وزعموا فيها وسيلة للتدخل بعساكرهم .

حالة مصر شاهدة على أنه لم يكن للاختلال فيها اسم ولا للفوضى أثر إلا بعد ما وطيء الإنجليز أرضها ومع ذلك يزعمون أنهم ما أتوها إلا لتقرير الراحة وإصلاح النظام وإزالة الفوضى ويريدون أن تمتد إقامتهم فيها إلى أجل بعيد ليتمموا القصد

الذى أتوا إليه وشرطوا جلاءهم عنها برسوخ الأمن وانقطاع شأفة الاعتداء واجتماع خواطر الأهالى على الرضى بما يرسم عليهم من السائدين فى ديارهم والتسليم لما يقضى به فيهم — ألا يعجب من هذه التعلّة — هل يوجد أبله فى أى أمة يظن فى المصريين الركون إلى السكينة ما دام الجيش الأجنبى متبوعاً ديارهم ، أليس وجود عسكر أجنبى تحت أنظارهم كافياً فى نفرة قلوبهم وازدياد شغبهم — الطبيعة تحكم باستحالة ما يطلب الإنجليز منهم ، والتجربة من مدة سنين طبقت بين الحكم العقلى وبين الواقع الحقيقى — هل يمكن سلامة خواطر المصريين من القلق بعد ما علموا أن الإنجليز لم يفتتحوا بلداً من بلاد الشرق إلا تحت راية هذه الحجيح وعلى هذه الطريقة التى يسلكونها فى مصر وهل كان لهم سلطان فى جهة من جهات الشرق إلا بدعوى أنهم يريدون فيها الإصلاح ثم ينجلون عنها أتقياء الرحات أعفاء الذبول .

ماذا يريد الإنجليز من تقرير الراحة بعساكرهم فى مصر ؟ هل يريدون مكافحة اللصوص حتى يقهروهم على طرح السلاح ويقوا الأهالى شرهم ، إن كان هذا قصدهم فياخبية الأمل فإن شيئاً من هذه الفظائع لم يكن إلا وجيوشهم نازلة بالبلاد ، فكأنما كانت تلك الجيوش مثاراً لهذا الفساد مضى عليها سنتان وهى فى معازل مصر وهبت أعصار السوء بقدمها وكلما طال الزمن زاد الخطر وقويت عصابات الشر فماذا قيل يكون منها فى ثلاث سنين ونصف إلا مثل ما كان من أثرها فى سنتين أو أشد فتنة . فكيف يعقل أن يكون بقاؤها فى مصر مفيداً لرد الأمن إليها ، وهل تكون علل المفاسد مجلبة للمصالح . نعم يكون هذا إذا قيل أن حضو الرضاء يطفئها أو أن وقود النار يخمدها ، هل يقصدون من تقرير الراحة إخماد فتنة السودان . إن صح هذا القصد منهم فتنى سموا إليه وأى جيش ساقوه وأى قوة وجهوا بها لتكسر سورة الثورة وتمحو أثرها . تهافتوا بجيش عظيم على منازل رجل من رجال محمد أحمد (عثمان دجة) فى سواحل البحر الأحمر فما كانت إلا مهارشة هرت فيها العساكر وبلغ صوت

وقوف القواد إلى أقاصى المسكونة وارتد بهم الذعر إلى البحر وقفلوا إلى ديارهم يتلفتون إلى ما وراءهم خوفاً ورهبة . كان الواجب أن يتبعوا عثمان دجّة إلى بربر والخرطوم حتى يبددوا جنده ويلحقوا به صاحب الدعوة . فان عجزوا عن الكل فلا أقل أن يأتوا على البعض فما الذى صدهم عن سبيل القصد ، لو كانوا فيه من الصادقين رجعوا وتركوا جوردون باشا في فم التنين ثم التجأوا إلى ملك الحبشة ليثيروا به حرباً صليبية تسود بها وجوه السكاذيين الذين يزعمون أنهم دعاة الإنسانية ورعاة التمدن . فإذا يكون من عساكرهم لواقمت في مصر أضعاف ما أقامت ، أظن لا يختلف المستقبل عن الماضى إلا بعظم خطوبه واشتداد نوبه .

هل يبتغون المحافظة على حدود مصر الأولى وحمايتها من هجمات السودانين ويقفون عند حد المدافعة ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك ، إن كانت بغيتهم ، فهى بغية البقاء في مصر ما دامت مصر أو السودان سودانا ، لأن صيال الثأرين يتوقع في جميع الأطراف من حدود مصر ماداموا قائمين بنشر هذه الدعوة بل كلما طال الزمن اشتد خطرهم وقويت أعضادهم وكل كربة لهم أو فرة تقوم بها للإنجليز حجة في ملازمة الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون للحلول الجيش الإنجليزي بأرض مصر أمد ينتهى ولا أجل ينقضى . فما لهم ينسبون على الدول والدولة العثمانية والمصريين بتحديد مدة الحلول إلى ثلاث سنوات ونصف مع سرد الألفاظ المهمة كتقرير الراحة وحفظ النظام وإعادة الطمأنينة إلخ مما يسمع ولا يفهم .

وليس من المبالغة أن نقول أن حلول الجيش الإنجليزي كان وسيكون من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد ولولا وجود العساكر الإنجليزية في مصر ما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة ولقد كان يتبرأ من نسبتها إليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته أو يدخل تحت

رايته . هذه تواريخ الأمم وهذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين إلى أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائلها في أمة الا عند اشتداد الخطوب عليها وزحف الأعداء إليها . أى حجة لمحمد أحمد في دعوة الناس إليه وأى نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول أن الانجليز من ينتهم الاستيلاء على أرض مصر وهى في عداد الأراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعامة القوة الإسلامية فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعى الله في مدافعهم واثقاز البلاد من رجسهم . وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء . هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الإنجليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد أحمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم أنه منقذ المسلمين . هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق شعلته إلى أقطار إسلامية يخشى الإنجليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند . قد نرى الحالة أقرب إلى المخافة منها إلى الأمن وسيعلم الانجليز أنهم كانوا أحوج الناس إلى السلم وأفقرهم إلى القناعة .

أى قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان أو يذعن لها جنان . ليس لقوة أن تأتى بهذا الأثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين وأولى العزم من المصريين — هل تظن دولة بريطانيا أن عقد مؤتمر لتصفية الدين المصرى يبطل سير محمد أحمد أو يخفف من وطأته أو يرده على عقبه فتتال مقصودها وتصبح آمنة مطمئنة في ديار مصر . إنها إلى الآن في عجز عن إرضاء الدول بقبول الأصول الابتدائية التى تحب أن تكون موضوعاً لبحث المؤتمر — إن تصفية الدين المصرى بهم انجلترا وحدها ولا نظنه بهم الدول ولا بهم محمد أحمد ، وإنا نرى الدول خصوصاً دولة روسيا والنمسا والأمة الفرنسية مهمة كل الاهتمام بكشف مقاصد الانجليز والنش عن غاياتهم فيما كانوا شرطوه من تخصيص البحث بالمسائل المالية حتى أن شدة المعارضات وكثرة المفاوضات والاشتداد

من الدول في طلب تعميم البحث في المؤتمر ليحيط بجميع فروع المسألة المصرية أحدث شكاً عند صاحب جريدة التاميس في انعقاد المؤتمر ودفع بالمسيو جلادستون إلى ربكة شديدة فهو من أمره في حيرة لا يهتدى إلى ما يسكن به خواطر الدول بل ولا ما يقنع به أوداء المخلصين بل ولا ما يوفق به بين زملائه في الوزارة لتفرق كلمتهم وتباين آرائهم . أما قائم السودان فهو في اعراض عن كل هذه المجادلات واغضاء عما يكون في عرضها من المحاولات . سواء عنده انعقد المؤتمر على رغبة الانجليز أو على وفق الآراء العمومية . وهو مغذ في سيره ذاهب وراء فكره ولا يمر يوم من أيامه إلا ونسمع فيه بنجر فتح أو حديث زحف حتى جاءت الأخبار الأخيرة بدخوله عاصمة السودان (الخرطوم) .

* وورد في برقية من القاهرة إلى (الدبلي تلغراف) بتاريخ ٣ يوليه أنه وصلت رسائل من بعض عساكر السودانيين وهم في مدينة خرطوم إلى أناس يوثق بهم في القاهرة ذكر فيها أن حامية المدينة ضعفت عن دوام المدافعة وأعلن محمد أحمد بتأمين جميع السكان على أرواحهم وأموالهم وأخذ على نفسه وقايتهم من كل ضرر يتوقعونه فبضعف الحامية وثقة الأهالي بوعد الفاتح فتحت المدينة بغاية السهولة في نهاية شهر مايو بدون سفك دم وأن كثيراً من الأفرنج أسلموا وأن جورردون مع كونه مستمسكاً بدينه ولم يبدل دخل في أمان الفاتحين وسيق إلى محمد أحمد محفوظاً لم يمسه سوء .

* وفي خبر آخر بالتاريخ عينه أن القسيس (سوقارو) وكهنة الرسالة الكاثوليكية في السودان وردت منهم أخبار من أهالي خرطوم تفيد أن المدينة فتحت ووقع جورردون أسيراً ولم يزل إلى الآن على قيد الحياة . وتقلت جريدة (الدبلي تلغراف) أن تاجراً في القاهرة أنه كتب من جنوب بربر يخبره أن الخرطوم مفتوحة الأبواب لمن يقصدها بالتجارة وإن كانت في قبضة جيوش السودان ، وفي رسالة من مكاتب التان بسواكن أن جماعة من الوجهاء في مدينة خرطوم دفعتهم الحمية

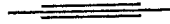
للانتقام من جوردون أخذاً بثأر الضابطين الذين قتلها بتهمة الخيانة (حسين باشا وسعيد باشا) فهجموا عليه وقتلوه ثم اتفقوا مع المحاصرين على تسليم المدينة فدخلوها آمنين ، وزعم المراسل أن للحكومة البريطانية علماً بهذه الحادثة من زمان طويل إلا أنها كتمته خفية هيجان الأفكار عليها ونحن لا يهمننا موت جوردون ولا حياته ولا راحته ولا عناؤه وإنما يظهر من كل هذه الأخبار أن خرطوم أصبح سودانية لا انجليزية ولا مصرية فإن تمكنت وزارة مسيو جلاستون من تنفيذ المستفيض من هذه الروايات فربما يصعب عليها المكابرة فيما يعقبها ، إن شوكة الداعي تقوى بعد فتح خرطوم وتمهد له سبل عديدة للوصول إلى مصر العليا أو السفلى وإن تأثير دعائه يقطع مسافات بعيدة في هنيئات قصيرة .



ماجت خواطر المصريين واهتزت قلوبهم لسماع هذه الأخبار وربما نسمع بعد اليوم أن ريح الجنوب حملت قسطلاً تشيره سنابك خيل الفتنة وجاوزت به حدود مصر فإن كان هذا شأن الحركات في بلاد السودان فتعليق الانجليز جلاهم على انقطاعها يشهد برغبتهم في الاحتلال الدائم ما بقي محمد أحمد وما بقيت له خلفاء ، على أننا نرتاب في قدرة عساكرهم على صيانة التخوم المصرية فقد ظهرت نهاية قوتها على سواحل البحر الأحمر . نعم ربما يختلج بخواطر الوزراء البريطانيين أن يخذعوا الدولة العثمانية ويحملوها على الحكم بعصيان محمد أحمد وتضليله ليحولوا القلوب عنه ثم ينجوا الثمرة كما جنوها من الحكم بعصيان أحمد عرابي ولكن قد تبين الرشد من الغي وظهر للدولة العثمانية سوء طوية الانجليز وعدوانهم على حقوقها فليس من المحتمل أن تنخدع لهم مرة ثانية ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، كما أنه يشبه المحال أن عثمانياً يجوز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله وعساكر الانجليز في القاهرة ثم ينتظر العثمانيون بعد انقضاء الفتنة نهاية المراوغات الانجليزية حتى تؤول مسألة مصر إلى مثل ما آلت إليه مسألة بوسنة وهرسك مع دولة النمسا ، فعلى العثمانيين وأصحاب العزيمة من المصريين أن يجمعوا أمرهم على كشف هذه النازلة صوتاً لأوطانهم ولا لقاء شر ربما يحدث في جهات أخرى ، فإن قضى حرص دولة الانجليز بصد أرباب

الحقوق الشرعية عن أداء المفروض عليهم جهلاً منها بمصلحة نفسها وبمصلح تلك البلاد فعلى العثمانيين أن يقيموا الحجة بسيوفهم وجيوشهم لا بالزقائم والأوراق فإن هذا فساد لو أهمل لعم وعمت زواياه ولا نظن أن دولة بريطانيا تثبت على نفختها هذه فإنها ستشتغل بداخل البيت عن خارجه بعد قليل .

لسنا نقول ، ما نقول جزافاً ، ولكن دعوة القائم السوداني أشربت قلوب الأكثرين في الهند وبلوجستان وأفغانستان وقد علق شرر الثورة بأهداب الحواطر فلا تلبث أن تلهب للدولة العثمانية أن تمد نظرها إلى أعماق المسألة وتقدر قوة الانجليز وأهبتهم العسكرية مع ملاحظة ارتباطاتهم في ممالكهم وظهور عجزهم وضعفهم في الحوادث الأخيرة ومراعاة آراء الغالب من الدول العظيمة وبعد الإحاطة بهذا كله وهي أسهل من كل سهل تظهر عزماً ثابتاً وبأساً قوياً يليق بدولة عظيمة كدولة آل عثمان طالما ظهرت على يديها خوارق العادات والله الأمر من قبل ومن بعد .



الباب العالى

ذكرت جريدة استندارد أن معارضة الباب العالى لطامح انجلترا ليست قاصرة على المانعة في جعل مصر حكومة بلجيكية في أفريقيا تحت حماية الدول كما في عزم جلادستون أن يعرضه على المؤتمر . بل صرحت الدولة العثمانية لسفيرها في لندن مرزروس باشا بأنه متى وضعت لأنحة جلادستون موضع البحث في المؤتمر بعثت إليه بتعليمات للمعارضة الشديدة في هذه المادة وكل ما يكون من قبيلها (ما يمس حقوق الدولة والمصريين) ولا ترتأب في أن الدولة العثمانية بعزمها هذا قد قامت بفريضة شرعية ومثلها من يقوم بها في مصر وفي سائر الممالك العثمانية فإن كل ذى بصيرة يدرك أن صيانة جزء من ممالكها موقوف على صيانة الآخر والتفريط في شيء منها يحدث الخلل في الباقي . وكفانا عبرة أن مجرد طلب جلادستون لحرية قناة السويس حمل دولة الروس على طلب بوغاز البوسفور كما ذكرته الجرائد الروسية ودعا بعض سياسى الروس أن يقول أن المسألة المصرية قد صارت الآن مسعراً للمسألة الشرقية . ولا نظن شيئاً من هذا يخفى على عقلاء العثمانيين .



يقظة من سنة

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا﴾ ربنا اشرح صدورنا لما فيه خيرنا وخير أهل ملتنا أجمعين . اللهم إنك تعلم خيرنا وفلاحنا في اجتماعنا وائتلافنا ، وارتباطنا بملائق ديننا ، واعتصامنا بحبلك المتين ، اللهم كفر عنا سيئات التفریط فيا أوجبت علينا من ذلك بالهداية إلى الإجابة والإعانة على تلافى ما فرط والقيام بالمستطاع مما فرضت .

مضى زمان فرط فيه الهنديون عند تداخل الإنجليز في شئونهم فتدابروا ، وحول كل وجهه عن الآخر ، ولم يصغوا لدعوة الله في طلب الاعتصام بحبله ، فذاقوا وبال أمرهم ، وسقطوا جميعاً تحت سلطة الدولة الانجليزية ، وسادت عليهم واتخذت السادات منهم خدماً لرجالها وخولاً بعد أن كانت تدعى أنها خادمة لهم أمينة في الخدمة ، ولم يهن لها أن تكون سيدة عادلة ، بل تجاوزت فيهم حد العدل ، واستبدت عليهم ظالمة جائرة ، فلما لفحتهم نيران القسوة ، أقبل بعضهم على بعض ونهضوا جميعاً للتملص من أغلال ظالمهم ، من نحو أربع وعشرين سنة إلا أن إخوانهم الأفغانيين والبلوجيين والإيرانيين كانوا في غفوة عما نهضوا إليه ولم يمدوا لهم يد المساعدة ، بل كان الإيرانيون في حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون ولم يرتبطوا بهم في التعاون على شأنهم كما أنهم لم يرتبطوا في ذلك مع العثمانيين ، فاهال جيرانهم ، ورسوخ أقدام العدو بينهم ، كان سبباً في تغلب الظلمة الأعراب عليهم ، ولو عقل المهملون لعلموا أن العدو إذا تمكن في الهند قويت شوكته ثم كر عليهم ، وأوقع بهم ما أوقع بأخوانهم .

بعد هذا زحف العدو الغريب على بلوچستان واشتغل معها بالنازلة ، وفرد الأفغانيون والإيرانيون في تعضيدهم ، فتم له بذلك أن يسود في جزء عظيم من أراضيهم ثم انقلب على الأفغانيين وكانت بينه وبينهم حرب هائلة ، امتد زمنها نحو سنتين وما نبض في الهنديين عرق ، ولا امتد من الإيرانيين ساعد ، ولا كانت بينهم وبين العثمانيين وصلة ، ولو كان لجميعهم بصر بالعاقبة لأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين ، وبالغ الحصم في تطاوله حتى اعتدى على الممالك العثمانية بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التي هي أعظم إيالة من إيالات العثمانيين ، بل أهم أقطار المسلمين ، وهو الآن في محاولة الاستيلاء على تلك البلاد ، والاستبداد بالحكم فيها ، غير مبالي بحقوق الدولة العثمانية ، ولا محترم لولايتها الشرعية ، وكان المسلمون لبداية الأمر على مثل تفريطهم السابق غير ملتفتين إلى ما حل بهذا القطر الإسلامي العثماني ، ظناً منهم أن العدو يصدق مرة في وعده أو يخشى عاقبة السوء من طمعه ، فلما رأوه غريقاً في غيه ، متفلاً في سيره ، مغروراً بقوته ، ناصباً لحبائله ، اهتزت روااسيهم ، وتحركت ثوابتهم ، وتنبهوا من سباتهم ، وندموا على ما سلف من سابق التفريط ، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم فلا بد أن يمس يوماً جميعهم ، فصارت المسألة المصرية سبباً في إحياء الأخوة الدينية ، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس والهند وأفغانستان ، فلو تمادى الإنجليز في حرصهم ، وحملهم الشره على غمط حقوق العثمانيين ، وثبتت الدولة العثمانية في المدافعة والمطالبة ، لوجد لها من المسلمين القادرين على نكاية الإنجليز من يقوم بنصرها أداء لما أوجب الله عليه .

وإنا بعد أداء الشكر لأولئك المؤمنين الصادقين ، على ما أظهروا من حميتهم الدينية ، التي أشارت إليها رسائلهم ، نرغب إليهم أن يحافظوا على وحدة العقيدة العامة ، وجامعة الشريعة الحققة ، وأن يصنعوا إلى أصوات النيلان التي تناديهن في الليالي المظلمة ، بما يحاكي أصوات الإنس وإنما هي أصوات مردة الشياطين ، يبتغون تفريق الكلمة ، وتشتيت الشمل وإخماد الغيرة ، ونسأل الله تعالى ثباتاً للمسلمين على

— ٣٥٤ —

أصول الاتحاد ، وقواعد الألفة ، وأن لا يميل بهم المسوى إلى جعل الاختلاف في
المسائل الثانوية ، سبباً في حل الجامعة الإسلامية ، التي قوامها الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محقق ملتهم
وإفساد ولايتهم ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .



== (حيلة انجليزية) ==

ذكر كثير من الجرائد الهندية ، وفيها جريدة (أخبار عام) أن عدداً وافراً من الإنجليز يدخلون في دين الاسلام ، لهذه الأيام ، وكثرت الظنون في هذا العارض الجديد ، الإجماع على أن ليس الباعث عليه حسن العقيدة في هذا الدين ، والإذعان لأحكامه القدسية ، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشاكلتهم ، ليركنوا إليهم ، ويحسنوا الظن بهم ، فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم ، من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السوداني ، وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين ، وعظمت منزلتها فيهم ، وتوقع الانجليز شراً من فشوها ، وامتداد شهرتها ، بين مسلمي الهند ، وطلبوا للاحتياط هذه الوسائل ، وقالت بعض الجرائد : أن الخشية من الإذعان لدعوة السوداني قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند ، فكان من مجموعهما فرع شديد حمل الانجليز على التودد للمسلمين ، والظهور في مظاهر العدول النصفين ، بل الأصفياء المخلصين ، حتى أن الإخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامي ليملكوا بذلك قلوب السذج ، ويحصوا بعض الصدور من الحقد عليهم ، ويثقوا به شراً عاجلاً أو آجلاً ، ولكن الصيف ضيعت اللبن .

كان يمكن لهم ذلك بالاعتدال في السلطة ، والأخذ بشيء من النصفة ، قبل اقتراب النكبة ، أما الآن وقد أوغرت الصدور غلا ، وقرت القلوب أحقاداً ، وتحقق عند الكافة من المسلمين ، بل وغيرهم من الهنديين ، أن الانجليز لهم في كل مصلحة مفسدة ، وفي كل حسنة سيئات ، وفي كل صفاء دخل ، فهم الخادعون الخائنون ، بل هم الكاذبون النافقون ، هذه صفاتهم لم يبق فيها ريبة عند مسلم

فلا تفيدهم الحيلة أدنى فائدة ، ولا تعود عليهم إلا بأسوأ عائدة ، ولا ينالون منها إلا وقوف المسلمين على غاية سيرهم عند عجزهم ، وازديادهم بصيرة في أمرهم ، وبقينا بضعفهم ، حيث لم يبق لديهم من الوسائل إلا خلع دينهم ، والدخول في دين المسلمين إرضاء لخواطرم ، ولسنا في حاجة لتحذير المسلمين منهم ، فإن لنا يقيناً بأنه لا يوجد مسلم في أقطار الهند جميعاً إلا وهو على علم تام بما يريد به حاكموه من الانجليز ، فما هو بمؤمن لهم حتى ولو كانوا صادقين .

وداد الانجليز للمسلمين

يظهر من الرسائل والبرقيات الواردة من القاهرة أن الإنجليز وقفوا لإلهاب حرب صليبية بين الحبشة ومسلمى السودان ، والله يعلم ماذا تكون العاقبة إذا طار شررها . ربما لا يوجد مسلم يعتقد بدين محمد إلا ويسعى ببذل روحه وماله لإجباط أعمال الإنجليز ورد كيدهم خصوصاً مسلمى الهند المغرورين بخديعة حكامهم ، ودعواهم أن دولتهم نصيرة الإسلام ، وحليفة الدولة العثمانية ، فما نقلته الأخبار بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ ، أن من أحكام الاتفاق الذى عقده الأميرال هفيت مع ملك الحبشة أن تكون مصوع مباحة لإرساء الراكب الحبشية ابتداء من شهر سبتمبر . فإما أن يكون هذا بنزعها من أيدي المصريين ، بل العثمانيين ، بل المسلمين وجعلها بلاداً إنجليزية يبيعها الإنجليز لمن شاءوا ويمنعونها من أرادوا ، وإما أن يكون بتقديمها أقطاعاً لملك الحبشة ، ومن أحكامه أن يأذن الملك للحامية المصرية أن تقيم حصوناً على حدود مملكته حتى إذا هجم السودانيون عليها باعتبار أنها حصون مصرية تدرع الملك لموايبتهم بدعوى أنها فى حدود بلاده ، قتشب الحرب ويحمى وطيسها بين مسيحي الحبش ومسلمى السودان ، ولما كان غرض الحكومة البريطانية أن تضم مصر وملحقاتها إليها كما يدل عليه اهتمامها بمد سكة الحديد بين سواكن وبربر ، أخذت على الملك عهداً بقبول ما تحكم به ملكة إنجلترا عند عروض مشاكل بينه وبين الحكومة المصرية وإن جرى الحكم على العرف ولم تلاحظ فيه الأصول السياسية ، هذه هى الدولة التى بلغ الخافقين صوت دعواها أنها حامية الإسلام والمسلمين ، وظهيرة للعثمانيين ، فليعلم كل مسلم أن من نيتها اقراض هذا الدين وأهله من وجه الأرض وإن لم يكن ذلك عليها يسير .

النهتک فی الحیلة

اشتهرت دولة الإنجليز بخلاصة الشرقيين ، وأخذهم بالرويفة حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت ، وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها ، وعادت تشبه ألهيات الصبيان ، والأعيب الأطفال ، يدرك سرها الذكي والغبي ، من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها (كما يزعمون) لوح للحكومة بترك السودان ثم جاء بعده الملاجور بارنج وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه ، لأنه يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة ، فامتثلت الحكومة أمر غالبها وهمت بإخلائه ولم تلبس عملها حتى صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال جوردون للقيام بتخيلة السودان ، فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم (الموهوم) لدولة بريطانيا ، وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة ، وما وصل خرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميراً على كوردفان ، وأخذ في إرجاع الولايات السودانية للموكها الأقدمين أو أبنائهم ، ولم يكن القصد من هذه الزغرة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين فراطلة لا حق لأحد فيه فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للإنجليز عاجلاً أو آجلاً أن يستولوا عليه وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار ، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومات الدول عنها كما أشرنا إلى ذلك في أحد الأعداد . وفي هذه الأزمان الأخيرة أخرجت حكومة إنجلترا من جرابها العلوبة أخرى ، ومثلت من ضيق جوردون في خرطوم سبباً عظيماً لتهديد طريق يوصل الجيوش لتخليصه ، فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد

الآلات ، وتمعين المهندسين والصناع ، ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر ولباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر كما ذكرت ذلك جريدة (البال مال جازيت) ، وترعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص جوردون . إن كان جوردون في خطر ويحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش ، فهل يبقى حياً إلى أن تمد سكة الحديد وتخرق الجبال والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش ، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيراً أو هلاكه قتيلاً - إذا فرضنا هلاك جوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه فهل تهدم دولة انجلترا طريق الحديد ، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها ، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء وجوداً ، كلا والله لا هذا ولا ذاك ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان ، فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقي ، فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالبربر ولم تلاق في ذلك صعوبة ، على أنها في خلال المدة بعد مد السكك الحديدية تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية ، فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية باباً وتغلق بصفتها باب النفعة عن مصر فتأتى بضائع البر ونحوها مما يحتاج إليه السودانيون من انجلترا إلى سواكن ، ومن سواكن تذهب إلى السودان ، بدون أن تصل إلى أيدي المصريين ، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تحمل إلى سواكن وتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصرى . فإذا تولى الإنجليز مصر (لا قدر الله) حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان « وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية » وإذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة النفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان وبذلك يتقوض كثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية ، ويعدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس فليس حقيقة الغرض من مد سكة الحديد من سواكن إلى بربر إلا التوصل إلى ينبوع متدفق من ينابيع الثروة المصرية ، وتحويل

مجره عن مصر إلى جزائر بريطانيا . وسنأتى على تفاصيل الخسائر التى تلم بأهالى مصر من مد هذه السكة فى عدد آخر .

هذه إحدى خطيئات الإنجليز الذين بعد استيلائهم على الهند حظروا على الأهالى فى جميع ممالكهم أن يعالجوا زراعة الأصناف التجارية كالنيلة ونحوها واختصت الحكومة الإنجليزية بزراعتها وزادوا فى المظلمة فحكموا على جميع الحكومات المستقلة التى يتولاها النوابون والرجوات أن لا تزرع الأفيون بحجة أن الحكومة الهندية الإنجليزية تزرعه فلا يجوز لغيرها العمل فى زراعته كيلا تقل الفائدة أو لئلا يستفيد شيئاً مما تستفيد . هذه آثار جورها يثبتها خراب البيوت القديمة . وفاقة العائلات الشريفة . فى كل بلد لها فيه أمر ونهى . ولا تزال ترد شرعتها هذه فى كل قطر تطأه أرجل رجالها قريباً كان أو بعيداً . فعلى البصير أن ينظر وعلى اللبيب أن يحذر .

فرصة يجب أن لا تُضيع

نشرت الدعوات وطلبت الدول العظام لعقد مؤتمر في لندن بعد مفاوضات طويلة بين حكومتى فرنسا وإنجلترا . ماذا كان المؤتمر وماذا نوت الحكومة الإنجليزية بالدعوة إليه . وماذا كانت تقصد الدول من وجود نوابها فيه . وأية غاية كان يطلبها خريت السياسة البرنس بسمارك . انعقد المؤتمر ثم صار عقياً . وبقيت تلك القاصد مكونة في صدور أربابها كانت حكومة إنجلترا تطمح للاستيلاء على مصر باسم أمير مصرى . وحالت دون مطمحها المصاعب أزماناً حتى سنحت لها الفرصة المشئومة بتشويه وجه الحركة العربية فتيسر لها بتلك الحركة إرضاء الدول . واستئذان الدولة العثمانية بالتدخل في توقيفها . فسهل لها دخول مصر على نية أن لا تخرج . وهل يمج الظمآن بارد الزلال من فيه !! ظنت أنها ملكت أرض مصر ووجدت عليها ديناً ثقيلاً فرغبت تخفيفه لأنها ترى ما ينفق من خزانة مصر إنما ينقص من خزائن إنجلترا . ولم تقصد بتخفيفه رحمة الفلاحين . ولم يعمها عليه الشفقة على المصريين . وعميت بصيرة من ظن بحكومة إنجلترا قصد الرحمة في هذا أو في غيره من الأعمال .

قصدت تعمية الأمر على الدول لتنال منهم تصديقاً على أعمالها فيتسع لها المجال فيما بعد ، وبدأت باستمالة فرنسا وعقدت معها اتفاقاً يوطن نفوس السياسيين على الرضاء بما تريد ثم أنشأ السير بارنج لائحة للمالية أثبت فيها عجز مصر عن أداء ديونها . إلا أن رجال الدول كانوا أحذق من أن ينخدعوا لعلمهم أن وادى النيل أحوج إلى العدالة وحسن الإدارة من تخفيف الدين . لم يخف على السياسيين أن مصر

لو سلمت إدارتها لحاكم نافذ الكلمة قوى المزيمة واسع الخبرة بأحوال البلاد ، لو سعت قدرتها أداء ما عليها بل وما يزيد عليه . وإن كان يثقل على دولة تجارية . قررت في الاتفاق الفرنسي إطالة مدة حلولها العسكري إلى ثلاث سنوات ونصف ثم تخرج على شرط اتفاق جميع الدول على خروجها فعلقته بما يشبه المحال لتسهيل عليها المراوبة ولكن لم يذهب على رجال السياسة في سائر الدول أن بقاء إنجلترا في مصر لا يزيدها إلا خراباً .

ولما انعقد المؤتمر كشف مسيو دبلنير الفرنسي ما في لأهمية بارنج من الأغلاط فشرعت إنجلترا في تهديد فرنسا بالميل إلى ألمانيا . إلا أن السفير الألماني وهو تلميذ البرنس بسمارك ولا يعمل إلا بإشارته كان أميل إلى فرنسا فإن سياسة البرنس مبنية على التفريق بين فرنسا وإنجلترا (وقد حصل) فحصل اليأس للحكومة إنجلترا من تخفيف النفقة على الملك التي زعمت أنها ملكته ، فحلت المؤتمر أو انحل بطبعه . وصارت الدول الأوروبية في جهة ، وإنجلترا وحدها في جهة أخرى . (١) ولم يكن من رأى الدول أن يقموا آلة بيد إنجلترا تستعملهم في قضاء أوطارها فطاشت جرائد الانجليز غضباً على ألمانيا وأخذت تذكرها بأن استيلائها على الأت拉斯 واللورين إنما كان بمساعدة إنجلترا المعنوية ، وهاجت الجرائد النمساوية والألمانية ، وصالت بالطعن والتجريح في السياسة الإنجليزية ، واتفقت حكومة ألمانيا والنمسا على إلزام إنجلترا بتحديد أجل لدفع الخسائر التي نشأت عن ضرب الأسكندرية .

الحكومة الانجليزية في رجفة شديدة ، وخيفة من سوء العقوبة ، إلا أنها على عاداتها تظهر الاقدام وتنطق بالحماس وتوهم أنها غنية عن العالمين . عمدت

(١) ما ألقى التاريخ وما أعظم دروسه . فيوم أمت مصر قناتها وثارث نائرة فرنسا وإنجلترا وغيرهما انعقد مؤتمر لندن عام ١٩٥٦ ليسترد القناة من أبنائها ... وكتب لهذا المؤتمر الفشل ، ولأصحاب القناة الشرعيين النصر المين .

إلى الاستقلال بتدويع مصر ، وتقرير سلطتها فيها ، وإخماد فتنة السودان ، وظنت أنها قادرة على كل ذلك ، فجهزت القواد وعينت اللورد نورمبروك أعدى أعداء المسلمين ، وغرب بيوت الشرقيين ليتولى العمل لئولته في القطر المصري . ولكن هيهات وهيهات ، ترك الآن بيان ما يترتب على انفراد الانجليز عن سائر الدول ، أمر مصر إلى عدد آخر وتقديم كشفاً لجوهر حالهم العامة .

أولاً : إن الانجليز على عادتهم المألوفة إذا قصدوا الاستيلاء على قطر مصر يصرحون بقصدهم حتى يتمكنوا فيه ، ولا يبقى لهم منازع لا في الداخل ولا في الخارج ، فلوفرنا أن المصريين والدول أجمعين اتفقوا الآن وطلبوا من انجلترا أن تعلن بتملكها لمصر لامتنت الحكومة الانجليزية وأظهرت العفة والقناعة ، ولظهر المستر جلادستون في دلوقة الزهاد ولصالح جميع الانجليز من جميع الأحزاب أستغفر الله لا يزيد سوى إصلاح البلاد وتوفير خيراتها !! وتحت هذا الحجاب يتصرفون تصرف الملاك ، يختصون بالوظائف العالية ، ويدرون حكومة البلاد على رغبتهم ، وينقلون ثروتها إلى جزيرتهم ، ويمزقونها قطعاً يهبون منها مالا يهتمهم لأعداء البلاد ، ليعينهم على تذليلها واستعبادها .

وثانياً : إن حكومة الانجليز من أضعف الحكومات في القوة العسكرية البرية ، وأحد سلاحها التهديد ، وأكبر قوتها التهويل ، ووضع الأمور الصغيرة ، تحت النظارات المعظمة ، لترهب بذلك كل جاهل ، وتخيف كل غبي ، لهذا لا تتمكن بدسائسها في قطر إلا عند سكون أهاليه ، فاذا نبذ الأهالي طاعتها ، وعارضوها في أعمالها ، سترت ضعفها بترك البلاد لأهلها ، فان مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين ، نهزم بانهمزهم ، وما جرى لحكومة انجلترا مع الأفغانين أعظم شاهد على ما نقول

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى واستولت على المدن وكاد قدمها يرسخ في البلاد ، فلما قام الأهالي من كل صقع . والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان ، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة إنجلترا بعد تسلطها سنتين ، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه استرليني أن تطلب الأمير عبد الرحمن خان من روسيا بعد ما أقام عند الروسيين أثنى عشرة سنة معزراً مكرماً وأن تقدم له أربعة ملايين من الجنيهات لينفقها في إدارة بلاده وتركت له البلاد وولت .

حكومة الإنجليز إنما تخضع للضرورة وللضرورة أحكام — فعلى قبائل العرب في مصر ومشائخها أن يتذكروا شهاتهم العربية ، وحميتهم الدينية ويقتدوا بالأفغانين ، لينفذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب الذين لو تمكنوا في البلاد لمحقوم وأذلوم ، وليس من الفتنة أن ندعوم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن . كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، فانما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه ، وهي سنة جرى عليها دعاة الحق ، في كل أمة ، وتاريخ أوروبا القديم والحديث ، وتواريخ الأمم الشرقية أولها وآخرها ، تنطق بصدق ما نقول ، وعلى المصريين عموماً والفلاحين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين لا نطيع إلا حاكماً وطنياً مسلماً نافذ الكلمة حازم الرأي قادراً على إدارة البلاد بقوة وطنية ، وليستصرخوا في ذلك جميع الدول ويبرهنوا على قدرتهم ، وقيموا الأدلة على أن مصلحة الدائنين ، لا يمكن حفظها إلا بإجابة طلبهم فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً ، بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه !!

على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لولا فرمانها بمصيان عرابي لما سهل

للإنجليز أن يدخلوا أرض مصر^(١). ولا أصابوا هذه الغنيمة باردة فلتنظر إلى قوتها ونفوذها . وتلاحظ أن الحل على من عقد . والمقد على من حل . ولا تنس أن مصر حكمة الممالك العثمانية كما بيناه مراراً . ولا تنفل من النمسا وشرها . والروسيا وطعمها . وفرنسا وآمالها . فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع . وإذا فرط متساهل في أهل ملته فلن يجد منهم فيما بعد عوناً . لو تحرك العثمانيون لرأوا عوناً من جميع المسلمين خصوصاً وقد حصلت كدورة بين أمانة الأفغان وحكومة الإنجليز . بل نكرر ما قلناه مراراً من أن نفوذ العثمانيين في الهند يمنع الإنجليز من الجهر بعداوتهم البتة . فهذه فرصة الإقدام فإن ولت الفرصة فربما يصعب التلافي ، ولا يبقى إلا الندم ، حيث لا ينفع الندم ، وفق الله الدولة العثمانية إلى ما فيه خيرها وخير المسلمين . وبصرها بالرشد وكفها شرور المفسدين .

(١) هذا هو أول هجوم يشنه الأفغان على الدولة العثمانية لأنها أصدرت فوامتها الخامس باتهام عرابي بالعصيان ونكسة حركته مما أدى إلى تسلل الإنجليز واستعمارنا ٧٤ عاماً ١١

تنبيه

طلب إلينا أحد الأعظم من ذوى الحل والمقد فى المسلمين أن ننشر الجملة الآتية بنصها فها هي :

(والله نولبتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله)
(وبشر الذين كفروا بعذاب ألهم)

ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به . ملعون من يمكن الأجانب من دياره . محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير . ويصغر العظيم . ويمهد الطرق لخفض كئنه . وإعلاء كلة الأعراب . ملعون من يختلج فى صدره أن يلحق عاراً بأمتة . ليتيم ناقصاً من لذته . عجلاً عجلاً . لا حول ولا قوة إلا بالله . هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكن الأجانب من مصر . وهى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية . هيهات هيهات . أظن مريض القلب أن يترك حتى يأتى هذا المنكر ، أظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ، أتوهم أنه يبقى حياً على وجه الأرض وفيها مسلم ، لا أظن أن يكون له حظ من البقاء ، ولو كان فى أبراج من الفولاذ اهـ .

مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيداً!!

يتوكأ الإنجليز عن توفيق باشا في حركتهم بمصر . ويتخذونه آلة لتخريب بلاده . وهدم ملكه . وما يكون من شر ينسبونه إليه . وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم . ويردونه إلى أنفسهم ، وفيما بين ذلك يبنضون إليه الولاية الإسلامية : ويجيئون إليه إغفال الأصول الدينية . وهويهم معهم . وعدمهم في مقاصدهم ويطوع البلاد لهم . بما بقى له من السلطة الصورية كما يتظاهر بالدين والمحافظة على الصلوات . فإن كان باطنه يطابق ظاهره ، وكان معتدّاً بدين الإسلام ، فعلية أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبراً ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه ، فإن لم يكن هذا فعلية أن يجهر بمقيده ، ويقاوم الإنجليز بما فى جهده ، ويموت شهيداً فى سبيل دينه ووطنه ، وإلا فليس يعنى عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناظم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصرى .

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقبوا صيداً فى يد الإنجليز بهذه الحماة البالية وهذا الفخ الواهن ، وليظروا فى شئونهم وما توجه عليهم فروض دينهم وإلا فما الله بغافل عنهم .

هؤلاء رجال الانجليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياماً لضرورة ما مسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية هذه الأيام . والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قننا به في المدافعة عن حقوق المسلمين . فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه وترجو ديان السموات والأرض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها .

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن لإجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية ، في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية . وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي ما مرت قدم شرقى إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه ، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التي لا يدرك منتهائها . تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة وطوقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك لم تزل في مد لا جزر معه . ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في نههم شديد لابتلاع ممالك العالم وكلما أساغوا قطراً طلبوا إليه آخر . وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الأفكار وغضون الأقوال . وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلويح . ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الأعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر إليها وإظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كيلا يفتر الجاهل ، ولا يزل العالم .

لاقي (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وأنفذ الناس رأياً فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الأحوال المصرية ، ومن محادثاته التمهيدية ما نشر في بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال جازيت) وجريدة (التروت) ، التي يحررها النائب الشهير مستر لا بوشير وجريدة (التاميس) وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً ، والمصريون خصوصاً ، وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرأى أفكارهم . أما الآن فنأتى على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحرية الإنجليزية . ليأخذ كل مصري منها حظه . ويصيب كل شرقي سهمه . ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار الحكومة الإنجليزية .

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحرية الإنجليزية ، ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك ، وفلان باشا وفلان باشا ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الليل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين ، فقال الوزير هل تنكر أن الجهالة عامة في أقطار مصر ، وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني ، وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المهدبة ، فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرضه الدين ، وأوجبه حقوق الشريعة ، وقال : أولاً إن النفرة من ولاية الأجنبي ، ونبد الطبع لسلطته ، مما أودع في فطرة البشر وليس بمحتاج للدرس والمطالعة ، وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم

توحشاً كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم - وثانياً أن المسلمين مهما كانوا وعلى أى درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ، ومن يقرأون ولا يكتبون ، لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها ومن أظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفهم فيه وأن لهم فى الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية وأن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ويحدث قهيم من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربى ويفهمون دقائق ما أودع فى ذلك اللسان وهو اسان دينهم ، وثالثاً أن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوروبا ، وأخذ كل مصرى نصيباً منها على تدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون ، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبى الأخبار من القارئين ، فهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومى توى بها الميلاق الأولان ، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم .

أين العلماء الأذكياء أين الجبهة الأغبياء ، أين الأثابة الأعلياء ، أين السفلة
الأدنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية ، كل
ذى شكل إنسانى ، وصورة بشرية ، يدرك ما وراء هذه الأسئلة ، وما تشف عنه هذه
الظنون العجيبة . هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من المسلمين عموماً ، والمصريين خصوصاً ، إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنسانى ، وأنهم فى حضيض من الجهل ، لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب ، هذا دليل على أن الإنجليز (إلا من أنار الله بصيرته ووقفه لفهم الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية ، والأمة المصرية ، فى درجة الحيوانات السائمة ، والدواب

الراعية ، لا تنال إلا من الجوع ، وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الإحساس إلا نوع من الإنفعالات البدنية ، ولا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها ، والعامل عليها ومستخدمها ، في أى عمل من الأعمال الشاقة ، ما دام يقدم لها طعاماً وشراباً ، وأنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غذاءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها ، بما يسومها من مشاق الأعمال ، فإذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها ، ألا فأعجبوا . إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية في الأمم التي يتسلطون عليها ، فأى معاملة تكون منهم لها ، ألا يعاملونهم معاملة المجموعات والحيوانات الرتع ، بلى ، وهكذا يعاملون ، وهذا تصرفهم في البلاد الهندية ، يسهد بأفصح لسان على ما يعملون .

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما ، إما أن يتناكفوا ويتضافروا ويبدلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الإنسانى ، ومكانتهم العربية ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحير ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسير ، وإما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية ، ويحملوا حلية الإيمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليحملوا ناف العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الأمرين وأدناها وما أظن مصرياً يختاره لنفسه ولئن اختاره « معاذ الله » فسيذهب الله بهم ويورث الأرض قوماً آخرين ، فإن الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد

كثيراً ما أتينا في جريدتنا على بيان مسالك الإنجليز في تملك الهند وتذليلهم لأهاليه، وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية في افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار، فيقتلون ويقتلون، حتى يتغلبوا على من يريدون. وقلنا أن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة، ولا صرف أموال وافرة، وإنما ملكوا مملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون في كل بلد أسوداً ضارية، في جلود ضأن ثاغية!! يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين، وأمنة ناصحين، طالبين للراحة، مقومين للنظام. نادينا مراراً بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل في ملك للشرقيين، ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير، وأن وجوده في الملك يبطئ سيرهم إلى ما يقصدون. بادروا إلى التشويش عليه، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته. ويثيروا عليه أحقادها، أو يغفروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالمصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة. ثم ينصبون بدله إما ضعيفاً أحق، وإما صبيّاً لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه، ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة في مدة قصيرة، بلا ممانع ولا عائق، مع إصابتهم جزيل الأجر، على ما عملوا في بداية العمل.

هذا كما فعلوا من مدة غير بعيدة مع « راجا برودا » خلعوه بدعوى باطلة، لما أحسوا فيه البصيرة والحزم، وأقاموا بدله ولداً صغيراً من عائلته، ثم انتصبوا

له أوصياء ، فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه ، وتولوا إدارة ممالكه ، واستلموا قيادة عساكره ، ولم يبق له إلا الإسم ، يذكر ولا يشكر ، كل هذا تحت راية العدالة والإصلاح ، وحفظ الراحة وتقرير النظام ، ولم يساقوا إليه إلا بياض الحبّة والإخلاص « ولا يذكر هناك اسم التملك والاستيلاء ». نعم ولهم الحق في استبقاء اسم ، والسكوت عن آخر ، فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء ، وإنما يهمهم طنطنة الألفاظ وضخامة الألقاب !!

إذا سلب الأمير الشرقي ملكه وماله ، وجرد من جميع حقوقه ، وبقي له لقبه ولواحق لقبه ، فهو في سكرة من لذة ما بقي له ، وفي ذهول عما سلب منه ، هذه خلة عرفها الإنجليز في كل أمير شرقي ، فلم لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء ، بعد ما جردت عن معانيها ، وأى داع يدعو رجال الإنجليز لإزعاج قلوب الأمراء ، بنزع هذه الألقاب ، إن اللقب الضخم حصن حصين ، يسجن فيه الأمير الشرقي ، أو جب عميق يلقي فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض ، فليمش أمراء المشرق متمتمين بنعيم ألقابهم ، وسعادة أسمائهم ، ويكفهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم وخاصتهم ، في داخل دوائرهم « نواب صاحب » « راجا صاحب » « خديوى صاحب » « سلطان صاحب » . « واخجلتاه » هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح ، ومجد شامخ ، وشوكة قوية ، وسطوة تخضع لها الشمع والى ، فكيف طابت نفوس أمراء المشرق بقبولها عارية من كل شرف ، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم ، وما هم فيها بأحرار ، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضا الأجانب .

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية في فن الحيلة ، وأمهرهم في صناعة الخدعة وأطولهم باعا في النفاق ، وأحذقهم في اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها ، وأشهرهم في عداوة المسلمين ، ذلك اللورد المحتوم (نورث بروك) . كان هذا الرجل البارع حاكما في الهند فأذاق أهاليه مر العذاب ، في كؤوس الحبّة

والوداد . كم خرب بيوتاً ، وقلب عروشاً ، وكم خفض ربيعاً ، وأذل عزيزاً ، وهو في جميع سيئاته يبكي بكاء الشفقة ، ويسكب دموع الرحمة على الهنديين ، ويقول إنني أول إنجليزي تهمة رفاهة أهل الهند ، وأنني وحيد بين الإنجليز بحجة الهنود ، والسعي فيما يمود عليهم بالصلاح والنجاح ، وأنني أستغفر الله إن كنت قصرت في عمل يؤمل بهم إلى الفلاح ، وينادي في الهنديين بقوله والأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتموني ، ولا احطتم بما حواه ضميري ، من إرادة الخير لكم ، هذا هو الكاهن الخاذق في وعظه « ودونه في النفاق عبدالله بن أبي سلول رأس المنافقين في الإسلام » .

إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدره في براعته ، ومعرفته بوجوه المكر ، وخبرته بأحوال الشرقيين ، وسعة علمه بكيفيات التصرف في عقولهم وأهوائهم ، وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون ، واعترفت له حكومته بصدق الطوية في معاداة المسلمين ، لأجل هذا قررت أن تبعثه إلى مصر ، وعزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم ، فان تسنى له النجاح ، ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ، ووصمة الضيم ، فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة في جميع أعماله ، يستخدمه لإدخال مصر في ملك الحكومة الإنجليزية ، يلقنه الأوامر السامية ، ويلهمه الإرادات السنية ، لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد النائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية ، فان تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولداً صغيراً لم يبلغ الرشد واستند في ذلك إلى الفرمانات السلطانية « يحترمونها إذا وافقت أغراضهم » وجعل نوبار باشا ديواناً له « الديوان وزير يعينه الإنجليزي من طرفهم في الممالك التي تبقى في الهند تحت أسماء الأمراء الذين لا يعرف فيهم الرشد ولا يجوز عزله إلا بأمر من الحكومة الإنجليزية » نوبار باشا لا يقصر في هذا العمل

ولا يألوا جهداً في إبلاغه إلى نهايته ، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ، ولا هو مصري فيحتنى على وطنه ، ولا هو عربي فتأخذه النفرة على جلسه ، وبهذا الطريق ينال سلطة في القطر المصري مدة لا تنقص عن الباقي من عمره ، ويكون في أمان من العزل ، تحت ظل الحكومة الإنجليزية .

هذه مقاصده التي بلغتنا من مصدر يوثق به ولا نظنه ينجح فيها فإن صلاح الأمر في مصر لا يقوم به إلا من هو أعرف بحال المصريين وأقرب إليهم من « نورث بروك » هذا اللورد يسلك في سيره على ما جرى عليه في الهند ، إنا نذكر طرفاً من أعماله عبرة للمعتبرين ، إن (جيرت سنك) كان راجا على ممالك (جنبه) الواقعة في جنب (عنبر سر) من طرف (هملايا) فلما مات هذا الملك تولى إبنه (سرسينك) وهو ولده من الملكة ثم مات وتولى شقيقه (سوجت سنك) على طبق قانون الوثنيين فلما ذهب (نورث بروك) حاكماً في الهند قصد إلى تنفيذ حكمه في تلك الملكة واستملاك أراضيها حسب المألوف بين أمثاله من رجال حكومته ، فطلب من (سوجت سنك) أن يتنازل عن الملك لأخيه (كوبال سنك) وكان وليداً من جارية ولا يجوز في قوانين الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الأماء ما دام من أبناء الأحرار حتى ، فلما تمتنع (سوجت سنك) من التنازل اعتماداً على قانون بلاده ، أُنزل بحكم اللورد جبراً بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد (لكونها زوجة الملك) ونهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة والمخلفات القديمة (أنتيكات) التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة (فان عائلة الملك كانت من قدماء المائلات الملكية) ثم نصب بدله (كوبال سنك) وبعد مدة قصيرة عزل (كوبال سنك) ونصب ولده الصغير (سيام سنك) ليكون الأمر والنهي حساً ومعنى بيد أمراء الإنجليز ، وتحت تصرف الديوان الذي أقاموه من طرفهم . هذا مثال لما يطول عده من أعمال اللورد نورث بروك في الهند .

ثم أن (سوجت سنك) المخلوع ظن أن نورث بروك وحده هو الظالم ، وأنه لو رفع أمره للحكومة العليا في لندن يجد لديها عدلا ويصادف منها إنصافاً فجاء من مدة ست سنوات وعرض حاله على الحكومة فإذا القلوب متشابهة ، والنفوس متوافقة ، والآراء متألّبة على سلب الحقوق ، والغلو في العدوان ، وفي خلال هذه المدة أنفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه ، والمرافعة مع ظالمه . حتى أصبح صفر اليدين ، لا يملك قوت يومه ، ولا يجد له منصفاً ، هذا الملك السيء الحظ مع ما كان له من رفعة الشأن ، وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين ، من نحو ألف سنة تراه الآن يتعصّر من الجوع في بلاد أوروبا رث الثياب حقيراً ذليلاً ، هذا الذي احترمه اللورد نورث بروك الذي تريد حكومة إنجلترا أن ترمى به مصر وهذا هو الإصلاح الذي يقصد إجرأه فيها ، لكن رجاؤنا في المسلمين وأملنا في المصريين ، وقوة إيماننا بوعود الله ، وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية ، وتألّب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية ، واضطرار الدولة العثمانية للدفاع عن مصر ، كل هذا يشرنا بنجية هذا الغادر في قصده ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

نكته!!

عند ما كان الشيخ محمد عبده يحدث أرباب السياسة في لندن كان أغلبهم يقول له كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين ينتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها ، لكننا لا نحلها محل الاعتبار ، لما نعلم عن بعدهم عن الشعب المصرى الحقيقى ، أما أنت فلكونك عريقاً فى المصرية ، وعالماً من علماء المسلمين ، فنحب أن تبين أفكارك ، وما تعلمه من أحوال الأهالى المصريين ، وشئون أمرائهم واستعداداتهم ، وما يلبقون له ، وما يلبق بهم ، فإننا نرى ذلك منك حاكياً عن حقيقة الأمر فيهم ، وكاشفاً عن أفكار أهالى مصر عموماً ، وقد أشارت إلى هذا المعنى جريدة (البال مال جازيت) .

معارضة الانجليز

تنبهت أفكار الدول الأوروبية في هذه الأيام ، إلى ما عساه من إنبال الإنجليز في طمعهم ، وأن ظفرهم في أعمالهم الشرقية لما يخذ أنفاس أوروبا ، ويسد عليها أبواب التجارة ، ولونجح الإنجليز في سيرهم إلى ما يطمحون إليه ، لم يبق موضع قدم للتجارة الأوروبية ، فيضرب الفقر في غالب أقطار أوروبا التي قوام معيشتها التجارة ، وأن الدول لتعجز بعد هذا عن حاجتها . هذا فزع ألت بدايته بنفوس الدول من صيحة الطبيعة ، وزاد عليه ما خدش خواطرها من الإهانات المتتابة اللاحقة بها من غرور الإنجليز ، دولة أنجلترا هي التي تركت الدول تأتمر في الأسناتة ، واستبدت بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية ، هذه الدولة هي التي دعت الدول العظام إلى مؤتمر للمداولة في مسألة مصر ، معترفة بحقوقها فيها ، فلما لم تجبها الدول إلى مطلبها الباطل ، صرفت نوابهم . وانطلقت في أعمالها غير مبالية بهم ، وعزمت على إرسال (اللورد نورث بروك) ، (والجنرال ولسلي) ، في آن واحد إلى مصر .

هذا كله حرك خواطر الدول ، وصار من أعظم البواعث على اجتماع الأباطرة الثلاث في شهر سبتمبر كما أنبأت الجرائد ، وأكدت أن موضوع المداولة بينهم ، هذه المسألة المهمة : لهذه المسألة كانت مدينة وارزين دار ندوة سياسية ، وبها وجد البرنس بسمارك مجالا واسعا للسياسة ، تلاقي السكونت كالنوكي مع البرنس بسمارك ، وطالت مدة الاجتماع ولحق بهما مسيو دي جيرس وزير دولة روسيا ، وكان البحث فيما ألم بالدول بعد مؤتمر لندن ، ثم عقب ذلك سفر مسيو كورسيل سفير فرنسا في برلين

إلى وارزين لللاقة بسمارك (وإن أولت بعض الجرائد الإنجليزية حركة هذا السفير بمقصد آخر) . فهذه الزيارات المتتالية بين هؤلاء الوزراء العظام ، بعد خيبة المؤتمر تفتح للتمائل باباً واسعاً من الفكر ، وتشف عن أمور عظيمة سيكشفها الزمان عن قريب . هذا إلى الأمر الجديد الذى صدر من دولة ألمانيا وهو تعيين وزير فى سفارة مبعلة لدى شاه إيران ، وفى أعضاء سفارته ، بروكش باشا المشهور بعلم الخط المصرى القديم ، وهى أول مرة كان لهذه الدولة سفير عند الشاه ، ثم ذهب ميرزا خان سفيراً خصوصياً من الدولة الفارسية إلى الدولة الروسية ، ونيله غابة التبجيل والتكريم .

كل هذا ينبئنا أن فى كمين الغيب مصيبة كبرى ستقض على دولة الإنجليز . إن الأحقاد قد أخذت بقلوب الأمم الأوروبية وامتلات الأفئدة غيظاً حتى طفحت ، ولهذا لا ترى جريدة ألمانية أو نمساوية أو فرنسية أو روسية إلا وهى مشحونة بالظعن والتنديد ، والوعيد والتهديد ، والإنذار بسوء عاقبة حكومة الإنجليز ، ليس يبعد على عدل الله أن ينكس أعلام العاتين . الذين يعبثون فى الأرض مفسدين . ويسلبون ممالك العالم غيلة ، ويهضمون حقوق الأمم بغيّاً وعدواناً ، ويسيمونها عذاب الرق والعبودية عتواً واستكباراً ، أظلم جو السياسة على سابلة الإنجليز ، وزارت عليهم ضارية الويل من كل جانب ، ولهم فى هذه الأحوال حركة الخابط ، إما سترأ لضعفهم ، أو غروراً ببأسهم ، ويتعلقون بحبال الوسائل لامتلاك مصر والسودان ، اللورد نورث بروك وسميع الله خان ، الدهرى يذهبان إلى مصر لتأليف القلوب ، وجميع الخواطر على ولاء الحكومة الإنجليزية ، وأن ولسلى بعد ما نال من حسن الصيت بصرف الدنانير فى التل الكبير . عزم على أن يفتح فتحاً آخر بمثل تلك الوسيلة ، ولكننا لا نظن فى السودان مثل شهيد الحياة وأبى سلطان باشا اضرا به ، وهذا من جهة أخرى يسعون لإجبار الحكومة المصرية على إعلان الإفلاس وإشهار المعجز عن القيام بنفقات الحكومة . ليجدوا فى ذلك وسيلة لتقرير حمايتهم على القطر المصرى ،

وتخفيض فائدة الدين والاستبداد بشئون المملكة . أنهم نالوا في الحرب المصرية من الدولة العثمانية فرمانا سلطانياً بعصيان عرابي ، فحقنوا به دماء رجالهم ، وصانوا كثيراً من أموالهم ، واليوم يسمى اللورد دوفرين بمواعيده العرقوبية ، وإيماناته الكاذبة عند الباب العالي ليحمله على إرسال عشر مدرعات إلى الإسكندرية ، وسوق جيش إلى سواحل البحر الأحمر ليكون هذا بدل الفرمان بعصيان محمد أحمد ، ويفوز الإنجليز بالتسلط على مصر والسودان ، ويخلفون وهم الكاذبون ، إنهم لا يمسون حقوق السلطان (هل أبقوا حقوقاً ؟) حتى إذا ثبتت أقدامهم تحت ظل العلم العثماني ، قلبوا للعثمانيين ظهر المجن وأجابوهم بهز الرؤوس وكثرة الأنياب ، ولا نظن أن الدولة العثمانية تغتر بوعود الإنجليز مرة ثانية ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وقد جربت منهم حلاوة الوعد ، وذائق في أخلافه مضاضات الإهانة ، ومرارات التحقير .

نعم هذا وقت يتسنى للدولة العثمانية أن تتفق مع سائر الدول لصون مصالحها ، ولا يخطر ببال عثمانى أن ينال خيراً بالاتفاق مع الإنجليز ، إن حكومة بريطانيا ما عاهدت عهداً إلا ونقضته ، بعد ما جنت ثمرته ، فربحها في اليهود خاص بها ، لا يشركها فيه غيرها ، لم يخف على الدولة العثمانية أن الإنجليز تصرفوا في الأراضي المصرية تصرف المالكين بلا مشورتها ، وهبوا قسماً عظيماً من السودان الشرقي للحبشة وأثاروا حرباً صليبية بين الحبشيين ومسلمي السودان ، نزعوا إلى الاستيلاء على زيلع وهرر وبربر ، هل كان شيء من هذا ياذن الباب العالي ، فعلى أى وجه تشق الدولة بالإنجلترا ، بعد ما جربت من غدرها ما جربت ورأت من عدوانها ما رأت ، لو تساهلت الدولة مع الإنجليز في مسألة مصر فسنسمع عن قريب بأمور في الحجاز وسوريا واليمن وبغداد وكلها من دسائس الإنجليز ، أما لو أقدم العثمانيون بعزيمة ثابتة وأقبلوا على شأنهم في مصر ، مع هيجان الأفغانيين وانفراد إنجلترا عن سائر الدول ،

لوجدوا لهم أنصاراً من جميع المسلمين في الشرق ، ومن المصريين والسودانيين ، ولأرغموا الانجليز ، واسترجعوا ما فقدوه من السكينة أيام حرب روسيا ، ولأعادوا عزهم الأولى . هكذا ينبغي أن يساق الجيش العثماني لخدمة الانجليز لخدمتهم فان لم تفعل الدولة العثمانية ، فعلى الدنيا العفا وعلى الاسلام السلام !!

وليعلم المصريون من الفلاحين والعرب أن الانجليز لا يقصدون إلا استعبادهم واستخدامهم كما يستخدم الأرقاء وأول نير للذل يوضع على أعناق أمرائهم ، فعليهم ألا يكونوا آلة في تمكين العدو من رقابهم ، وأن لا يكون بعضهم فخا لصيد باقيهم ، لعمر الله إنا لفي عجب من الذين يحفظون القلاع في السودان ، ومن المصريين الذين يرحفون لمقاتلة السودانيين ، هل يعلمون أي أمة يخدمون ، بلى إن حامية كسلا حافظت عليها حتى تسلمها للحبشة ، وأن حماة القلاع في السودان يحفظونها حتى يسلموها لقواد الانجليز إن استطاعوا ، نعم كنا نحب أن نرى هذه الشهامة من العساكر المصرية ، لكن إذا لم يكونوا في تصرف دولة أجنبية أما اليوم فثباتهم هو العار بعينه ، والله لا أظن شخصاً في قلبه ذرة من الايمان تسمح له نفسه بهذا العمل ، فان لم يسعوا في إخراج عدوهم من ديارهم ، والظن بهم أن يسعوا . فلا أقل أن يكفوا عن مساعدته في تملكها . ألا يعلم المصريون أن حركة خفيفة منهم في معارضة الانجليز في هذا الوقت تجلب تدخل الدول وتكون سبباً لانقازهم من هذا العدو الذي لا يكتفي بأكل لحومهم حتى يهشم من عظامهم فليعلموا ذلك وليعملوا ، والله لا يضيع أجر العاملين .

الدهريون في الهند

دخل الإنجليز بلاد الهند ولعبوا بعقول أمراءها وملوكها على نحو يضحك العقلاء ويبيكهم ، وكانوا يوغلون في أحشاء الهند ويتخطفون أراضيها بعد قطعة ، وكلما سادوا في أرض أدلوا على سكانها وأظهروا الضجر والسآمة من الإقامة بينهم قائلين أن الإنجليز لا يشتغلون إلا بالأعمال التجارية ، أما مقارفة الإدارة والسياسة فليست من شئونهم وإنما يدعوهم إلى احتمال أنقالتها الشفقة على الملوك والأمراء العاجزين عن سياسة ممالكهم ، ومتى قدر الأمير أو الملك على ضبط بلاده فلا يبقى إنجليزى فيها لأن لهم أشغالا مهمة أخرى تركوها لمحض الرحمة . وبهذا سلب الإنجليز كل مالك ملكه بحجة أن العمل في الملك ثقيل على النفس متعب للفكر والبدن فالأولى لصاحب الملك أن يستريح وأن يموت فقيراً ذليلاً تخلصاً من عناء التدبير وينادون بأنه متى سنحت الفرصة وجاء الوقت الذى لا يكون للأعمال المعاشية ولا المعادية تأثير على الأبدار سولا على الأفكار فانهم مستعدون لترك البلاد (يوم الحشر) ، واليوم يقولون نفس هذا الكلام بعينه في مصر !!

* * *

ولما استقرت أقدامهم في الهند وألقوا به عصاهم ومحيث آثار السلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليوناً من المسلمين ، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم ، وما دام القرآن يتلى بينهم . فحال أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبي عنهم ،

خصوصاً إن كان ذلك الأجنبي خطف الملك منهم بالحديعة والمكر تحت ستار المحبة والصداقة . فطفقوا يتشبهون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامى ، وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كتب الكتب ونشر الرسائل محشوة بالطمع فى الديانة الإسلامية ، مفعمة بالشم والسباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع ، ما تنفر منه الطباع ، ولا يمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب ، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبي ذلك الأثك العظيم ، وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين ، وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز ، هذا من جهة ، ومن جهة أخذوا فى تضيق سبل المعيشة على المسلمين ، وتشديد الوطأة عليهم ، والإضرار بهم ، من كل وجه ، فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة ، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس ، ونفوا علماءهم وعظماهم إلى جزائر (أندومان) و (فلفلان) رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى فى رد المسلمين عن دينهم ، بإسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم ، حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم ، فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى ، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية ، نزعوا إلى تدير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند أو إضعافه ، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المتهوب : والحق المسلوب ، فاتفق أن رجلا اسمه أحمد خان بهادور (لقب تعظيم فى الهند) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم ، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات نخلع دينه والتدين بالمذهب الإنجليزى ، وبدأ سيره بكناية كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم ، ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول إني نصرانى وأن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجراً جزيلا ، خصوصاً وقد آتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصاً معدودة فأخذ طريقاً آخر فى خدمة حكامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم .

فظهر الطبيعيين (الدهريين) ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء وليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا الضلال المبين) وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالآله الذي جاءت به الشرائع (نعوذ بالله) ولقب نفسه بالنيجري (الطبيعى) وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين فال إليه أشخاص منهم ، تملصاً من قيود الشرع الشريف ، وسعيًا وراء الشهوات البهيمية ، فراق لحكام الانجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين ، فأخذوا في تعزيره وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة في (على كده) وسموها مدرسة المحمدين ، لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادور) . وكتب أحمد خان تفسيراً على القرآن فحرف الكلم عن مواضعه ، وبدل ما أنزل الله ، وأنشأ جريدة باسم تهذيب الأخلاق لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين ، ويوقع الشقاق بينهم ، ويلقى العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم ، خصوصاً بينهم وبين العثمانيين ، وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى الطبيعة !! الطبيعة !! ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت في المدنية ، وما ارتقت في العلم والصناعة ، وما فاقت في القوة والافتتادار إلا برفض الأديان ، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه) وهو بيان مسالك الطبيعة (قد افترى على الله كذباً) . ولما كنا في الهند أحسننا من بعض ضعفاء العقول اغتراراً بترهات هذا الرجل وتلامذته فكتبنا رسالة في بيان مذهبهم الفاسد وما ينشأ عنه من المفاسد وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران وطبعت رسالتنا في اللغتين الهندية والفارسية . إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين وطلباً لتفريق كلمتهم وزادوا على زيغهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين ، وكتبوا عدة كتب في معارضة الخلافة الإسلامية ، هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين في أوروبا ، فإن من ترك الدين في البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب ، ويبدل في ترقيتها

والمدافة عنها نفائس أمواله ، ويفدى مصلحتها بروحه ، أما أحمد خان وأصحابه
فإنهم كما يدعون الناس لنبد الدين يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على
النفوس تحكّم الأجنبي فيها ويجهدون في محو آثار الفيرة الدينية والجنسية وينقبون
على المصالح الوطنية التي ربما غفل الانجليز عن سلبها لينهبوا الحكومة عليها
فلا تدعها . يفعلون هذا ، لا لأجر جزيل ، ولا شرف رفيع ، ولكن لعيش دنيء
ونفع زهيد . (هكذا يمتاز دهرى الشرق عن دهرى الغرب بالخسة والدناءة بعد
الكفر والزندقة) .

أحسن الانجليز إلى أحمد خان بتوظيف ولده مولوى محمود عضواً في مجلس
قرية من قرى الهند لا تزيد عن (شبراخيت) في مديرية البحيرة ، ومن حباثته لصيد
الضعفاء من المسلمين ، أنه يعدمهم ويمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم في وظائف الحكومة
بما له من الجاه عند جائرة الانجليز . وحكومة الانجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة
أعضاء في مجالس القرى ولا يوجد وطنى هندي في مثل هذه الوظائف سواهم . هذا
هو المجد الذي ناله أحمد خان ثمناً لدينه ووطنه ، فهو كما قال صديق نواب حسن خان
ملك بهوبال صاحب التصانيف المشهورة أن (أحمد خان) دجال آخر الزمان ، نعم
ساعده حكام الانجليز على استخدام بعض من يقدمهم ، لكن لا في الحكومة الانجليزية
الهندية ولا على الخزينة الانجليزية وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقين على صورة
استقلالهم أن يوظفهم في بعض الوظائف الدانية .

راق هذا الشرب في أعين الحكام الانجليز وابتهجوا به وظنوه موصلاً
إلى غايتهم من محو الدين الاسلامى من البلاد الهندية ، هؤلاء الدهريين صاروا
جيشاً للحكومة الانجليزية في الهند يسلون سيوفهم لقطع رقاب المسلمين ، لكن مع

مع البكاء عليهم والصياح بهم ، إنا لا تقتلكم إلا شفقة عليكم ورحمة بكم وطلباً لإصلاحكم ورفاهة عيشتكم ورأى الإنجليز أن هذه أقرب الوسائل لنيل القصود من ضعف الإسلام والمسلمين .

كان التلميذ الأرشد لأحمد خان والوزير الأول والمدير له في جميع شؤونه وجلا إسمه سميع الله خان .

سميع الله خان هو أعظم الدهريين دهاء ، وأشدّهم اجتهاداً في تضليل المسلمين ، وأدقهم حيلة وأقوام مكرراً في إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين ، ويمكن الحكومة الإنجليزية في أرض الهند ، يقوم هذا الخادع خطيباً في محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه ، ويأتى بغاية ما عنده من الفصاحة لهدم أركان الديانة الإسلامية ، وإبطال عقائدها الأصلية ، ويتجراً على حضرة الالهوية ، ويطن في الرسالة وصاحبها ، كل ذلك وهو ينتحب كأنما يرى الدين وأهله .

إذا دخل في بلد من بلدان لأداء هذه الخدمة واظب أياماً على دخول المساجد ، وحضور المحافل الدينية ، واستدرج الناس بعذب الكلام ، ولطف الوعد ، وجنبهم إليه من حيث لا يشعرون ، فإذا اجتمع عليه بعض من الناس اغتراراً بطلاوة ظاهره بدأ في دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين) .

هذا العدو المبين للإسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه ، وظيفة قاض (في الشريعة الإنجليزية) في بلدة (أكره) وهي بلدة لا تزيد عن دسوق في مديرية الغربية ، قالت جريدة التايمس بعد ما مدحت سميع الله خان بكل ما يمدح به أن هذه الوظيفة (قاض في بلد صغير) هي أعلى وظيفة بناها هندي وطني (أيجتاج لاثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا) .

نورث برك اللورد الإنجليزى الذى أشرنا إلى طرف من تازيحه فى الهند فى العدد الماضى ، عرف سميع الله خان حق المعرفة عند ما كان حكامداراً فى الهند. ووقف على أنه أصدق الناس فى خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائها . ولهذا طلبه ذلك اللورد ليكون كاتم سره فى مصر ليستعمله فى تنفير المصريين من الدولة العثمانية ، وفى إقناع المصريين بأن حكومة إنجلترا تريد بهم خيراً ، ويستخدمه فى استمالة قلوب العلماء لأنه واحد منهم (على دعواه) وقد يكون من نيته أن يدخل الجوامع ويمظ ويخطب ويروى عن عدل الإنجليز ما لا صحة له وما تكذبه الشاهدة ، ولكن رجائنا فى نباهة المصريين وصدق عقائدهم الدينية وشدة ارتباطهم بالدولة العثمانية أن لا ينخدعوا لهذا الراكس الهندى (الراكس بلسان السنسكريت الشيطان المريد) لا نجح الله له مقصداً ولا أناله مبتغى .



جريدة الأهرام

اشتد غضب نوبار باشا على جريدة الأهرام فأصدر أمره بتعطيلها شهراً وقفل مطبعتها . وقيل في السبب أنها نشرت رسائل مدير الجريدة وهو في لندن على ما فيها من بيان بعض مساوئ السياسة الانجليزية على خلاف رغبة سعادة الباشا !! وقيل إن السبب نشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الصحيفة «استقباح سياسة الانجليز» ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه السائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة ، فالسبب الحقيقي هو أن النهج السقيم الذي سلكته «الأهرام» دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشریف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة وكال الفيرة . نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه في العدد السابق ونشرته بعدنا جريدة (الديبا) وسائر الجرائد الإنجليزية وهو أن يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة وإطلاقاً في الأمر والنهي . وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الانجليزية على تملك مصر وهي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر ، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت لا فلا ، أو قلت نعم فنعم فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه . فلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الانجليز من مصر من حيث لا يشعر بتقديم هذه الخدمة لهم يبي لنفسه من العزة قصرأ شاهقاً .

فكيف يطيب لنوبار باشا مع هذا السعى أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وسنى الوطنية وعلو الهمة . ربما الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل مايبيته . إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين ، ونوبار باشا أبعد ، الناس عنهما لهذا أغضبه ذكرهما . كلما ذكر لفظ الوطن أو اللمة أو الجنس أو الأمة سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص ، حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكما عليه واستهزاء به . ولا عجب من نوبار باشا إن ظن ماظن أو فعل ما فعل ، فالرجل ليس بمصرى ولا عربى ولا مسلم فاذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابع لاخسر ملة ولا وطنيا ولا جنسا .

وقيل أن نوبار باشا يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذى شهامة أو فكر في مصر مثل ما طلب للزبير وتكون الحكومة النوبرية حكومة هندية وهل يبعد مثل هذا على من يسعى لخلع الخديوى !! إن الذى يؤيد ما روى لنا في سبب تعطيل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه ، وإلا فإن كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين فيها فذلك ينذرنا بقل الأزهر بأمر نوبار باشا !

إنى أتعجب وكل ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين . ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدرة ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصفة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ويرفع الحجاب عن واجبات الملية لا حول ولا قوة إلا بالله .

إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في الذل ، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية ، ويتجرعون مرارات سكرات الموت ، في كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار نبي الإنسان !!

لاهور

جاءتنا رسالة من لاهور باللغة الهندية (ورجاؤنا أن تكون المكتوبة فيما بعد باللغة الفارسية) فرأينا أن ننشر ملخصها . قال الكاتب :

إنا نسمع صاحب جريدة (أخبار عام) اللاهورية ينادى من صميم قلبه بأن الانجليز سلاطينا ، خصوصاً عند كلامه في الانتقاد على العروة الوثقى ، ومن غريب كلامه قوله أن غرض العروة أن تقسم رابطة الاتحاد بين الرعايا الهنديين وسلاطينهم الانجليز . ولا يخجل من قوله أن سلاطيننا الانجليز هم الذين زينوا الهند بإصلاح طرقه ومد السكك الحديدية في أنحائه ووصل أرجائه بأسلاك التلغراف . كأنما الانجليز من سلالة بكر (ماجيت) أو من جنس (الجهترى) أو من أحفاد (أكبر شاه الهندى) وإذا سمع سامع صوت هذه الجريدة على بعد يظن أن هذه الأعمال التي زينوا بها الهند (على رأى الجريدة) ما قام بها الانجليز إلا لمنفعة الهنديين ويتوهم أن الهنديين جنوا من ثمرتها شيئاً وأن ضجرهم من سلطة الانجليز وزوعهم إلى التملص منها إنما هو من كفران النعمة ، يا عجبا من هذا البانديت اللاهورى أنه يرى فقر أبناء وطنه ومسكنتهم ويشهد بعينه أنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، وأن أسعد الناس منهم من يحصل عشر روبيات في الشهر بعد أن يبلغ درجة عالية من السكال ومن مجلتهم نفس صاحب الجريدة . فكيف يطيل لسانه بشكر هذه الحكومة ويضع على ظهور الهنديين حملا ثقيلا من المنة لد سكك الحديد وخطوط التلغراف . إن كانت حكومة الانجليز تسوس الهند بالعدل فأين ذهبت ثروة أهاليه مع خصب الأرض ووفرة الثمرات ولأى سبب ابتلى الناس بالفقر حتى لا يجدوا قوتاً .

إن الجرائد الانجليزية في الهند تنذر حكومتها بأنه لو استمرت

الإدارة الهندية على حالها هذا فلا يمضي عشر سنوات إلا وتكون فتنة عمومية تأخذ بجميع أطراف الهند ويكون منشؤها الجوع . فإذا أنشأت الحكومة الإنجليزية سكك الحديد لنقل بضائعها وترويج تجارتها وحمل العساكر لقتل أبناء البلاد وليس عند الهنود الآن ما يباع ويشترى حتى يستفيدوا من سهولة نقله ، فلأى شيء تكون المنة على الهنود !!! وإذا مدت خطوط التلغراف لاستطلاع ما يجري في ممالكها وتسهيل المخاربة بين رجالها ، فأى منفعة في هذا توجب مسرة الهنود .

* * *

إن رجال الإنجليز بعد ما دخلوا البلاد على هيئة تجار وكانوا يخضعون للصغير والكبير أزيد من قرن ، بلغ من أمرهم الآن أن لا يمدوا الهنود من فصيلة البشر . إذا أراد حكام الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة هيئوا مكاناً علياً يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع لتوضع عليه كراسى سادة الإنجليز ويجلس الهنود في منخفض من الأرض إظهاراً للامتياز مع أنهم ما جمعهم إلا لسلخ ما بقى من جلودهم وامتصاص ثمة دمائهم . أى أمة متوحشة أو متمدنة تعامل أمة أخرى بهذه المعاملة ، احلف بالله أن جنس الهندو (قوم برها) حين ما قدموا من إيران وفتحوا الهند ما عاملوا السكنة القدماء بهذه المعاملة مع أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم سماويين وما أذلوا جنس (الباريا) بهذه الدرجة مع أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الآلهة . قبلوا جنس (التلنكان) في مصافهم وأشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوباً لهم ، فتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنيين كعاملتهم لبنى ملتهم وما حرمهم من الوظائف السامية ، وما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا كان له من الوثنيين عمال ووزراء ، كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الأخوة حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق في بنجاب وأطراف مدراس . يزعم الإنجليز أن المسلمين أولوا تعصب ديني يجور بهم عن العدل مع إنا نرى إلى الآن في الهند حكومات صغيرة يحكمهم راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثني وزيراً مسلماً وعمالاً مسلمين وللنواب المسلم وزيراً وثنياً وعمالاً وثنيين وهكذا السنيون مع الشيعة والشيعة مع أهل السنة ولا نرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالإنجليز رجالاً هندياً في

وظيفة شريفة . إن هذا البانديت (صاحب أخبار عام) لا ينجل من قوله أن الإنجليز سلاطينا ، أى سلطان يستكشف من شرف رعيته ويعدهم فى عداد البهائم !!

إن اللورد ريبون لما صار حاكماً على الهند ورأى أن الروسية وصلت إلى مرو وأحس بنفرة الهنود من الحكومة الانجليزية واستعدادهم للثورة أراد أن يطيب قلوبهم بأمر حقير يسخر منه الأبله فضلاً عن الحكيم وهو توظيف (رام جندر متر) ومولوى محمود بن أحمد خان فى وظيفة القضاء ببلدة صغيرة وهما ممن تعلم الشريعة الانجليزية فى بلاد الانجليز (انظر كيف يطيب قلب أمة عظيمة مجروحة الأفئدة ساقطة فى جحيم الشقاء بمثل هذه المنحة المضحكة) وهذا الالتفات من اللورد لكمال سياسته وحذقه ، فإذا يكون موقع الهنود من نظره إذا كان يظن أن الأمم العظيمة المحترفة بنيران الظلم من أزمان تعترف بعدالة الانجليز لمجرد توظيف شخصين فى وظيفة صغيرة .

إن هذا مما عده اللورد الانجليزى أمراً لازماً لصون سياسته مما عساه يطرأ عليها ومع ذلك قام الانجليز فى الهند ورفعوا شكواهم إلى لندن من تصرف اللورد ولا يزالون يرفعون ويقولون كيف يجلس (كالا) أى الهندى الأسود على منصة القضاء وربما يأتى وقت تقام فيه الدعوى بين يديه على انجليزى فيصدر الحكم منه عليه (كيف يصدر الحكم من هندى على انجليزى) ، فليعتبر من يعتبر ، إن الانجليز لا تسمح نفوسهم أن يعترفوا بانسانية الهندى ولو للضرورة ، أيجب البانديت اللاهورى أن يلقى غشاوة الغش على عينيه وأعين إخوانه ويفترى الكذب بقوله أن بين الهنديين وحكومتهم نوعاً من الالتئام ، وهل مثل هذه الحكومة يلتئم معها ذو إحساس ، إن البنديت يقول فى جريدته وفى أثناء انتقاده على العروة أن سلاطة الأمراء وأبناء العائلة التيمورية (ملوك الهند) عراة فى الأسواق يتضورون جوعاً ولا يجدون خصاً يأوون إليه ، فإن كان هذا حال الأمراء باعتراقه فكيف يكون حال سواهم وكيف طوعت له نفسه أن ينطق بكلمة تستعير بالرضا عن حكومة الانجليز . إنه يتملق للحكام ولكن لا أظنه ينال على التملق أكثر من عشر روبيات فى الشهر

فليس له أن يتعبد لسانه ويجهد نفسه مجانا . لا ينكر البانديت أن الانجليز إذا خاطبوا
هنديا لا يكلمونه إلا بالعصا وإذا اعتدى انجليزى على هندی فقتله حكم أطباء الانجليز
بأن القتل مات بالسل المزمن أو داء الكبد أو بمرض عياء ورثه عن آباءه كيلا يقاص
انجليزى بدم هندی ، فيذهب دم الهندي هدرآ . إن ظلم الانجليز وجورهم يظهر
لكل قارىء من تلك الورقة الصغيرة (أخبار عام) . وإني أقول بلسان كل هندی
وثنيا أو مسلما سنيا أو شيعيا أن البانديت لا يمكنه بورقته هذه أن يقطب جروح
الهنديين ولا أن يطفى لهيب أحشائهم مما يروونه كل يوم من سلب الأملاك وإهانة
الأديان وتضييع الحقوق وحرمان الأهالي من خدمة أوطانهم وليس في طاقة قلمه أن
يرفع شيئا من الواقع ولا أن يحدث خاطر محبة الإنجليز في قلب هندی إلا من خربت
ذمته ومرق من عهود دينه ووطنه ، وإن البانديت يعرف هذا ولكنه يسمى لعله
يحصل شيئا زهيدا ويقنع به بعضا منا وكثيرا من الشرقيين صارت حوصلتهم
كحوصلة العصفور يملؤها حبتان من الحنطة !! وسنكتب إليكم عن تفصيل
الأعمال الانجليزية عندنا إن شاء الله . اهـ

الانجليز والدول

ما للحكومة المصرية لاهية عن شأنها ، ماذا تبتغى من سكانها وميلها مع ربح الحكومة الإنجليزية ، ماذا تنتظر الدولة العثمانية بعد انحلال المؤتمر على غير طائل . أتظن الحكومة المصرية أن خضوعها لأوامر بريطانيا ، واهتمامها بخدمة عساكرها الزاحفة إلى السودان ، مما يوجب الخجل للحكومة الإنجليزية ، فتستحي بعد ذلك أن تكفر نعمة الصداقة وترعى سابقة الخدمة ، فتترك مصر نقية الراحة ، بريئة الذمة ، وتمكن الأمر للحكومة المصرية ، وتشيد الخديوية لتوفيق باشا . إن خطر هذا الوهم بيال الحكام في مصر فقد خرفوا فليس يحوم مثل هذا الهاجس في فكر إلا وقد مسه الخبل ، ولا يختلج في صدر حتى يختم عليه بطابع العمى .

حكومة بريطانيا انتحلت لنفسها أسباباً للدخول في وادي النيل ، وأنشأت له عللاً فغايتها من كل أعمالها أن تكون لها سلطة ممتازة فيه سواء تأيد توفيق باشا أو تأود ، ولما أحس رجالها أن بحث المؤتمر ربما ينجر إلى ما يمس غايتهم هذه تملصوا منه واستبدوا بأعمالهم وأخذوا على أنفسهم تسكين عاصفة الثورة السودانية . فان تم لهم ما أرادوا واستقلوا بالعمل في السودان فهل يرجى منهم أن يخلوا مصر بعدما فتحوها من ورائها ما فتحوها . إن هذا إلا خيال باطل . هل تهورت إنجلترا وأغاضت جميع الدول العظام وهيأت نفسها خطر تألبهم عليها جباراً في توفيق باشا ورغبة في حفظ مسنده . هذا مما لا يعقل . ربما تكون الدول العثمانية والحكومة المصرية في رجاء

أن الدول الأوروبية يستفزها الغضب فتندفع بقواها على دولة الإنجليز فتكبلها في سياستها وتلجئها للجلاء عن مصر فتتركها لأهلها وكفى الله المؤمنين القتال ، إن كان ذلك سبب الفتور فهو ثقة في غير محلها ونوع من الطمع غريب . قد يكون اتفاق الدول على معاكسة الإنجليز متعلقاً بجهات أخرى ولا يكون إخلاء مصر من مواضيع الاتفاق كما أشار إليه كثير من الجرائد حيث ذكرت أن من المقاصد التي يجتمع لها القياصرة الثلاث كف روسيا عن مطامعها في أوروبا وإطلاق العنان لها في آسيا والأقطار الهندية . أليس من الممكن أن مناوأة الدول للإنجليز تنتهى بسلب جزء أو أجزاء من أراضي المسلمين في مقابلة تمكن الإنجليز في أرض مصر .

نهت بعض الجرائد المهمة على شيء من هذا وصرحت بما لا ينطق اللسان بذكره . أن للدول اهتماماً بنكاية الإنجليز ومن أعظم البواعث على اجتماع القياصرة خروج إنجلترا عن حدها في الاستئثار بالمنفعة على غيرها لكن أليس من الواجب على صاحب البيت أن يبدأ بعمل في الذود عن بيته قبل أن يساعده الجيران خصوصاً إن كان للجيران أطماع متنوعة بعضها يمنع عن المساعدة وبعضها يحمل على التواني وتأجيل العمل لأوقات أخرى وما يدرينا لو حولنا الأمر إلى الجار لينقذ المفسوب من يد الغاصب لعله بعد استخلاصه يختص به نفسه فما الذي جنيناه من ثمار مساعيه وأية فائدة حصلناها . لو شحت الحكومة المصرية بجياتها ، وأبصرت أن بقاءها في إياها ، وترفعت عن هذا الخضوع البارد ، وتجاقت عن تسهيل الطرق ، وتمهيد السبل ، لمسير العساكر الإنجليزية ، ثم قامت الدولة العثمانية على المطالبة بحقوقها ، وذهبت في الطلب مذهب العمل ، ولم تكنف بلوائح نسطر ، وحجج تنشر ، ولم تستند على سفرائها الذين ليس لهم خوض حقيق إلا في ملاذم وشهواتهم ، لو كان كل هذا

لشاركت الدولة العثمانية ومعها حكومة مصر سائر الدول في معاكسة إنجلترا ،
وحيث أن للدولة العثمانية والحكومة المصرية الحق الأول والملكية الشرعية في تلك
الأقطار فما يكون منهما من الأعمال يكسبهما تخليص البلاد ، فإن الدول تكون
في عونهما ولا حق لواحدة منها فيما بعد أن تستأثر عليهما .

إن إقدام الدولة على العمل وعدول الحكومة المصرية عن مسلكها المضربها
مما يقرب السافة ويقصر المدة ويقوى حجة الدول في مطاردة إنجلترا — لو تساهلت
الدولة العثمانية واطمأنت الحكومة المصرية لحالتها الحاضرة فبأى وجه تؤمل
الحكومتان نفعاً من معارضة الدول ، على فرض لو استخلصت مصر من أيدي الإنجليز ،
ماذا يبعث الدول على مقارعة دولة عظيمة كدولة بريطانيا لتسلبها ملكاً عظيماً
ثم تسلمه للدولة العثمانية أو الحكومة المصرية . لا نتحاشى أن نقول أن الدولة العثمانية
والحكومة المصرية واقعتان بين خطرين عظيمين . إن فاز الإنجليز في السودان فقد
ضاع القطر المصري ، واستقرت فيه السلطة لحكومة إنجلترا سواء عارضت الدول أم لم
تعارض ، وضياح القطر المصري هو ضياح الكل كما أشرنا إليه مراراً وكما يشهد به
موقع البلاد المصرية من سائر بلاد المسلمين ، وإن خاب الإنجليز في منازلة الثائرين
فليس يخفى على عقل عاقل ما يترتب على هذه الخيبة وما ينشأ عن غلبة محمد أحمد وأتباعه
وانهزام العساكر الإنجليزية . وربما كان هذا الأمر الثانى سبباً لمداخلات أجنبية
في جميع أقطارنا .

ليس من الصعب على الدولة العثمانية ولا على الحكومة المصرية أن تظهر
شيئاً من الشدة ، وتأخذاً بجانب من القوة ، وتقفا على قدم الثبات ودولة إنجلترا
في تحبط مع الدول وارتباط بالسودان ، والمسلمون من جميع الأقطار في هياج شديد ،
لواقمتا بما يسهل عليهما لحفظ لهما الوجود ورد المفقود ، وسدت أبواب المطامع ،
وأخذت الدولة العثمانية مكاناً من القوة تخشع له قلوب الجبارين ، ولازدادت بذلك

ثقة المسلمين وانبعثت آمالهم . سلكت جريدتنا مذهب الصدق في بيان حال الإنجليز مع الدولة العثمانية ، وأثبتت عن بصيرة وكال خبرة أن الإنجليز يهابون منافرة الدولة ويخشون سوء مغبتها . جريدتنا تنادى بذلك من يوم صدورها بينا أن للدولة سلطة معنوية في الهند لم تبلغها حكومة الإنجليز بعد إفراغ جهدها . هذه حقيقة الأمر ومع ذلك لا ندرى سر هذه السياسة اللينة التي لا نرى لها أثراً إلا في الأوراق وتحت أسنة الأقلام والإنجليز يقاتلون ويتملكون وتزداد أقدامهم رسوخاً يوماً بعد يوم وانطلق بهم النوى إلى أن أفأطالوا أيديهم إلى الأوقاف المصرية يطلبون التصرف في خزينتها والقيام على إدارتها ، نعيد الكلام مرة أخرى ونقول أن جميع المسلمين في الأقطار الهندية وما يتاخها قأمون على قدم وساق مهيشون لمواثبة أعدائهم وسالبي حقوقهم فبثبات ما من الدولة العثمانية يظهر له أثر عظيم يضطر الحكومة الإنجليزية إلى ترك مصر ، ليس للدولة أن تضيع هذه الفرصة فقلما يأتي الزمان بمثلها ، الدول متألبة على الإنجليز وروسيا مشرفة على الهند ، والهنديون في هياج ، وخطب السودان غير يسير ، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز في هذا الوقت ، فمتى ؟ !

تعظيم توفيق باشا لنورث بروك!

ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورث بروك إليها وتمت المقابلة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رسالة من اللورد جرانفيل يخوله فيها (نورث بروك) وكيلا للحكومة الإنجليزية في القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعد في حل المشاكل الحالية خصوصاً المالية . فأظهر توفيق باشا غاية السرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكال الرضى بجميع مطالبه اه .

ويظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد نورث بروك ، وإن لم يكن بينه وبينه معرفة شخصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمل في بلاده ، هذا يمكن ، وليت شعري ماذا يجنى هذا الخديوى الشاب من مرضاة هذا الخادع ، وماذا يصيبه من سهام حيله . ولقد بينا في بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفاً من أعماله في الهند ونذكر الآن عملاً آخر منها — طلب وهو حاكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية في مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسمة تتاخم (لاهور) و (بتيالة) فادعى على مهرابها (ملكها) أنه مجنون وهو في رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه في (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسم وكان هذا الملك المخلوع ابن (راندهير سنك) ونصب بدله ولداً صغيراً من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول في حوزة الحكومة الإنجليزية .

وكانت الحكومة الإنجليزية قد تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد فكان أولئك الساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها ، فلما جاء اللورد نورث بروك حاكماً في الهند رآها كثيرة عليهم فترعها من أيديهم وحرّمهم من هذه المنفعة الزهيدة . هذا هو اللورد الذي طلب سميع الله خان الدهرى ليكون معيناً له في مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز وهو الذي أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا في أراضي الدولة العثمانية أيام الحرب المصرية كما أخبرنا الثقة الصادق من لندن ولكن العرب قتلوا رسوله هذا وشنق به أشخاص في مصر بلا جرم . هذا اللورد هو الذي يتهيج توفيق باشا بقدمه !! صان الله الأراضي المصرية المقدسة من شر هذا المحتال ومن شر صاحبه سميع الله خان الدهرى .



فرنسا وألمانيا

جزمت جريدة (نوفيل بريس ليبر) أن الباعث على سفر البارون كورسل (سفير فرنسا في برلين) إلى وارزين هو أهم حدث سياسى ، وفى ظلها أن الحديث بينه وبين البرنس بسمارك انتقل إلى موضوع الحرب الصينية ومسألة الكونجو . قالت الجريدة : أن بسمارك قد غير منهجه السياسى الذى سلكه من سنة ١٨٧٠ . كان مضطراً لإبعاد فرنسا عن سائر الدول واليوم وجه عزمته لإبعاد إنجلترا . ولما اجتمع الأباطرة الثلاث فى سنة ١٨٧٣ اضطربت خواطر الفرنسيين وكان كل منهم يتحدث نفسه هل ينتظر اتفاق بين الأباطرة على مناوأة الجمهورية . أما إذا اجتمعوا فى هذا العام فلا يخالط الريب قلب فرنساوى بل تكون النفوس ساكنة مطمئنة . ولا يوجد فى دولة أوربية ما يوجب حدوث قلق فى باريس بأى وجه كان ، بل يوجد ما يثبت الطمأنينة فإن من نية البرنس (بسمارك) فى وارزين أن يقرب فرنسا إلى سائر الدول البرية ، وأن زيارة البارون كورسل للبرنس تمداً كبير شاهد على ما نقول .

كيد الانجليز في مصر

أرسل الإنجليز مراكبهم إلى ثغر الأسكندرية سنة ١٨٨٢ بلا سبب أو قصد تهيج الخواطر الساكنة ، ثم أطلقوا نيران مدافعهم على ذلك الثغر فكان عملهم الأول والثاني سبباً في خسارات جسيمة نكب بها سكان البلاد ثم كان الضمان عليهم . هذا ، إما من سوء حظ المصريين أو لضعف الحكومة أو خرقها . لا ريب أن خزانة الحكومة المصرية في عجز عن أداء هذه الغرامة الثقيلة التي هي في الحقيقة قصاص بلا جنائية . ولكن مع ذلك للمصايين حق في المطالبة بخسائرهم وليس لهم صبر على الإمهال فيها ، فحدثت ربكة وحكومة الإنجليز كالصياد الماهر لا يطلب السمك إلا عند تعكير الماء !! رأت أن تصيد صيداً أو تخطو خطوة أخرى إلى مقصدها في مصر بعد خطواتها السابقة أو تمكن من خالها في أحشاء مصر بل يصح أن نقول أن الحكومة الإنجليزية بجيالتها التي أشرفت على تنميتها تريد أن تقبض على زمام البلاد المصرية فتكون بأسرها في تصرفها .

من المعلوم أن عمار المساجد والمدارس الدينية إنما هو بالأوقاف التي أنشأها صلحاء الملة من أزمان مديدة ولا يزال ينشئها المقتفون لآثارهم ، وقيام الدين الإسلامي إنما هو بهمار المساجد والمدارس الدينية . فالأوقاف عماد عظيم يقوم عليه عرش الديانة الإسلامية . فقصده رجال الحكومة الإنجليزية بكيدهم أن يجعلوا العلماء الذين يعمرن مساجد الله ومعاهد العلوم الشرعية خاضعين لأحكامهم ، مرتبطين بعمالهم حتى يستعملوهم ، (وإن طلبوا محالاً) في جلب قلوب الأهالي إليهم وتأليفها على ولائهم وربما

نالوا بهم حجة عند دول أوروبا ، يثبتون بها رغبة المصريين في بقائهم تحت سلطة الحكومة الإنجليزية واطمئنانهم إلى ما تقتضى به فيهم .

هكذا رأى اللورد نورث بروك أن يحل مسألة التعويضات بأن تدفع الحكومة الإنجليزية قرضاً للخزينة المصرية تؤدي به تعويضات الخسائر التي حدثت من ضرب الاسكندرية على شرط أن تكون الأوقاف العمومية كافلة للقرض وفوائده وتكون إدارة الأوقاف في تصرف رجال من الإنجليز .

ألا أيها الناعمون تيقظوا ، ألا أيها الغافلون تنبهوا ، يا أهل الشرف والناموس ،
ويا أرباب المروءة والنخوة ، ويا أولى الغيرة الدينية ، والحمية الإسلامية ، ارفعوا
رءوسكم ، تروا بلاء منصبا على أوطانكم ، وما أنتم ببعيد منه ، ولا معزل عنه ،
إن لم يكن أصابكم اليوم ، فسيصيبكم غداً ، تساهلتم في الذود عن حقوقكم المقدسة ،
ولهوتم عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة والتذليل ، وسوم الخسف وتعلتكم
بالأوهام . فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمان ، حتى جاء أمر الله وغركم
بالله الغرور . أصبحتم على شفا جرف المذلة ، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم
المبودية .

إلا أن وقت التدارك مافات ، فالأرواح في الأجساد ، والعقول في الرؤوس ، والهمم في النفوس ، وإقدام العدو في زلل ، وشثونه في خلل ، فائبتوا ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، إن كنتم مؤمنين ، لا ترضوا بالدنية ، خوفاً من النية ، واعلموا أن ثباتاً قليلاً وإقداماً خفيفاً ، في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش العرمم . نعم فإن الدول متفقة على معاكسة الإنجليز ، والإنجليز في شغل شاغل بالمسألة السودانية ، وقلوب رعاياهم في الشرق خصوصاً المسلمين ، منحرفة عنهم ،

وكوامن الأحقاد متهمة للوثبة عليهم ، فعمل صغير في مناوأتهم من أهل مصر يوجب
 بعون الله سقوطهم ، وتنكيس أعلامهم ، ورجوعهم بالخيبة خاسرين ، فالثبات الثبات
 وحذار حذار من التواني والتقاعد ، هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل
 عمل شرعى ، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين ، للعامل فيه خير الدنيا وله في الآخرة
 الحسنى وزيادة ، هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه ، هذا وقت يشكر فيه العامل
 على بساط الأرض ، ويحمد له عمله فوق سبع سموات ، إلا أن الشيطان يخوف أوليائه .
 فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، إن الله تعالى

قد جعل من علامات الإيمان حب الموت اختياراً لرضاه وإعلاء لكلمته ، كونوا مع
 الله في نصره ينصركم ويثبت أقدامكم ، ثقوا بوعد الله فلن يخلف الله وعده ،
 إن أخلصتم له في العمل سلوا قلوبكم ، وامتنحوا أيمانكم ، ولا تراتبوا في وعود ربكم ،
 فلن يرتاب فيها إلا القوم الكافرون .

الصراع بين :

انجلترا وفرنسا

أظهرت جريدة استندارد عند كلامها على السياسة الفرنسية حدة زائدة وقالت إنا وإن كنا لا ننصح حكومتنا (الإنجليزية) بمعاداة دولة فرنسا ولكن علينا أن نهج الطريق الذى يوافقنا بدون أن ننتظر فضلا من الأمة الفرنسية ولا أن نخشى غائلها فإن كل عمل لا يبنى على هذا الأساس لا تكون غايته إلا الخيبة ولا عاقبة له إلا الخسارة وأن تباين المصالح بين فرنسا وانجلترا فى درجة لا يمكن معها وفاق بين الدولتين اهـ .

ولم تنفرد جريدة استندارد بهذا القول ولكن على شاكلتها جميع الجرائد الإنجليزية المهمة وليست جرائد فرنسا بأقل حدة من جرائد إنجلترا فى تسوئة السياسة الإنجليزية وهذا مما يرشد إلى تمكن النفرة بين الدولتين ، وربما ذهب بهما التباغض الذى يزداد يوما بعد يوم إلى مقارعة أشد من مقارعة الكلام ، والسياسيون فى إنجلترا يرون أنهم يخسرون فى ذلك اليوم أكثر مما تخسر حكومة فرنسا ، فإن انفرادهم عن الدول وضعفهم فى القوى العسكرية ، وجفول أمتهم من الحرب خارج بلادهم ، إذا امتد زمنها أو كان النازل فيها أمة قوية حربية ، كل هذا سيوقعهم فى فشل لايسهل عليهم النجاة من عواقبه ، نسأل الله تحقيق ما يخافون .

نكايه الانجليز

حركات العقلاء على حسب المقاصد ، ومقدرة تقدرها وأولاهها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شئون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . وعلى رعاة الأمم في كل دولة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية وبمقرب للنظر في غاياتها والبحث عما يبعث عليها . رب نهضة من سياسى عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لمحك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ويرد كل حادث سياسى إلى ما رسم في مخيلته واعتقده موافقاً لمصلحته فيفضل عن الرشد بالقصور وينيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الإمكان ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جلبها أو يدعو إلى دفعها طبائع الأمم ولوازم مليتهم ومواقع بلدانهم وعلاقتهم مع من سواهم حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجاذب والدوافع حافظاً لمداره ، واقياً لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالللاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الأخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرنسا أشد الدول في دفع أنجلترا عن مطالبتها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيافيس) ، ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخاطرة ومعهم وزراؤهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلوم الرأى وبعد الغاية . هل كان هذا التلاق

للإطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ ! هل كان كما ذكرته الصحف للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين . كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كصوص تقمعهم السطوة الداخلية ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخبرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . إن ما تقوله الجرائد من هذا القبيل إنما يقصد به التعمية وصرف الأذهان عن النظر في الحقيقة — أى غرض عظيم دعاهم للاجتماع — لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فإن حكم المنافسة على فضيلة الإيثار . قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك بهذا الإتفاق الأمبراطورى أن يجعل لفرنسا ركناً شديداً في معارضة أنجلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضى إلى حرب توهى القوة الفرنسية ويصيب منها ما يجب ، هذه فائدة خاصة بدولة الألمان لو قدرت على نيلها فإذا ينال الدولتين المنافستين لها من الإتفاق معها . أو يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين ألمانيا وتنسى الأحقاد بينهما . غاية لا تطلب والشأن فيها كسابقتها ، يقصد البرنس مجرد الإنتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الإهانة التي لحقت في المؤتمر . إن كان هذا ، فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخص لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهى ؟ ! ايصح أن يكون ذلك الأمر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير . على أن أنجلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل إليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية .

هل أراد البرنس أن يحتل روسيا ويلهى فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الأعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه إلى ما شاء الله ووسعت القوة ، شفقة في غير موضع وصنيعة في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يتمتع نظره بشهود الفتوحات ، فبعد مافتح للنمسا بابا في الشرق من جهة هرسك رسم للروسيا طريق هراة

وقندهار ، ومد لفرنسا خطأ في حدود تونس وهو تقرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وإن لم تعد من ذلك فائدة على الأمة الألمانية . شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر . هذا ولا يصح لنا أن نقول أن الحلف العظيم بين القيصرية واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الإنجليز عن مصر وإبقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك علي ما كانا عليه ، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مراسل (التان البرليني) قال أن في عزم البرنس بسمارك تأييد الحجة الفرنسية بثبات شديد وإرادة صحيحة ، وسيكون مع فرنسا يداً واحدة في إبقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه ، وفي زعم المراسل أن هذا كان باعثاً لسياسي إنجلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين ألمانيا والنمسا وفرنسا . فإن المسألة المصرية بمجرد أنها ليست مما يدعو إلى حملة عمومية .

إنى أرى تحت هذا النفع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلاً قريباً في حدود الجغرافيا السياسية ، وتغييراً عظيماً في الخطط الدولية ، وانقلاباً في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادئ الأولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً في مناوأتها زمناً طويلاً . وكما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعاً فيريد أن يجرب صداقتها ، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة روسيا إلى آسيا فهو أسلم للدولتين الألمانييتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولى وجهها وفيما تحلفه ورأها فائدة البرنس المالية . — أرسل البرنس ولده الكونت هيربرت بسمارك سفيراً في لندن ليكون حفيظاً لسره أميناً على عمله ، حتى إذا فاته ما يرجو من العزيمة الأولى ، لم ينجل من الانقلاب عنها إلى الأخرى ، وربما يرى الارتباك الذي يؤدي به إلى ما يريد إنما يكون بعقد مؤتمر جديد باسم المسألة المصرية ، ويقال أنه سيثبت على شدته في هذه المسألة إلى حد كما روته الجرائد المهمة — وقضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعلها التيقظ التام ، والاحتراس

الشديد كي لا تكون خسارتهما في استفادة غيرها . إذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها ، الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة وإلا خرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكاية الإنجليز من كل وجه فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام وهي أقدرهن على الإضرار بهم فإنهم في بلادها ، يمشون فيها مفسدين وسكان البلاد لا ينتظرون إلا خطوة من دولتهم إليهم فيقيمون القيامة عليهم .

أسف . .

أنبات الأخبار الأخيرة بحدوث ثورة في دارسين من بلاد أرمنستان قصد الإخلال بالسلطة العثمانية في تلك الأقطار ومهب ريح هذه الثورة من جمعية الأرامنة في تفليس ، والأسلحة والذخائر تنهال على الثائرين من تلك الجمعية . هذه هي الأمم الخاملة التي لم يكن لها في الكون مكان ، ولا على صفحة الوجود أثر ، ولا في صفوف الأمم العظام قدم ، أصبحت تطلب اسماً رسمياً وشأناً علياً ، تنفق أموالاً ، وتبذل أرواحاً ، ولا تنال بأغوال النايا ، فما بال المسلمين في بعض الأقطار وقد كانوا هامة العالم ، زاهم اليوم في قنوط ويأس ، تتخطف الدول الأجنبية ممالكهم ، وهم في سكون يكتفون بأسف العجائز ، وتحسر الزمنى ، مع أن لهم دولا عظاما ، وعددهم يتجاوز مائتي مليون من النفوس ، إن هذا شيء عجيب حقاً ! ! .

اسماعيل باشا يحن إلى مصر!

عظم على الخديوى السابق أمر ما نزل بمصر ، وعز عليه اشتداد الأزمة فى داخليتها ، وعسر ماليتها ، واكتنافها بالفتن الخارجية ، وارتباكها فى المشاكل السياسية ، فحن اليها (وله أن يحن) . وأراد أن لا يدع للانجليز موضعاً للتعامل (فى تأمين الدين وإطفاء الثورة) فأظهر من سريره ما ذكرته جريدة الروبليك فرانز وهو أنه يتبرع بالتزام أداء ما يطلبه حاملوا الأوراق المصرية مع استعداده لأن يقود جيشاً لمغالبة محمد أحمد !!

* * *

ورأينا فى جريدة الماتان أن مسيو كورسيل سفير فرنسا فى برلين أخبر حكومته بوجه رسمى أن القياصرة الثلاثة استقر عزمهم أن يبعثوا إلى الخديوى (توفيق باشا) بلائحة مقتضاها أن منصبه سيكون فى خطر إذا استمر زمناً طويلاً على الركون لانجلترا فى الدسائس المالية بالقطر المصرى . وأن السعى فى عودة اسماعيل باشا إلى مصر سيكون مؤيداً من وزارات برلين وستراسبورج وفيينا وباريس وأن مسيو هربرت بسمارك يأخذ على نفسه أن يشهر الدوائر السياسية بلندن ما يترتب على عودة الخديوى السابق من الفوائد حيث يعلن رسمياً أن عودة اسماعيل باشا هى أفضل فى نظر الدول من الأعمال التى تصدر من انجلترا متعلقة بمصالح أوروبا ومنافعها فى البلاد المصرية اه .

إننا نعلم أن اسماعيل باشا لو رجع إلى مصر لا يكتفى بتخفيض سلطة الإنجليز فى وادى النيل ، بل يبذل جهده فى محو النفوذ الإنجليزى بالرة ، وربما مد بحباله

إلى سائر البلاد الشرقية الداخلة في سلطة الإنجليز ليحبط أعمالهم فيها ، ويهدم أركان سلطتهم عليها ، لأنه يعلم أن الدولة الإنجليزية هي السبب في كل مصاب نزل به وكان الإنجليز أحسوا بذلك منه على ما روته بعض الجرائد فدفعوه عن نيل مقصده ولا يزالون يدفعونه — لكن لو اتفقت بقية الدول مع الدولة العثمانية على إرجاعه لم يبعد وقوعه غير أن إحدى الجرائد ذكرت مانعاً قوياً وعائقاً شديداً يحول دون نجاح هذا المقصد وهو امتناع الذات الشاهانية عن إصدار الفرمان لاسماعيل باشا بمخدوية مصر أيا كانت الحالة ، واستمظام هذا المانع مبنى على ما تراءى للسلطان من أن اسماعيل باشا وهو في أوروبا أعزل فائد السطوة لاحول له ولا قوة ، كان مهتماً للتشويش على الخلافة العثمانية ومعارضة الذات الشاهانية وأن الرسائل الكثيرة والمقالات المتعددة المطبوعة بالألسن المختلفة المشحونة بما يمس الخلافة وقد وصل إلى علم السلطان أن الحامل على تحريره هو اسماعيل باشا ، فهذا الظن هو الذي يمنع السلطان من تسهيل الطريق لعودته لحسابه أنه لو صار له نفوذ وسلطة في مصر فربما صدرت عنه أعمال لا توافق مصلحة الدولة . فعلى رأى صاحب الجريدة أن عود اسماعيل باشا إلى مصر بعد اليأس من إنجلترا لا يكون إلا بإصلاح الصلة مع السلطان واستمالة سائر الدول — هل يمكن هذا — ربما يمكن إذا وثق السلطان بما يطمئن به ووضع للدول ما يصح الركون إليه . هذا إذ لم تراعى الدول ولا الدولة العثمانية حركة الأفكار العمومية في مصر فإن جعلت هذا أساس العمل زادت المسألة صعوبة فإن رأى في هذه الأيام مختلف بالديار المصرية . فمن الناس من سبقه ميله لتوفيق باشا ومنهم من قام يدعو إلى حلیم باشا ويطلب من الناس أن يوقعوا على محضر بطلبه كما جاءنا به خبر الثقة ، ومنهم من هو ممسك عن رأى صامت عن القول ، وسنأتى على بيان هذه المسألة فيما بعد إذا دعت الحوادث حقيقة للكلام فيها .

الفرصة!

إذا تليت سطور الحوادث الأخيرة وأعطيت حقها من الاعتبار ولوحظ: ما وصلت إليه هيئة السياسة في أوروبا لهذا العهد القريب وما يشف عنه اجتماع القياصرة الثلاثة وما يرشد إليه تداول الزيارات بين البارون دي كورسيل سفير فرنسا في برلين ، وبين البرنس بسمارك . ولو تبصر متأمل فيما يتبع ذلك لصح له الحكم بخاطر الحالة في مصر على انجلترا وأنه لم يبق لتخليصها من يديها إلا شيء واحد وهو قيام العثمانيين على حقوقهم واشتدادهم في طلبها وعدم اطمنانهم لأعمال وكلاء الإنجليز في الاستانة ، خصوصاً في هذا الوقت الذي همت فيه الدول بتخفيض السلطة الإنجليزية ونزع مصر من يد انجلترا ويرى السياسيون أنه لا شيء أشد تأثيراً وأجل عائدة في تلطيف المسألة المصرية من مداخلة الدولة العثمانية .

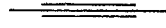
وأخبر مراسل صحيفة الثان في فينا بناء على ما وصل إليه من مصدر موثوق به أن دولة ألمانيا والنمسا والروسيا من رأيهم أن تداخل الدولة العثمانية وتجديد سلطة السلطان في وادي النيل يوجب تعديل الحالة السياسية وليس الغرض من هذا إلا كف أيدي الإنجليز عن تلك الأقطار . فليس من الرأي أن تصنع الدولة العثمانية لنصائح انجلترا ووكلائها وهي ترى أن جرائد الإنجليز تنادى بلسان الأمة الإنجليزية على حكومة بريطانيا طالبة منها إعلان الحماية على مصر بل والتمكين في خرطوم بعد رفع الحصار عنها وتنصحها بمد سكة الحديد من سواكن إلا مدينة خرطوم .

فلو تساهت الدولة في هذا ، فقد فرطت في جزء عظيم من ممالكها ، وأضاعته حقاً
ثابتاً وأى دولة سواها تهتم بإخراج الإنجليز من مصر ، فهي صاحبة الحق فيها
فلا يكون للدولة نصيب من ملكها إذا أضاعته بالتفريط .

اللورد نورث بروك وزبائنته يسمعون لقلب قلوب الأهالي بترزين الأمانى
وتخييل الآمال « يعدم ويمنيهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا » ليتخذوا من ميل
المصريين حجة يجادلون بها الدول ويثبتون لأنفسهم حقاً قانونياً في الإقامة بمصر ،
ثم من جهة أخرى يحشدون قوة عظيمة إلى مصر استعداداً لتلقى الحوادث المنتظرة
لكن تحت إسم إنقاذ جوردون ، فلو وجد الإنجليز برهاناً من الحيلة ومنعة بالقوة
وحملهم الغرور والكبرياء على مشاوره الدول اعتماداً على عدم الاتصال في البر وتمكنهم
من المراكز الحربية في البحر كالطلة وقبرص ، وأن تحارب الدولة العثمانية ، فهم أقدر
الناس على محاربتها من جهة العريش وفي عموم السواحل ، فإذا تكون العاقبة ؟ هل
تكظم الدول غيظها وتترك الإنجليز وشأنهم . لا نظن ذلك ولكن إذا حالت
الموانع دون نكاية الإنجليز في مصر عمدت الدول إلى نكايتهم بالحصول على غنيمة تعادل
مصر ولا تكون إلا من بلاد المسلمين ، فتساهل أصحاب الحق الشرعى في وادى النيل
يضيع لهم حقوقاً أخرى في غيره .

إن الدولة العثمانية أولى من سائر الدول بالعمل في المسألة المصرية وأجدرهم
بالاهتمام بها ، ومن الواجب أن تكون أشد حرصاً على الظفر بالإنجليز فيها .
إن الدولة في مقام المدافع عن حياته وهو بحكم الطبع أقوى باعثاً وأدنى للعمل
من طالب الفائدة ، إن شر يقع أولى بالتلافى من شر يتوقع وأن خطراً عاجلاً
أخرى بالإلتفات من وهم باطل — نفوس المصريين في هياج فان ما أفسد قلوبهم
على الإنجليز من سوء التصرف في الحكومة وإستلام إدارتها وإبطال الحقوق الوطنية

وحشد الجيوش إلى البلاد لقصد التمكن فيها ، كل هذه سهام خرقت شغاف القلوب وزاد الجراح نفراً ما اعترفت به جريدة التايمس من اشتداد الارتباك وتعطل أسباب المعيشة ووقوف دولاب التجارة وإشراف العائلات الكثيرة على الافتضاح خصوصاً الذين كانوا في خدمة أوطانهم وحرّموا منها . فلو أحس المصريون وهم في هذه الحالة بحركة خفيفة من دولتهم (العثمانية) لكفوها شر الإنجليز وقليل من العمل فيه الكفاية . واليوم يتوجه الإنجليز إلى السودان ، فلو لحوا ثباتاً من العثمانيين لوقفوا وقفة الحائر بل سقطوا فيما لا منجى لهم منه . إن الخطر كل الخطر في سكوت العثمانيين عن طلب حقوقهم ، وليس من الرأي أن يخاطروا بأنفسهم ثقة بمواعيد الإنجليز وفي علمهم أن لا وفاء لها . فهذا هو الوقت الذي يتمكنون فيه من إعادة سلطتهم في القطر المصري إلى أعلى السودان . وفي ذلك صيانة ممالكهم من العدوان ولا يرضى بفوات هذه الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت وألقى بها إلى التهلكة . هذا ما يثبته العيان ولا يختلف فيه أثنان ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .



جلالستون

قامت الدول الأوروبية كافة على المطالبة بحقوقها وإعانت الإنجليز في مصر خصوصاً دولتي فرنسا وألمانيا وجميعهم يطالبون إنجلترا بأنجاز وعودها ويطالبون الحجة عليها في أعمالها بمصر على كفيات مختلفة ومن وجوه متعددة .

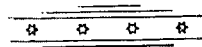
ومحمد أحمد وأتباعه قد فرغوا من أعمالهم الزراعية وأحزوا غلتهم وهيئوا مؤنهم وجندوا الجنود الكثيفة وقصدوا أطراف دوسد وبربر وفي الأخبار الأخيرة أنهم سيروا جيشين على طريقين أحدهما يزحف من الصحراء والآخر على خط النيل . والقلق والاضطراب وضيق الحال واختلال الأمن يزداد في مصر كل يوم حتى صار يخشى من فتنة عامة ، خصوصاً بعد ما أحس الناس بسوء نية الإنجليز ، ويمد هذه الأفكار ما فتى بين المساكر والعامة من أن السلطان غير راض عن أعمال الإنجليز في مصر ولا هو مرتاح لزعهم على السودان ، وبوده لو يصادفون مقاومة لا يخطون بها خطوة ، ونزول ماء النيل وفقدان وسائل النقل ووعر الطريق وبعد المسافة ، كل هذا أطفأ تلك الحرارة ، التي كانت تطير بالمساكر الإنجليزية إلى خرطوم بأسرع من حركة البخار لإيقاد جوردون كما يزعمون أو تملك خرطوم كما هو حقيقة القصد . وانقلاب قلوب الهنديين على حكامهم الإنجليز وظهور تلك الضغائن مع العجز عن سترها خصوصاً من النوايين والرجوات الذين يتوجسون الشر من وثبات الحكومة الإنجليزية عليهم وهم الآن في ضجر شديد من تضيقها وتشديدها في مراقبة أعمالهم وهم على صورة الاستقلال ، حتى أن بعضاً منهم ومن أعيان الأهالي الهنديين

بعثوا بأناس إلى سرخس ومرو وأشقا باد على ما بلغنا ليعرضوا لإخلاصهم ويتبينوا يوم خلاصهم ، ذلك كله أحدث قلقاً واضطراباً في أفكار سياسي الإنجليز وتخطيطاً في سيرهم . فمن جهة يريدون ستر خجلهم من الأعمال المصرية مع قضاء بعض أوطارهم فيطلبون إلى الدول تشكيل مراقبة عمومية وترك مصر وشأنها مع بقاء شزيمة من عساكرهم في وادي حلفا لصيانة الحدود المصرية بعد طرد الجند الوطنى (كما صانوا سائر الممالك الهندية بأمثال هذه الشرذمات !) ويتوهمون أنهم يلتهون الدول بهذه الأضحوكة ، ومن جهة أخرى يبتغون إقناع أنفسهم وإقناع الأمة الإنجليزية بأوهام خيالية وترهات صبيانية يجعلونها أساساً لسياستهم في الممالك الهندية . من ذلك ما اعتمدته اللورد دوفرين (ذلك السياسى المشهور الذى أفسد شئون مصر) قاعدة متينة لصون الممالك الهندية . بعد أن عين حكمدراً عليها ، قال فى مقال ألقاه فى (بال فاست) أنه يعد نفسه سعيداً بمعرفته الخصوصية لسيو جيرس وزير خارجية روسيا ثم أثنى عليه بحدة تنبىء عن الإخلاص وقال إلى أرى لسيو جيرس رغبة صادقة فى حصول المصافاة بين روسيا والإنجليز ورفع الشقاق بينهما وبالغ فى القول حتى قالت جريدة (اليموريال دبلوماسيك) بعد ذكر تهنئة روسيا للورد دوفرين على الوظيفة الجديدة ، أن اللورد مكلف بعقد وفاق تعين به مهلة لتلاطم الدولتين المتنازعتين فى آسيا الوسطى بعد تحديد تخوم أفغانستان من طرف الشمال . هذا ما اندفع إليه جناب اللورد بقوة الاضطراب وشدة الشغف بتسكين خواطر الشعب الإنجليزى وتغدير العقول فى الهند وإرضاء القلوب عن سياسة الحكومة وربما إرضاء نفسه أيضاً ، والقارىء يعلم من هذه الحالة مقدار العجز الملم بسياسى بريطانيا حيث طفقوا يجعلون من مبادئ سياستهم فى الشرق معرفة شخصية بين حاكمهم فى الهند وبين وزير روسيا الذى لم يخط خطوة فى الشرق إلا وغايتها الهند ولم تتقدم قدماً إليه إلا بعد عهد ينكث وميثاق ينقض . فإن حلف وزير روسيا للورد هذه المرة لا يختلف هذا اليمين عن اليمين السابقة ، على أن المحبة

الشخصية لا قيمة لها في السياسات الكلية وما سرور الإنجليز بها إلا من آثار
الذهول وسر سام العقول .

وأعجب من هذا أن جلادستون يرفع صوته بين شعبه بقوله أن من ضعف
العقل أن يظن الوهن في أمبراطورية الإنجليز أو يترقب بها الضعف في المستقبل
وأن بسطة الدول مما يوجب بسطة إنجلترا . عجبا !! فإذا انبسطت روسيا إلى الهند
فألى أين تنبسط إنجلترا ، أظنها تنقبض ، لا تنبسط ، ويقول أن يوما تشعرون فيه
بالخوف لبعيد وليس بقريب سبحانه الله . الروسية وضعت يدها على باب الهند
(سرخس) وشهرتها عمت أنحاء وقلوب أهاليه ميالة إليها وهي لا تهاب الإنجليز
ولا تتوانى في سيرها فأى يوم يشعر فيه بالخوف بعد يومه هذا ، كأن الوزير لا يحس
بالخطر حتى تحل روسيا في بنجاب أو تصل إلى نهر السند .

لا جرم أن الارتباك يضل بالإنسان عن رشده ، ومن المضحكات ما ذهب
إليه جريدة البال مال جازيت من أن هذا الكلام من جلادستون يدل على ثقة جديدة
منه بالدول بعد مفاوضات حل بها المشكلات ، وأن من له أدنى إلمام بحال الإنجليز
في ممالك الهند وضعف عسكريتهم وتوزع أساطيلهم لحفظ سائر أملاكهم ونفرة الرعايا
الشرقيين منهم مع تألب الدول عليهم وتقدم روسيا إلى الهند يوما بعد يوم يحسب بأن
قد حل أجلهم وقرب يوم يهدم فيه سلطانهم ويتقلص ظل سلطتهم في المشرق ويهزأ
بما يقول جلادستون (أن أمبراطورية إنجلترا تزداد قدرتها بتجدد الأيام) ومن رأى
العقلاء أنه لو تقدم محمد أحمد وساعده أهل الشهامة من الصعيد والشرقية والبحيرة
في مصر وخاب أمل الإنجليز في حملتهم وقامت الفتنة في الهند وتقدمت روسيا
وخلصت النفوس من رق العبودية وقضى الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين .



عماء بعض الناس في مصر أو تعاميرهم عن مقاصد الانجليز فيها

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما في وسعها لوقف دفع الاستهلاك وتنقيص فائدة الدين المصرى ويعترضها في ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة . هل الدولة الانجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عموماً وعلى المصريين خصوصاً فدعتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصداً لراحة المصريين وتخفيفاً لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلاً لرفاهة الأهالى وتوسيع دائرة ثروتهم . أو أن هذه الدولة لم تبالغ في الشفقة وهى على حد الاعتدال في الحكم ولكن الدول تجاوزوا القسط في القسوة خشونة وغشمة أو لعداوة خصوصية بينهم وبين المصريين ، لهذا لا يريدون تخفيف شئ من أثقالهم . أو أنها اطلعت على أحوال المصريين وكشف حقيقة ما هم عليه وعلمت عجزهم عن الوفاء مما عليهم وخفيت هذه الحقيقة على سائر الدول فرأت حكومة بريطانيا أن تجرب الدول بما وقفت عليه قياماً بخدمة الصدق وإنما يعارضها من سواها جهلاً بواقع الأمر . لا . لا ...

ليس شئ من ذلك . من ساح في المستعمرات الانجليزية كالبلاد الهندية ونحوها تبين له أن الأهالى في تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوقار الرسوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس حتى سقطوا في مهواة من الفقر لا يجدون منها خلاصاً . ويوجد ملايين من أهل الهند يقتاتون بالأعشاب البرية لفقدان أقوات البشر مع خصوبة أراضيهم وجودة منابثهم ، فهل يصح لما قل أن يظن بعد هذا أن الانجليز ضنوا برحمتهم على رعاياهم الهندين وأفاضوا فيضها على

المصريين . أى رابطة بين المصريين والجنس البريطاني تدعو إلى هذا الاختصاص ، هل يصح أن يقال أن الأمة الفرنسية مع مالها من سابق الآثار في مصر تعادى المصريين وتقسوا عليهم وتطلب تنكيلهم حقداً وانتقاماً وهذا هو ما يحملها على المعارضة في تخفيف الفوائد وتوقيف الاستهلاك قصد الإضرار بالمصريين ووافقتها على ذلك الدول الباقية . هذا مما لا يعقل فإن في مصر ما يستميل الدول إليها لا ما يبعثها على الانتقام منها كما لا يعقل أن وكلاء السياسة في مصر ومديرى خزينة الدين من رجال الدول العظام قد خفي عليهم حال المصريين وشئون ماليتهم وتفرد الانجليز بعلمها من بين سائر الأمم على أن من يزعم أن أرض مصر فقيرة في ثروتها قاصرة عن أداء ما أوجبه عليها عهد الدول ، فقد افترى كذباً ، فإن مصر قد قامت بوفاء ما طلب منها أيام وزارة رياض باشا أحسن قيام مع غاية السعة وارتياح الأهالى إلى تأدية الضرائب بأنواعها وممرتهم التامة من تقسيم المطالبات على حسب المواسم الزراعية وهكذا استمر الحال بعد رياض باشا على الأساس الذى وضع في عهده إلى أن زحفت إنجلترا بجيش من دسائسها على تلك النفوس المطمئنة فأقلقها ، وتلك الأرواح الساكنة فأثارها ، فابتغى إنجلترا الآن من الإلحاح على تنقيح قانون التصفية وتنقيص الفوائد وماذا بعث الدول على معارضتها ؟!

تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة فلا يكون حظ الخزينة الانجليزية الخاصة من ثورة مصر وافر ، ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستهلاك بالسعى في تخفيض فائدة الدين لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضل به الآن على المصريين ، فهي تسعى لفائدتها الخاصة ليس إلا ، هذا قصد ما لم يحف على الدول فقامت بمعارضتها وأصرت حرصاً على مصالحها لا تهدر فداء لحظوظ

الانجليز وقضاء لشهواتهم . يهيم الدول جلاء الانجليز عن مصر عاجلا أو آجلا لهذا تهتم بسد أبواب الحيسل عليهم وإقامة العقبات الصعبة في كل خطوة يخطونها إلى مآربهم .

وظهرت مقاصد الانجليز وانكشفت مضمراتهم لعموم أوروبا ولم يبق فيها رمية عند دولة من الدول الأوروبية وإن كان بعض الغفل في تلك البلاد النكودة الحظ (لايزيد نوبار باشا فإنه ضارب في طريقه ذاهب إلى مقصده يتزلف للانجليز بكل ما يمكنه لينال بوساطتهم ما أشرنا إليه مراراً) ، تسول لهم أنفسهم ، إما جهلا وإما طمعاً أن يميلوا مع ربح الحكومة الانجليزية ويظنوا أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً فإذا فاض الخير في البلاد وشملت الراحة جميع أنحاء انجبت المساكر الانجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعوا إلى بلادهم فرحين بأنهم أدوا فرائض الذمة وحقوق الإنسانية !!

والمعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك ، يتجول في البلاد المصرية ويستدعى إليه العمدة والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد ، طوراً سرّاً وطوراً آخر علانية ، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد ، أما كان يكفي هذا السير لإدراك الحقيقة ، فيم يعلل النافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون ، ألم يكشف الغطاء عن نية السوء بسؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر ومفتي القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله : (ماذا تعلم من أفكار الأهالي لو أردنا نحن الإنجليز أن نديم الإقامة في البلاد) ، فلو لم يكن لدولة الانجليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسي الداهية يبتدر شيخاً من أجل المشايخ وأعلام مقاماً في القطر المصري بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إهانة الظنون وإحداث الريب إجابة حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الانجليز في احتلال مصر ، فاستدرك

اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء ولكن كان استدراكه مناقضا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلا عن الراشدين ، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكن مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد في وجهه باب حاول قرع باب آخر .

أما أن هؤلاء الخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد ، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرياً ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية . إن اللورد يلبح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطة ، ما هذا الاهتمام ؟ إن لم يكن من قصده تهديد الطرق للتسلط التام على مصر . هذا سبيل سلكه الانجليزى فى جميع فتوحاته كما نهنا مراراً وأب هذا الداهية الانجليزى لا يحيد عنه بعدما سلكه أسلافه من قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره . يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبداهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الانجليزية أو الهندية تملأ بفساد أخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدم النظامية وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الانجليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية كل هذا يجريه قبل إعلان السيادة والاستملاك كما فعل سابقوه فى الهند مع كل نواب وراجا ولا يزال يفعل خلفهم من بعدهم .

يزعم الانجليز أن تدخلهم فى مصر إنما كان لتسكين الاضطراب وإزالة المصيان وتقرير الراحة . ارتفع العصيان وسجن عرابى ورؤساء حزبه وتبددت جموعهم ولم يبق أثر لما سمود عصياناً وألزمت دولة بريطانيا حكومة مصر بالتنازل عن

السودان من مدة طويلة . فاذا تريد من إرسال الجيوش إلى مصر الآن ، ألجود إرسال جوردون كما يدعى رجال الانجليز ؟ إنهم يقولون أن جوردون يسوق مراكبه في كل وقت لمحاربة الثائرين وتشهد الجرائد الانجليزية نفسها بأنه يستطيع الخلاص بأى وجه متى شاء فليس هناك حاجة إلى تجريد الجيوش وسوقها إلى الأراضي المصرية تحت هذه التهمة . هل تريد حكومة بريطانيا بتوقية^(١) جيوشها أن ترفع الخلخل الداخلى وتكف أيدى الناهيين وقطاع الطريق . هذا خلل ما حدث إلا بوجود الجيوش لأجنبية والنفرة من السلطة الغربية فكيف يمكن محو الشيء بتوقية علل وجوده ، هذا الخلخل يرتفع ويمحى أثره إذا انجلى جيش العدو عن الديار ولم يبق له فيها رؤوس ولا أذنان ، نعم هذه كلها تعلمات يزعمها الانجليز حجاباً لما يسمون إليه من الاستملاء على عرش السيادة في مصر وحط الرجال في سهولها وحزونها .^(٢)

فلم يبق بعد هذا سوى أن ينتبه الغافل ، ويلتفت صاحب الأمر إلى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم ، ولا يعين الانجليز على مقاصدهم جهلاً منه أو اغتراراً بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه أو بلاده ، سبحانه الله هل كان مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه . هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لا تفيدهم التجارب ، ولا تربهم المحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدبرهم النوازل ، وتناوب الرزايا والمصائب . من له أدنى خبرة بسير الانجليز في ما ضيهم أو حاضرم يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدي سكانها ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم . يرى هذا الأمير الشرق في أرض حاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره فيقع في نفس الشرك الذى صيد به جاره . مثلهم مثل الأغنام يسوق القصاب منها واحداً بعد واحد إلى المذبحة وسائر القطيع في غفلة عما يجرى على أحاده يرعى ويرتع آمناً مطمئناً حتى يفنى . لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت

(١) يقصد الأفغانى بكلمة توقية : وقاية أو حراسة ..

(٢) حزونها : المناطق الوعرة ...

عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وإنما المار الذى لا يمحوه كره الدهور ولا ينسيه تطاول الأزمان ، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدي العدو من نواصيهم ، إما غفلة عن شئونهم ، أو رغبة فى نفع وقى وجزاء نقدى على خيانتهم ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم .

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية ونوقد فيران الغيرة الوطنية ، لتخيب آمال الانجليز وزرد كيدهم فى نحرهم ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون إليهم خارج تخوم هذه الديار ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم وينذوقوا عذاب الهوان بما كانوا يكسبون . هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق فى محبة الأوطان ورعاية مصالحها . فإن تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم ، وكان الله وليهم ونصيرهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير .



إخفاء سعى الانجليز

بينما العلة في اهتمام الانجليز بتحويل قانون المالية المصرية ومعارضة الدول لهم فيما يرغبون . ولما لم يجدهم إلحاحهم نفعاً وثبتت الدول في امتناعها نكبوها عن طريقهم واستكانوا لرأى الدول وأعلن ترجمان سرهم ولسان حالهم (نوبار باشا) لجميع قناصل الدول في مصر أن الحكومة المصرية (الانجليزية) رجعت عما عزمت عليه وكانت نفذته من توقيف الاستهلاك . كان قصد الانجليز بهذا التصرف إثبات سلطة وتقوية شوكتهم على المصالح العامة في مصر وهو نفوذ عاجل وكانوا يؤملون فيه فائدة آجلة كما أشرنا إليه . ولما رأوا أن طول الزمن على معارضة الدول لهم ربما يحول بينهم وبين غايات آخر يبتغون الوصول إليها انقلبوا عن وجهتهم ونقضوا عزميتهم بلا خجل ولا نظن أن يخفى على المصريين سر العزيمة الأولى ومصر النقض الثاني وأن هذا التنازل إنما دعت إليه الضرورة الحاضرة ووجود العقبة السياسية أما سائر مطامعهم^١ وبقية مقاصدهم فإنهم يغذون إليها السير ولا يدعون منها تقيراً إلا أن تصادمهم جيوش الهمم وتقوم في وجوههم عقبات العزائم . هنالك يرجعون بالخربة ويخسرون خسراناً ميبئاً .

الحق

اعتدى على الحق جاهل فنال سكاله .
ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله
الكرم وأمهله العفو ومده النور .
جمال الدين الأفغانى ﴿*﴾ محمد عبده

تمت كلمات « العروة الوثقى » بفضل الله .

فهرست العروة الوثقى

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
بريطانيا تعرض عرش السودان		رسم الراحل الشيخ محمد عبده	
على الأفغانى	٣٥	رسم الراحل جمال الدين الأفغانى	
صحيفة الحرية الكبرى		إهداء : إلى القومية العربية	
العروة الوثقى ولماذا صدرت ؟ ..		جمال عبدالناصر يقول ...	
الجريدة ومنهجها «١» مكرر		وجمال الدين الأفغانى يحذر ...	
مقالات العروة الوثقى		الناشر يتحدث	(١)
الجنسية والديانة الإسلامية	٩	المسيرة الوثقى	
ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها	١٣	والثورة التحريرية الكبرى	١
التصراية والإسلام وأهلها	٢٣	المنهج الاستعماري الأوروبي	٥
إنحطاط الساميين وسكونهم		كفاح الأحرار	٨
وسبب ذلك	٣٠	ماذا صنع محمد على	١٢
سببات من له حق وحراك		أهداف محمد على الشخصية	١٣
من لاحق له	٣٦	الشيخ محمد عبده بقلم المرحوم	
التعصب (إبتعوا ما أنزل إليكم من		مصطفى عبدالرازق	١٧
ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)	٣٩	ظهور الأفغانى	٢٤
القضاء والقدر	٤٩	النزوع إلى الحرية والرغبة في العدالة	٢٨
الفضائل والذائل وأثرها	٥٩	الأفغانى يحرض محمد عبده على قتل	
الوحدة الإسلامية	٦٧	الخدوي اسماعيل !	٣١
الوحدة والسيادة	٧٤	طرد الأفغانى من مصر !	٣٢
		أهداف العروة الوثقى	٣٣

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٦٦	أعجوبة	٨٠	الأمّل وطلب المجد
١٦٧	غريبة		رجال الدولة وبطانة الملك
١٦٨	جوردون باشا	٨٨	كيف يجب أن يكونوا
١٧٠	جراهم وعثمان دجمه	٩٣	كم حكمة الله في حب المحمّدة الحقة
١٧١	المسألة المصرية	٩٨	الشرف
١٧٥	الإنجليز في السودان	١٠٤	الأمة وسلطة الحاكم المستبد
١٧٩	صدى دعوة السودان	١٠٦	دعوة الفرس إلى الإتحاد مع الأفغان
١٨١	إضطراب سياسة الإنجليز في مصر	١١١	إمتحان الله للمؤمنين
١٨٢	برلمان إنجلترا	١١٤	ومن يضلّل الله فما له من هاد
١٨٥	الباب العالي	١١٥	أسباب حفظ الملك
١٨٧	إيرلندا		وزيد أن نمن على الذين استضعفوا
١٨٨	الفرنسيون في التونكين		في الأرض ونجعلهم أئمة
١٨٩	منشورات : سياسية	١٢١	ونجعلهم الوارثين
١٩٦	الشيخ الميرغني		ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا
١٩٨	خرطوم	١٢٥	من بعد ما جاءهم البينات
٢٠٠	تحكم اللورد دوفرين	١٢٨	سن الله في الأمم وتطبيقها على المسلمين
٢٠١	مقاصد إنجليزية في مصر	١٣٦	الوهم
٢٠٢	حجة نوبار باشا	١٤٢	الحجب
٢٠٣	عثمان دجمة	١٤٧	زلال الإنجليز في السودان
٢٠٤	معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين		باب التنف والاهتبار
٢٠٥	أخبار أخيرة		
٢٠٧	نصيحة	١٥٤	سياسة إنجلترا في الشرق
٢١١	الدولة العثمانية	١٥٩	مصر

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
العروة الوثقى	٢٧٢	إنجلترا في سواحل البحر الأحمر	٢١٣
اسماعيل باشا	٢٧٣	عودة إلى خرطوم	٢١٦
نحمد	٢٧٤	أمانى إنجلترا في حركات محمد أحمد	٢١٩
الصحف الهندية	٢٧٥	الحزم والعزم	٢٢١
صفقة خاسرة	٢٧٦	أسطورة	٢٢٣
أخبار سياسية	٢٧٩	القوة للحق	٢٢٥
المسألة المصرية دولية	٢٨٢	الجرائد الإنجليزية والعروة الوثقى	٢٢٩
مصادرة العروة الوثقى وتغريم قرائنها!	٢٨٦	عجز ومراوغة	٢٣١
تصرف الإنجليز في الهند	٢٨٩	إنجلترا والجيش	٢٣٥
نصيحة في الأدب	٢٩٢	رأى المستر بلونت في المسألة المصرية	٢٣٧
أخبار سياسية	٢٩٤	بريطانيا تسمح ظهر توفيق باشا	٢٣٨
في التواني الهلكة!	٢٩٧	أضحوكة	٢٣٩
منشور إنجليزي قديم	٣٠١	المسألة المصرية والإنجليزية	٢٤٠
إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار	٣٠٢	هول الأمر على جوردون	٢٤٥
هجوم على السودان عبر النيل!	٣٠٤	محاولة في مصر	٢٤٧
السودان ومصر	٣٠٨	رأى الجرائد الفرنسية في الإنجليز	٢٤٩
فرية دينية على الإسلام!	٣١١	خدعة جديدة	٢٥٠
صراع بشأن تثبيت الاحتلال!	٣١٣	دسياسة أخرى	٢٥٢
الثبات الثبات	٣١٥	الورطة الجديدة	٢٥٣
برهمن لاهور	٣١٨	العروة الوثقى توزع مجانا!	٢٥٦
هذا	٣١٩	رياض باشا والسياسة الإنجليزية	٢٥٧
العدالة الإنجليزية	٣٢١	السودان	٢٦٢
إنجلترا وفرنسا	٣٢٥	فرصة سانحة	٢٦٥

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣٧٨	معارضة الإنجليز	٣٢٩	الاتفاق
٣٨٢	الدهريون في الهند	٣٣٣	الباب العالي
٣٨٨	جريدة الأهرام	٣٣٤	الإنجليز والإسلام
٣٩٠	لاهـور	٣٣٧	الباب العالي والإنجليز
٣٩٤	الإنجليز والدول	٣٤١	حرية الصحافة والاستعمار
٣٩٨	تمظيم توفيق باشا لنورث بروك	٣٤٤	تركيا
٤٠٠	فرنسا وألمانيا	٣٥١	الباب العالي
٤٠١	كيد الإنجليز في مصر	٣٥٢	يقظة من سنة
٤٠٤	الصراع بين إنجلترا وفرنسا	٣٥٥	حيلة إنجليزية
٤٠٥	نكاية الإنجليز	٣٥٧	وداد الإنجليز للمسلمين
٤٠٩	اسماعيل باشا يحن إلى مصر !	٣٥٨	التهتك في الحيلة
٤١١	الفرصة	٣٦١	فرصة يجب ألا تضيع
٤١٤	جلادستون	٣٦٦	تنبيه
	عماء بعض الناس في مصر		مطلوب من توفيق باشا أن
٤١٧	أو تعامهم عن مقاصد الإنجليز	٣٦٧	يموت شهيداً
٤٢٣	إخفاق سعى الإنجليز	٣٦٨	هؤلاء رجال الإنجليز وهذه أفكارهم
٤٢٤	الحق . . .	٣٧٢	اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد
٤٢٥	فهرست العروة الوثقى	٣٧٧	نكتة ! !

تم بحمد الله

العروة الوثقى

السيد جمال الدين الافغانى و الشيخ محمد رعبه

ثبت تحليلى

بالآيات القرآنيّة والأماكن والرجال

ثبت بالآيات القرآنية

- اتبعوا ما أنزل إليكم - أولياء - ٣٩ -
 أحسب الناس أن يتركوا - الكاذبين - ١١١، ٧٨ -
 استبدلوا الحبث بالطيب - ١٠٥ -
 أفلا يتدبرون القرآن - أفقالها - ١٣٣ -
 أفلم يدبروا القول - الأولين - ١١٨ -
 أفلم يسيروا في الأرض - الصدور - ١١٥ -
 الذين قال لهم الناس - عظيم - ٥٣ -
 ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا - قريب - ١٤٥ -
 إن الله لا يغير ما بقوم - ما بأنفسهم - ١٢٨، ٦٥ -
 إن الله يأمر بالعدل والإحسان - ١١٨ -
 إن تمسكم حسنة - يفرحوا بها - ٩٢ -
 إن تنصروا الله - أقدامكم - ٨٧، ٧٨ -
 إن في ذلك لذكرى - وهو شهيد - ٢٣ -
 إنا لله وإنا إليه راجعون - ٥٥ -
 إنه لا يأس - الكافرون - ٨٥، ٨٠ -
 إنه نعم المولى ونعم النصير - ٩٧ -
 أينما تكونوا - ملائكم - ١٤٢ -
 ذلك بأن الله لم يك مغيرا - عليم - ١٢٨، ١١٩ -
 ذلك تقدير العزيز العليم - ٨٢ -
 ربا عليك توكلنا - المصير - ١ -

- رضوا بأن يكونوا مع الخوالف - لا يفقهون - ٧٢
- سنة الله في الذين خلوا - تبديلا - ١٣
- سنة الله في خلقه - ٤١
- فلذا أنزلت سورة محكمة - من الموت - ١٣٣
- فإذا قهرهم الله الحزى - لو كانوا يعلمون - ١١٩
- فلو لا نفر من كل فرقة - تحذرون - ٦٦
- فألهؤلاء القوم - حديثا - ١١٨
- قل سيروا في الأرض - المكذبين - ١١٥
- لا تتخذوا عدوى - من الحق - ١١٦
- لا يستأنذك الذين يؤمنون - يترددون - ١١١
- ليظهره على الدين كله - شهيداً - ١٢٨
- من يعمل مثقال ذرة - ١٤٣
- وأطيعوا الله ورسوله - ريجكم - ٦٧
- وأعدوا لهم ما استطعتم - ١١٨، ٢٦
- والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - ٨
- وإلى الله تصير الأمور - ٣٥، ٢٩
- وأما بنعمة ربك فحدث - ٩٧
- وأمرهم شورى - ١١٨
- وإن توليتم فاعلموا - أليم - ٣٦٦
- وتعاونوا على البر - العدوان - ٤٨
- وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا - ١١٧
- ورفعنا لك ذكرك - ٩٧
- وعدا الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات - ١٢٠
- وشاورهم في الأمر - ١١٨

- وقل اعملوا فسيرى الله - تعملون - ٧٢
- وكان حقاً علينا نصر المؤمنين - ١٢٨
- وكذلك أخذ ربك القرى - شديد - ٦٤
- وكم أهلكنا من قرية - تمرحون - ١١٧
- ولا تخافوهم وخافون - مؤمنين - ١٣٢
- ولا تفرقوا ولا تنازعوا - ريثكم - ١١٦
- ولا تكونوا كالذين تفرقوا - عظيم - ١٢٥
- ولا يظلم ربك أحداً - ١١٥
- ولتكن منكم أمة - المفلحون - ٦٦
- ولقد كتبنا في الزبور - الصالحون - ١٢٨
- ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين - ١٢٨
- ولن تجد لسنة الله تبديلاً - ١٣٠
- وما أصابكم من مصيبة - أيديكم - ٦٥
- وما الله بغافل عما تعملون - ٧٢
- وما تدري نفس ماذا تكسب غداً - تموت - ١٤٤
- وما ربك بظلام للعبيد - ١٠٥
- وما ظلمهم الله ولكن كانوا . . . - ١٠٤
- ومن أعرض عن ذكرى - أعمى - ١١٧
- ومن يضل الله فما له من هاد - ١١٤
- ومن يؤت الحكمة - كثيراً - ١١٩
- وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - ٥٩
- وكان حقاً علينا نصر المؤمنين - ٦٦
- وما كان ربك ليهلك القرى . . . - ٦٢
- ومن يقنط من رحمة ربه . . . - ٨٥، ٨٠

- ومن يهد الله - مرشدا - ١٣٤ -
وزيد أن نمن - الوارثين - ١٤١ -
ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم - ٩٢ -
يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله - إن كنتم مؤمنين - ١٥٢ -
يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط - الأتقيين - ٤٤ -
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة - إن كنتم تعقلون - ١١٦٦٨٨ -

ثبت بالامكان

(١)

٤٠٧٠٣٩٥٠٢٩٨٠٢٧١٠٢٠٦٠١٨٩٠١٥٧ —	آسيا
٢٩٥٠٢٤٢ —	أبو حمد
٢٨٠ —	أبو سعيد
٢٩٦٠٢٩٥ —	الأيض
٢٧٥ —	أخبار دار السلطنة «صحيفة»
٣٩٢٠٢٩٢٠٢٩٠٠٣٥٥٠٣١٨ —	أخبار عام «صحيفة»
٧٢ —	أدرنة
٢٩٩ —	الأرنؤوط (بلاد الأرنؤوط)
٢٩٦ —	أدوقا
٤٠٨ —	أرمستان
١٥٦ —	أزبك
٢٠٠ —	أزمير
٤١٩٠٣٨٩٠٢٢٧٠٢٠٠٠٢٠١٩٠١١٧٠١١٧٠١١٧٠ —	الأزهر الشريف
٥٤ —	أسبانيا
٣٢٩٠٢٠٠٠١٨٥٠٢١٠٢٤٠٢١٠٢١٠٢١٠ —	الاستانة (استانبول)
٤١١٠٣٧٨٠٣٣٩ —	
٤٠٤ —	استندارد
٣٢٩٠٢١١٠١٩٣٠١٨٢٠١٧٢٠١٦٦٠٢٨٠٢٥ —	اسكندرية
٤٠١٠٣٨٠٠٣٧٨٠٣٦٢ —	
٤٠٥ —	اسكيار نيافيس

(١) الحرف (م) يدل على الصفحة في المقدمة .

١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ —	أسوان
٣١٥ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨	
٣٠٩ ، ٣٠٨ —	أسيوط
٢٢٣ —	اصطخر
٤١٥ —	أشقا باد
١١٠ ، ١٠٦ —	اطلاع « صحيفة »
٣٣١ —	إفريقيا
١١٠ ، ١٠٨ ، ١٠٦ ، ٣١ ، ٢٦ ، ١٩ ، ١١ ، ١٠٨ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٧ ، ٢٨٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ —	أفغانستان « بلاد الأفغان » — ج ، ١١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٧ ، ٢٨٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣
٤١٥ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٠ ، ٣٣٩ ، ٣٠٦	
٣٨٦ —	أكرو
٢٤٥ —	الاكترا بلات « صحيفة »
٣٦٢ —	الأنزاس
١٨ —	الأنسن (مدرسة)
٣٢٦ ، ٣٢١ —	أمريكا
٢٨٤ ، ٢٨٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ١٨٩ ، ١٥٧ ، ١٢٢ —	المسانيا
٤١٤ ، ٤١١ ، ٤٠٧ ، ٣٧٩ ، ٣٦٢ ، ٣١٦ ، ٣١٣ ، ٢٨٥	
١٨٩ —	إمس
٣٤٢ —	امير تاباتازار برتركا « صحيفة »
١٥٦ —	اندخو
٦٩ ، ٤٣ ، ٢ —	الأندلس
٣٨٣ ، ٢٨٧ —	اندومان « جزيرة »
٣٨٨ —	الأهرام « صحيفة »
٣٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢١ —	أوده « ملكة »
٣٤٢ —	أوده اخبار

٣٩١ ، ٣٧٩ ، ١٢٣ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٣٢ ، ٢٦ ، ١١ —	إيران
٢٢٢ ، ٢٢١ ، ١٨٩ ، ١٨٧ —	إيرلندا
٢٩٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٧٠ —	إيطاليا

(ب)

٣٨٠ ، ٣٥٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٢ ، ٣١٣ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩ —	الباب العالي
(وانظر الدولة العثمانية)	
ج ، ١٨ ، م ، ٣٣ ، م ، ٣٦ ، م ، ٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٨٤ ، ٤٠٩ ، ٤٠٠ —	باريس
١٨٨ —	باكنين
٤١٥ —	بال فاست
٤١٦ ، ٣٧٧ ، ٣٦٩ ، ٣٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٤٩ ، ٢٣٢ ، ١٨١ —	بال مال جازيت
٢٨٢ —	بتر سبرج
١٨٧ —	بتريس (سان بترس)
٣٩٨ —	بتسالة
٢٩٩ ، ٢٨٥ ، ٦٨ —	البحر الأبيض
٢٠٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٥٥ ، ٣٨ —	البحر الأحمر
٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ، ٢٤٥ ، ٣٨٠ ، ٣٥٩ ، ٣٤٩ —	
٢٨٢ ، ٢٠٦ ، ١٢٢ —	بحر الخزر
٢٩٩ —	البحر الهندي
٤١٦ ، ٢٢٣ ، ١٤٠ —	البحيرة
١٧٩ —	بخاري
١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ —	بربر

٣٥١ —	البوسفور « بوزاز »
٣٠٨ —	البوسفور اجيسان « صحيفة »
٤٠٦٠٣٤٩ —	بوسنه
٣٣٠ —	بولونيا
١٠٦ —	بلاد العرب
٢٨٣٠٣٥ —	بيت الله الحرام
٥٤ —	يرنى « جبال »
١٩٦ —	ير هندوك
١٨ —	بيروت
٣٠٦٠٧٢ —	يشاور

(ت)

٣٢٧ —	التاج بلات « صحيفة »
١٧٩ —	تاشكند « طشقند »
١٦٧ ١٧٣ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٩ ٢٠٥ ٢١٨ ٢٢٢ ٢٦٣ ٢٨٠ ٢٨٥ ٢٩٦ ٢٩٣ ٢٣٣ —	التان
٤١١٠٤٠٧	
٢٠١٠١٩٨ ١٩٣ ١٨٦ ١٧٣ ١٦٨ ١٦٦ ٢٧ —	التايس
٢٠٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢٢٠ ٢٢٦ ٢٣٢ ٢٣٧ —	
٢٤٥ ٢٤٦ ٢٦٢ ٢٧٩ ٢٨٤ ٣٠٨ ٣١٠ ٣١٢ —	
٣١٥ ٣٢٤ ٣٤٨ ٣٨٦ ٣٦٩ ٤١٣ —	
٢٨٢ —	تجنبد « نهر »
٣٤٢ —	تركيا (وانظر الدولة العثمانية)
٣٦٩ —	التروث « صحيفة »

٤٠٨ —	تفليس
١٨٨ —	تكين
٣٧٩٦٢٥٥ —	الثل الكبير
١٦٦ —	توکار « طوکر »
٤٠٧٦٢٤٣ —	تونس
٦٧ —	تونکائی
١٩٤٦١٨٨ —	التونکين

(ث)

٢٠٣ —	ثمانية « ناحية »
-------	------------------

(ج)

٣١٣ —	جازيت دوکولونی
٢٨٠ —	جازيت ناسيونال
١٧ م —	الجامع الاحمدی
٣٠٩ —	جرجا
٢٢٦٦٤٤ (وانظر بلاد العرب) —	جزيرة العرب
٢٧٥ —	جنبه

(ح)

٣٨٠ (وانظر ملك الحبشة) —	الحبشة
٣٨٠٦٢٦٦٦٢٧٠٦١٩٦٦١٩٢٦٢٦ —	الحجاز
٣٤٧ —	الحرمين الشريفين
١٧ هـ —	حصه شبشير

(خ)

— ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ،
٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ، ٤١٤

خرطوم

— ٢٧٤

خليج فارس

(د)

— ١٨ م

دار العلوم

— ٤٠٨

دارسين

— ٣١٠

دارفور

— ٣٨٦

دسوق

— ٢٩٥

دكاشيا

— ١٨٢

دمياط

— ١٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٣١٥

دنقلا

— ٤١٤

دوصد

— ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ،

الدولة العثمانية

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،

٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ ،

٣٦٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،

٢٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ — (وانظر

الباب العالى)

— ١٩٤ ، ٢٨٨

الديبا

— ١٩٤

ديسى « جزيرة »

الدليل تلفراف — ٢٤٨ ، ٣١١ ، ٣١٠ ، ٢٩٥ ، ٢٨٤ ، ٢١٧ ، ٢١١ —
الدليل نيوز — ٢٩٤ ، ٢٠٥ ، ١٩٨ ، ١٨٩ ، ١٨٣ ، ١٨١ ، ١٧٧ ، ١٦٨ —
٣٣٣ ، ٢٩٥

(ر)

رشيد — ١٨٢ —
الرواق العباسي — ٢٠ م —
روسيا — ٢٠٦ ، ١٨٩ ، ١٧٤ ، ١٥٧ ، ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٢٢ —
٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ،
٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
٣٨١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ،
١٥٩ — الروملي
ريپليك فرانسي — ١٩٤ ، ٢٤٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٤٠٩ —

(ز)

زيلع — ٣٨٠ —

(س)

سالونيك — ٢٩٩ —
سان بترسبورج «صحيفة» — ١٧٣ ، ١٨٩ —
ستارة — ١٢١ —
الستاندر — ١٤٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢١٧ —
ستراسبورج — ٤٠٩ —
سجستان — ١٥٦ —

١٥٦ —	سربوب
٤١٦ ، ٤١٥ ، ٣١٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ١٥٦ —	سرخس
٦٧ —	سرنديب
٣٨٢ ، ٣٣٠ ، ٢٦٧ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٦٩ —	السلطنة التيمورية
٢٤٢ —	ملا
٤١٦ ، ٣٢٩ ، ١٢٣ ، ١٢١ —	السند
٥١٧ —	السنطة
١٤٠ ، ١٧٣ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ —	سواكن
٣٥٩ ، ٣٥٧	
٣٥ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢١ —	السودان
١٨ ، ٤٤ ، ١٩٢ ، ٢٧٠ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠ —	سوريا
٣٣٢ م —	السويس

(ش)

٢٨٥ ، ١٧ م —	شبراخيت
١٤٠ ، ٢٢٣ ، ٤١٦ —	الشرقية « مديرية »
١٧٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٥٠ ، ٢٩٥ —	شندى
١٥٦ —	شيورغان
٤٤٣	

(ص)

٢ —	صقلية
٢٩٩٦١٨٨ ، ١٢٩ ، ٦٧ ، ٥٤ —	الصين

(ط)

٣١٠ ، ٢٩٩ ، ١٥٥ —	طرابلس الغرب
١٧ م —	طنطا
١٠٧ ، ١٠٦ —	طهران

(ع)

٢٢١ —	عبيد « مدينة »
١٨٢ —	عدن
٢٦ —	العراق
٢٨٢ —	عشقباد
٣٨٤ —	على كده
٤٦ —	عليكر
٢٧٥ —	عنبر سر

(غ)

٦٧ —	الغرب الأقصى
٣٨٦ ، ٢٧٨ ، ١٧ —	الغربية « مديرية »
١٥٧ —	غزنة

(ف)

٣٥٣ ، ١٥٦ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٣١ ، ٢٧ —	فارس
١٥٦ —	فراء
٢٤٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ١٩٤ ، ١٣٧ ، ٥٤ ، ٣٦ ، ٢ —	فرنسا
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١١ —	
٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ —	
٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ، ٤٠٤ —	
٤٠٧ ، ٤٠٦ —	
٢٨٣ —	فلقان
١١٠ —	فرهنگ « صحيفة »
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٤٠٩ ، ٤١١ —	فينا
١٤٠ ، ٢٢٣ —	الفيوم

(ق)

٦٧ —	قازان
١٥٦ —	قايين
٢٤٣ ، ٣٠٦ ، ٤١٢ —	قبرص
٢٢٣ —	قنا
١٥٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٣١٣ —	قناة السويس
٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٥١ —	
٤٣ —	القدس
١٥٧ ، ٤٠٧ —	قندهار

(ك)

٣٩٨ —	كابورتال
-------	----------

١٥٧ —	كابول
٣٨١ ، ١٩٩ —	كسلا
٢٩٢ ، ٢٧٥ —	كلكته
٣٥٨ ، ٣٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ١٩٣ ، ١٨٩ ، ١٦٨ ، ١٥ —	كوردفان
٣١٥ ، ٣١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٣٣ ، ١٩٣ —	كورسكو
٢٠٩ —	كوركووسيك
١٩٤ —	كوشنشين
١٨٨ —	كونج
٤٠٠ —	الكونجيو
٢٨٣ —	الكويت

(ل)

١٨٣ ، ١٨٢ —	لابوشير
٣٣١ —	لاجوستيس
١٨٨ —	لانسون
٣٩٨ ، ٣٩٠ ، ٢٤٢ ، ٢٠٩ —	لاهور
٣٣٤ ، ٢٧٥ —	لكنو
٣٠٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٠٥ ، ١٨١ ، ٣٥ —	لندن
٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦١ ، ٣٥١ ، ٣١٩ ، ٤٠٩ ، ٣٩٩ ، ٣٩٢ ، ٣٨٨ —	
٢٦٢ —	اللورين

(م)

٤٠٩ —	المانان
-------	---------

٤١٢ —	مالطة
٢٣ م —	مجلس الشورى
١٧ م —	محلة نصر
٣٢٩ —	محمرة
٣٢٩ ، ٩ —	المحيط الأطلسي
٩ —	المحيط الهادى
٦٧ —	المحيط الهندى
٣٩١ —	مدراس
٢٩٩ ، ١٩٤ —	مدغشقر
٣٣ —	مراكش
٢٩٤ —	مراوى
٤١٥ ، ٣١٨ ، ٢٨٢ ، ٢٠٦ ، ١٥٦ ، ١٢٣ —	مرو
٢٧٥ —	مشير قيصم «صحيفة»
٢٣٥ ، ١٩٤ ، ١٨٢ —	مصوع
١٩٦ —	مكة
٣١٥ —	المورتنج بوست
١٥٦ —	ميمبه
٤١٥ ، ٢١٥ ، ٢١١ ، ١٩٣ —	الميموريال ديبلوماسيك - صحيفة

(ن)

٢٧٤ —	نجد
١٥٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦٢ —	النمسا
٤١١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٣٦٥	

١٩٣ ، ١٧٣ —	نوبيا
١٠٧ —	نهاوند
٤٠٠ ، ٣٣٣ —	نوفل بريس لير
٢٩٥ ، ١٦٨ —	النيل الأبيض
١٦٨ —	النيل الأزرق

(ه)

٣١٦ —	هافس
٤٠٦ ، ٢٨٣ ، ١٥٧ ، ١٠٧ —	هراة
٣٨٠ —	هرر
٤٠٦ ، ٣٤٩ —	هرسك
٣٧٥ —	هملايا
ج ، ١١ م ، ٢٤ م ، ٦ ، ٢٧ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ١٠٨ ، ١١٤ —	هند
١٣١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،	
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ،	
١٨٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٥ ،	
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ،	
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ،	
٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،	
٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٩١ ،	
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ —	

١٣٧ —	الهند الصينية
٢٠٣ —	هندوك
١٣٧ —	هولندا

(و)

وادی حلفا	— ٤١٥ ، ٣١٥ ، ٢٩٤
وارزین	— ٤٠٠ ، ٣٧٨
وبلیان	— ١٥٦
الوقائع الرسمية	— ١٨ م
ویانا	— (انظر فینا)

(ی)

الیین	— ٣٨٠ ، ٢٧٠ ، ١٩٢
اليونان	— ٣٦

ثبت الأعلام

١٠٧ —	الأمدي
٣٢٦ —	آمون
٨٥ —	إبراهيم النبي
٢٥٢، ٢١٧، ١٦٢ —	إبراهيم باشا
٦٧ —	ابن باجة
٦٧، م ٣٦ —	ابن رشد
١٠٧، ٦٧، م ٣٦ —	ابن سينا
٦٧ —	ابن الطفيل
١٠٧ —	الأبهري
١٠٧ —	أبو بكر الرازي
١٠٧ —	أبو داود
٣٧٩ — (وانظر سلطان باشا)	أبو سلطان
١٠٧ —	الأيوردي
٦ م —	أتيل
٣١١ —	أجرتون
٣٨٦، ٣٨٥، ٣٨٤، ٣٨٣ —	أحمد خان
١٧٦ —	أخوند سوات
٤٠٨ —	الأرامنة
١٣ م —	الأرمن الحورانية
١٣ م —	الأرناؤوط

٤٣ —	الاسبانيوليون
٣١٦ —	استفانوس
١٠٧ —	الاسفراييني
٢٨٢، ١٠٠ —	اسكندر الأكبر
٤ — م، ٢٣، م، ٢٨، م، ٣١، م، ٢٧٣، ٤٠٩، ٤١٠،	اسماعيل باشا الحديوي
١٠٧ —	الاصطخري
١٠٧ —	الاصفهانى أبو الفرج
١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٢٥، ١٢٦، ١٥٧، ٢٨٣،	الأفغانيون
٢٣٩، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦٤، ٣٨٠ (وانظر أفغانستان)	
٣٩٠ —	أكبر شاه
١٠٩، ٢٩٨، ٣٢٧، ٤٠٦ (وانظر المانيا)	الألمان
٢٥، ٢٧، ٢٨ —	الانجيل
٢٨٩ —	أنوشروان
٢٢١، ٢٩٦ —	أوكلى
٠٦، ١٠٩، ٢٨٤، ٣٥٢ (وانظر إيران، وفارس والفرس)	الإيرانيون
١٧٢، ١٨٧، ١٩٠، ٢٢١، ٢٢١، ٣٢٢، ٣٥٢،	الآيرلنديون
(وانظر أيرلندا)	

(ب)

١٨٧ —	بارنل
٣٩١ —	البساريا
٢١٦ — (وانظر بيكر باشا وصامويل بيكر)	باكر
١٦٧، ٢٠٢، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٩٥، ٣٥٨، ٣٩٩، ٣٦٢،	بارنج « بارين »
١٠٧ —	البخارى

١٠٧ —	بديع الزمان الهمذاني
١٠٧ —	البرابرة
١٠٧ —	البردوى صدر الشريعة
٣٩١ —	برهما
٣٧٩ —	بروكش باشا
١٠٧ —	البسطامى أبو اليزيد
١٢٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ —	بسمارك
٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ —	
٤٧ م —	بطرس الراهب
١٠٧ —	البغوى
٣٩٠ —	بكر ماجيت
١٠٧ —	البلخى أبو جعفر
٢٨٣ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢ —	البلوخي
٢٣٧ —	بلونت
٢٠٠ —	بهرام اغا
٣ —	بوكاشيو
٢٣٢ —	بوير
١٠٧ —	البيضاوى
١٥٥ —	بيكر باشا
١٨٣ ، ١٧١ —	بيكو نسفيلد
٥٧ ، ٥٦ —	التتر
١٨٩ —	تراشى
٢٧ —	الترك (وانظر : العثمانيون ، والباب العالي ، الدولة العثمانية)
١٥٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٨ —	التركان

الترمذى	— ١٠٧
تشرشل	— ٣٣١
التفتازانى السعيد	— ١٠٧
التلکان	— ٣٩١
توفيق باشا الخديوى	— د ، هـ ، ١٠ م ، ٣١ م ، ٣٢ م ، ١٣٩ ، ١٦٧ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٣٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
تيوسلطان	— ١٢٨
تيم	— ٧٦
تيمور الكوركان	— ٦٧
تيمورلنك	— ٣٤

(ث)

ثابت باشا	— ٢٥٧
الثورة العراقية	— ١٨ م ، ٢٢ م ، ٢٥ م ، ٢٨ م ، ٤ (وانظر عرابى ، الحركة العراقية)

(ج)

الجبرية	— ٥١
الجراکسة	— ١٣ م
جيرانفيل	— ١٦٦ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٩٨
جراهام	— ٣٨ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢٩٦

١٠٧ —	الجرجاني
١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ٤٧ —	جلادستون
٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٣ ، ٢٤١ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢١١ ، ١٩٤	
٢٦٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٩ ، ٢٤٨ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٢٨٤	
٤١٦ ، ٤١٤	
٢٨٣ —	جمشیدی
٥٦ ، ٥٥ ، ٣٤ ، ٦ م —	جنکيز خان
٨١٧ —	جنينة « أم محمد عبده »
٣٩٠ —	الجهنري
١٩٣ ، ١٨١ ، ١٧٧ ، ١٧٣ ، ١٦٨ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ٣٧ —	جوردون
٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ١٩٩ ، ١٩٨	
٢٤٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٣٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٢٠ ، ٢١٨	
٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٨٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٠	
٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٦ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣٠٩	
٤٢١ ، ٤١٤ ، ٤١٢	
٨١ —	جوستاف جرونيام
٨٣ —	جوستاف لوبون
٢٣٢ ، ٣٣٠ —	جول فرى
١٠٧ —	الجوهرى
٣٧٥ —	جيرت سنك
٤١٥ —	جيرس وزير خارجية روسيا

(ح)

٢١٥ — (وانظر يوحنا ملك الحبشة)	الحبش
٣٣٩ —	الحجاج بن يوسف
٢٤٣ — (وانظر الثورة العراقية ، وعراقي)	الحركة العراقية

٣٤٩ ، ٢٩٥ ، ٢٦٢ ، ٢٠٨ —	حسن باشا خليفة
٧٧ ، ٧٦ —	حلف الفضول
٤١٠ —	حليم باشا
٣٦٠ م ، ٢٤٠ م ، ٤ —	حيدر بامات

(خ)

٣٤ —	الخلفاء العباسيون
٢٥٧ —	خيرى باشا

(د)

٣٦٢ —	دبلنير الفرنسى
١٧ م —	درويش خضر
١٥٤ (وانظر محمد أحمد) —	دعوة المهديّة
٦٥ —	الدهيرو
٤١٥ ، ٣٨٠ ، ٣٥٨ ، ٣٠٦ ، ٢٧٩ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٠٠ —	دوفرين
٢٨٢ —	دوندكوف
٣٧٨ (وانظر جيس) —	دى جيس
٣١٣ —	ديلسنس

(ر)

٣٧٢ —	راجا برودا
٦٧ —	الرازى
٣٤ —	الراشدون
٣٩٢ —	رام جندر متر

٣٠٦ —	رانجيب سنك البنجابي
٣٩٨ —	راند هيرسنك
١٠٧ —	الرضى
٢٠٧ —	رمنتون
٢٩٥ —	روبا تاب
٣١٧، ٢٨٣، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٠٠، ١٩٠، ١٥٧، ١٥٦، ١٣٨، ٧١ —	الروس
٣٤٢، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٥٥ (وانظر روسيا)	
١٢٩، ١ —	الرومانيون
٣٨٨، ٢٩٥، ٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٤ —	رياض
٤١٨، ٣٨٩	
٣٩٢ —	ريون
٣١٦، ٣٧٧ م —	رينان

(ز)

٣١١، ٣٠٩، ٣٠٨، ٢٤٥، ١٨١، ١٧٨، ١٧٧، ١٦٩ —	زير باشا
٣٨٩، ٣١٢	
٣٠١ —	زرادشت
١٧٥ —	زفريا
١٠٧ —	الزخشمري
٣٧٠ —	الزولو
٧٦ —	زهرة

(س)

٣٣١، ٣١٣، ٣٣٥ م —	سالمبوري
-------------------	----------

١٠٧ —	السر خسي
٣٧٥ —	سر سينك
٣٤٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٠ —	سعيد باشا الصدر الأعظم
١٠٧ —	السكاكي
٢٢١ —	السلطين المغولين
٢٥٧ —	سلطان باشا
٣٠٢ —	السلطان التيمورى
٦٧ —	السلطان سليم
٢٨٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧١ ، ٢٥٠ ، ٢١٦ ، ٦٧ ، ٥٧ —	السلطان العثمانى
(وانظر الدولة العثمانية ، والباب العالى)	
٣٩٩ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٧٩ —	سميع الله خان
٣٧٦ ، ٣٧٥ —	سوجت سنك
١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٦٨ —	السودانيون (وانظر السودان)
٣٤٨ —	سوفارو
٣٧٥ —	سيام سنك
١٠٧ —	سيويو
١٠٧ —	السيد الشريف

(ش)

١٠٧ —	الشبلى
٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ —	شريف باشا
٢٨ م —	شكيب أرسلان
١٠٧ —	شهاب الدين المقتول
٣١٣ —	شوفالوف

(ص)

- صاحب الدين — ١٥٢
صاحب الشرع، صاحب الشريعة — ٣٨٣، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٦٦، ٣٠، ٢٨
عامويل بيكر — ٢٥٠ (وانظر بيكر باشا، وباكر)
الصدر الشيرازي — ١٠٧
صديق نواب حسن خان — ٣٨٥
صلاح الدين الأيوبي — ٦٧
الصينيون — ١٨٨ (وانظر الصين)

(ط)

- الطبري المؤرخ — ١٠٧
الطوسي الخواجه نصير الدين — ١٠٧

(ع)

- عالي باشا الصدر الأعظم — د
العائلة التيمورية — ٣٩٢ (انظر السلطان التيموري)
العباس عم النبي (ص) — ٣١٢
عباس (الخديو) — ٣٨٨، ٣٧٤
العباسي المهدي — ٤١٩
عبد الله بن أبي سلول — ٢٧٤
عبد الله بن جدعان — ٧٦
عبد الله الوهابي — ١٧٦
عبد الحميد السلطان — و ، ز ، ١١ (انظر السلطان العثماني ، والعثمانيون ،
والدولة العثمانية ، والباب العالي)

عبدالرحمن خان أمير أفغانستان — ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٣٦٤

عبد الغفور شهباز مولوى — ٢٩٢

عثمان دجة — ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ،
٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ،
٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

عثمان الغازى — ٩٩ ، ١٠٠

العثمانيون — ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢ ،
٢٨٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ،
٢٦٥ ، ٣٨٠ ، ٤١٣ (انظر الدولة العثمانية والسلطان
العثمانى والباب العالي)

عرايى — ١١٥ ، ١٣٩ ، ٢٤٩ ، ٣١٧ ، ٣٤٩ ، ٣٦٤ ، ٣٨٠ ، ٤٢٠ ،
(وانظر الحركة المرايية والثورة المرايية)

عضد الملة والدين — ١٠٧

على الهامى — ٣٦ م

عمر لطفى باشا — ٢٥٧

(غ)

الغزالى (أبو حامد) — ٥٦ ، ١٠٧

غليوم الألمانى — ١٥٦

(ف)

الفارابى — ٦٧

الفارسى أبو على — ١٠٧

الفارسيون — ١٠٨ (وانظر فارس ، والفرس ، والإيرانيون ، وإيران)

فاروق — ١١ م

١٠٧ —	بغرا الدين الرازي
٣٥٣ ، ٣٣٩ ، ١٠٦ —	الفرس
١٥ — (وانظر فرنسا)	الفرنسيون
٣١٨ —	فندت اللاهوري
١١ م —	فؤاد
١٢١ —	فوتا
١٠٧ —	الفيروزا بادي مجدين الدين
٢٨٣ —	فيروز كوهي
٢٧٤ —	فيصل أمير نجد
٣٥٠ — (وانظر محمد أحمد)	القائم السودان
٢٠ م —	قاسم أمين
١٠٧ —	القزويني
١٠٧ —	القطب الشيرازي
٣٧٥ —	قوبال سنك «كوبال سنك»

(ك)

١٢٣ ، ١٢١ —	كارناتك
٣٧٨ —	كالتوكي
ز —	كرين
٢٧٦ ، ٢٤٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٠٠ —	كليفوردي لويدي
١٠٧ —	الكليفي
٢٧٤ —	كورتلي ييلي
٤١١ ، ٤٠٩ ، ٣٧٨ —	كورسيل
٥٥ —	كورش «كيخسرو»

٦٧ ، ٢٧ —	محمود الغزنوى
١٠٧ —	محيى الدين ابن العربى
١٢٣ ، ١٢١ —	المرتبين
١٠٧ —	مسلم
١٩٦ ، ١٧٠ —	المرعنى
١٠٧ —	المرغينانى
١٧ ، ١٧ م —	مصطفى عبد الرازق
٢٧ —	ملكاه سرجم
٦٧ —	ملكشاه السلجوقى
٣٥١ ، ٢٨٠ ، ١٦٦ —	موزوروس باشا
٢٧ —	موسى النبى
١٠٧ —	مير باقر الداماد
٣٧٩ —	ميرزا خان
٣٣ م —	ميرزا محمد باقر
١٠٧ —	مير فندر كسى

(ن)

١٥٦ ، ٠٠ ، ٥٦ —	نابليون الأول
٢٨٢ —	نادر شاه
٢٨٣ —	ناصر الدين شاه الأيرانى
١٠٧ —	النسائى
٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٢٩٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٤٦ ، ٢٢٦ ، ٢٠٢ —	نوبار
٤٢٣ ، ٤١٩ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨	

ورث بروك — ٣٧٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٢ ، ٣٦٢ ، ٣١٨ ، ١٨٢ —
٣٧٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤١٢

٤١٩

— ٤٦

النيجيرية

— ١٠٧

النيسابورى

(هـ)

— ٧٦

هاشم

— ٣٦٩ ، ١٨٢

هرتسكتون

— ١٠٧

المروى

— ١٥٧

هرارة

— ٣١٠ ، ٢٩٦ ، ٢٣٥ ، ٢١٤ ، ١٩٤

هفيت

— ٢١٦ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢٠٨ ، ١٧٣ ، ١٥٥ ، ٣٨

هكس

— ٢٧١ ، ٢٠٩ ، ٣٦ (وانظر الهند)

الهنديين

— ٢٠٧

هنرى مارتن

— ٣٦ م

هوميروس

(و)

— ٣٧٩ ، ٣٧٨

ولسلى

— ٢٠١

ولسون

— ١٦ م

الوهابية

(ى)

— ٢٧

يوشع بن نون

— ١ م

اليونانيون

ايداع رقم ٩٣/٣٠١٦ دولى رقم ١ - ٠٢ - ٩٧٧/٥٣٨٣

دار الجيل للطباعة
١٤٠٤٣٤٣ - القاهرة - الجمهورية العربية السورية

الناشر:

دار العرب

تأسست ١٩٠٠ م

للبيعتاني

٢٨ شارع الفجالة - القاهرة

ت ٩٠٨٠٢٥